هاروكي موراكامي

يوميات طائر الزنبرك

الكتاب الثاني

رواية

ترجمة: محمد عبدالعاطي عبدالخير

منشورات الجدار

هاروكي موراكامي

يوميات طائر الزنبرك The Wind-up Bird Chronile

ترجمة: محمد عبدالعالطي عبد الخير

فبراير 2019

هاروكي موراكامي

يوميات طائر الزنبرك

الكتاب الثاني:

الطائر نبياً

يوليو – أكتوبر 1984

ترجمة: محمد عبد العاطي عبد الخير

1

حقائق ملموسة قدر الإمكان

*

الشهية في الأدب

*

لم تعد كوميكو إلى المنزل تلك الليلة. ظللت مستيقظاً حتى منتصف الليل، أقرأ، وأستمع للموسيقى في انتظارها. لكنني استسلمت في النهاية وأويت إلى الفراش، واستغرقت في النوم والمصابيح مضاءة. وعندما استيقظت، كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً، وضوء الشمس يملأ الفضاء خارج النافذة، وتأتيني أصوات زقزقة الطيور من خلف الستائر الرقيقة. ولم يكن ثمة أثر لزوجتي. الوسادة البيضاء في مكانها بجانبي على الفراش، عالية ومنتفخة. وبدا لي أنه لم يسترح عليها أي رأس خلال الليل. وبيجامتها الصيفية المغسولة حديثاً والمطوية بعناية موضوعة على المنضدة. *أنا* الذي غسلتها، و*أنا* الذي طويتها. أطفأت المصباح الذي بجوار وسادتي وأخذت نفساً عميقاً، كما لو أنني أنظم انسياب الوقت.

تجولت في أنحاء المنزل مرتدياً بيجامتي. قصدت المطبخ أولاً، ثم جُلت بناظريّ في صالة الجلوس، ونظرت إلى داخل غرفة كوميكو. وتفقدت الحمام، وللتيقن فحسب، ألقيت نظرة بداخل الخزانات. لم يكن هناك أي أثر لها في أي مكان. بدا

المنزل لي أهدأ من المعتاد. شعرت كما لو أنني - بتحركي هنا وهناك- الوحيد المُلام على الإخلال بالتناغم الهادئ الذي يسود المكان، ودون أي سبب وجيه.

لم يعد أمامي المزيد لأفعله. فعدت إلى المطبخ، وملأت الغلاية، أوقدت النار. وعندما غلى الماء، أعددت القهوة، وجلست إلى طاولة المطبخ، أخذت منها رشفة. ثم أعددت الخبز المحمص، وتناولت بعضاً من سلطة البطاطس من الثلاجة. كانت هذه هي المرة الأولى، منذ سنوات، التي أتناول فيها الإفطار وحدي. عندما عدت بذاكرتي، أدركت أننا لم نفوِّت تناول الإفطار معاً ولا مرة منذ زواجنا، باستثناء رحلة عمل واحدة. كنا غالباً ما نفوت الغداء، وحتى العشاء أحياناً. لكن ليس الإفطار، إطلاقاً. كان بيننا تفاهم ضمني بشأن الإفطار، ويكاد أن يكون طقساً مقدساً بالنسبة لنا. لا تهم الساعة التي نخلد فيها إلى النوم، دائماً ما نستيقظ مبكراً لنعد وجبة صباحية لائقة، ونستقطع الوقت لنستمتع بها معاً.

لكن كوميكو اختفت ذلك الصباح. ارتشفت قهوتي، ومضغت خبزي المحمص وحدي، في صمت. كل ما كان أمامي لأنظر إليه هو كرسي شاغر. كنت أنظر وآكل وأفكر بذلك العطر الذي كانت تضعه صبيحة اليوم السابق. وفكرت بشأن الرجل الذي قد يكون قد أعطاه لها. وتخيلتها وهي تضجع معه في الفراش في مكان ما، وأذرعهما متشابكة حول بعضهما البعض. رأيت يديه تداعبان جسدها العاري. ورأيت نعومة ظهرها كما رأيته في الصباح، البشرة الملساء تحت السحّاب.

بدا لي أن القهوة يتخللها مذاق صابوني. لم استطع تصديق ذلك. استشعرت مذاقاً كريهاًبعد الرشفة الأولى. فتساءلت عما إذا كانت مشاعري تتلاعب بي، لكن كان للرشفة الثانية المذاق نفسه. فأفرغت الكوب في المغسلة، وصببت لنفسي مزيداً من القهوة، في كوب نظيف. ومجدداً، مذاق الصابون نفسه. لم أستطع تخيُّل السبب. كنت قد غسلت الإناء جيداً، وكان الماء نظيفاً. لكن المذاق -أو الرائحة- لا يمكن إغفاله، ولا يمكن أن يكون سوى صابون، أو ربما دهان مرطب. تخلصت من كل القهوة التي في الإناء، وشرعت في غلي مزيد من الماء. لكن الأمر لم يكن يستحق

العناء. ملأت كوباً من الصنبور وشربته بدلاً من ذلك. لم تكن لدي رغبة قوية في شرب القهوة على أي حال.

*

انتظرت حتى التاسعة والنصف، ثم اتصلت بمكتب كوميكو. أجابت امرأة على الهاتف.

سألتها: «أيمكنني التحدث إلى كوميكو أوكادا من فضلك؟»

«آسفة، لم تأتِ بعد».

شكرتها وأنهيت المكالمة. ثم شرعت في كيّ القمصان، كدأبي عندما أكون قلقاً. وعندما نفدت مني القمصان، رتبت الصحف والمجلات القديمة، ومسحت المغسلة وأرفف الخزانة، ونظفت الحمام، ولمّعت النوافذ وكل مرآة في المنزل بمنظف الزجاج. حللت الزينة المثبتة على السقف ونظفت الزجاج المبرغل. نزعت أغطية الفراش وألقيتها في الغسالة وفرشت أغطية جديدة.

اتصلت بالمكتب ثانيةً عند الحادية عشرة. فأجابت الفتاة نفسها، ومجدداً، قالت لي إن كوميكو لم تأت.

سألتها: «هل قالت إنها سوف تتغيب عن العمل اليوم؟»

«ليس على حد علمي». قالت دون أي أثر لأي مشاعر. كانت تبلّغ الحقائق فحسب.

لا بد أن ثمة شيء غير عادي إذا لم تذهب كوميكو إلى العمل ولم تتصل حتى الساعة الحادية عشرة. تعمل معظم مكاتب التحرير الخاصة بالناشرين في ساعات غير منتظمة، لكن ليس الشركة التي تعمل بها كوميكو، التي تصدر مجلات عن الصحة والغذاء الطبيعي. كانوا يتعاملون مع الكتّاب، وأصحاب التخصصات

الأخرى كمنتجي الغذاء، والمزارعين، والأطباء – الذين يذهبون إلى العمل في الصباح الباكر ويعودون إلى منازلهم في المساء. ولكي يتماشوا مع نظام الشركة، كانت كوميكو وزملاءها يذهبون إلى الشركة عند التاسعة تماماً ويغادرون عند الخامسة، ما لم يوجد سبب خاص يدعو للبقاء.

بعدما وضعت السماعة، ذهبت إلى غرفة النوم ونظرت بداخل خزانتها. إذا كانت قد تركت المنزل، لأخذت معها ملابسها. تفقدت فساتينها وتنانيرها التي كانت معلقة هناك. وبطبيعة الحال، لم أكن أعرف كل قطعة ملابس تمتلكها - لم أكن أعرف كل قطعة ملابس أمتلكها *أنا*- لكنني كثيراً ما آخذ ملابسها إلى المغسلة وأحضرها لها، لذلك لدي معرفة جيدة بالملابس التي ترتديها غالباً والمفضلة لديها. وحسب ما بدا لي، فإن كل شيء كان موجوداً.

بالإضافة إلى ذلك، لم تكن لديها الفرصة لتأخذ معها الكثير من الملابس. حاولت أن أتذكر، قدر الإمكان، لحظة مغادرتها المنزل في اليوم السابق، الملابس التي ترتديها، والحقيبة التي تحملها. لم تكن تحمل سوى حقيبة اليد التي تحملها دائماً معها إلى العمل، وهي محشوة بالدفاتر وأدوات التجميل، ومحفظتها، وأقلام، ومنديل قماشي، ومناديل ورقية. إذاً ما كانت لتتسع لأي ملابس.

بحثت في أدراج منضدة الزينة. الإكسسوارات، والجوارب، والنظارات الشمسية، والملابس الداخلية، والقمصان القطنية. كل شيء كان موجوداً، ومرتباً في صفوف منتظمة. كان من المستحيل أن أعرف إذا ما اختفى أي شيء. يمكنها أن تأخذ الجوارب والملابس الداخلية معها في حقيبتها، بالطبع. لكن عندما أفكر بالأمر، لمَ قد تكلف نفسها العناء؟ يمكنها أن تشتريها من أي مكان.

عدت إلى الحمام لأتحقق من علبة أدوات تجميلها، ولم يكن ثمة أثر لتغيير أيضاً. ثم فتحت قنينة عطر كريستيان ديور وتنشقتها. فكانت رائحتها كما في السابق، عبير زهرة بيضاء، مثالية لصباح صيفي. وتذكرت مجدداً أذنيها وظهرها الأبيض.

قصدت صالة الجلوس، وتمددت على الأريكة. أغمضت عينيّ، وأصغيت. فلم أسمع سوى صوت الساعة. ما من ضجيج سيارات أو زقزقة طيور. لم تكن لديّ فكرة عما عليّ فعله. فقررت الاتصال بمكتبها مجدداً، حتى إنني رفعت السماعة وأدخلت الأرقام الأولى، لكنني لم أحتمل فكرة الحديث مع الفتاة نفسها مجدداً، ووضعت السماعة. لم يعد لدي ما أفعله، سوى الإنتظار. ربما هجرتني كوميكو، أياً كان السبب الذي لا أعرفه، لكن هذا احتمال بعيد. وحتى إذا كان صحيحاً، فهي لم تكن من نوع الذين يقطعون علاقتهم دون أي كلمة. بل لبذلت كل ما بوسعها لتوضح أسبابها الفعلية ما استطاعت إلى الدقة سبيلا. كنت متأكداً من هذا بنسبة مئة في المئة.

أو ربما يكون قد وقع حادث. ربما صدمتها سيارة وأُدخِلت إلى المستشفى. قد تكون فاقدة الوعي ويُنقل لها الدم. خفق قلبي بشدة إثر هذه الفكرة. لكنني كنت أعرف أنها تحمل معها رخصة القيادة وبطاقات ائتمان ودفتر عناوين، ولتلقيت اتصالاً من الشرطة أو المستشفى بحلول هذا الوقت.

خرجت وجلست في الشرفة، ورحت أنظر إلى الحديقة. لكن في الواقع، لم أكن أنظر إلى أي شيء. وحاولت أن أقدح زناد فكري، بيد أنني عجزت عن تركيز انتباهي على شيء واحد. كل ما خطر لي، مراراً وتكراراً، هو ظهر كوميكو وأنا أرفع سحاب فستانها، ورائحة العطر خلف أذنيها.

رن الهاتف بعد الساعة الواحدة، فنهضت من الأريكة ورفعت السماعة.

«المعذرة. هل هذا منزل السيد أوكادا؟» أتاني صوت امرأة. كانت مالطا كانو.

قلت: «صحيح».

«اسمي مالطا كانو، أتصلُ بك بخصوص القط».

«القط؟» قلت بشيء من الارتباك. كنت قد نسيت أمره تماماً. لكنني تذكرته، وبدا لي كشيء من الماضي السحيق.

«القط الذي كانت السيدة أوكادا تبحث عنه».

«بالطبع، بالطبع».

صمتت مالطا كانو كأنها تخمن شيئاً ما. ربما استشعرت شيئاً من نبرة صوتي. تنحنحتُ ونقلت السماعة إلى يدي الأخرى.

بعد توقف قصير، قالت: «عليّ أن أخبرك يا سيد أوكادا، أعتقد أنني متأكدة تقريباً أن القط لن يُعثر عليه أبداً. أكره قول هذا، لكن أفضل ما يمكنك فعله هو أن تروْض نفسك على هذه الحقيقة. لقد اختفى للأبد. وما لم يحدث تغيير كبير ما، لن يعود القط أبداً».

«تغيير كبير ما؟» سألتها، لكنها لم تجب.

ظلت مالطا كانو صامتة مدة طويلة. انتظرتها لتقول شيئاً، وأرهفت السمع، لكنني لم أسمع منها أي صوت. وعندما بدأت أظن أن الهاتف تعطل، بدأت تتحدث مجدداً.

«ربما تكون وقاحة مني أن أقول هذا يا سيد أوكادا، لكن عدا عن القط، أليس هناك شيء ربما يمكنني مساعدتك بشأنه؟»

لم أستطع أن أرد عليها فوراً. اتكأت على الجدار، ممسكاً بالسماعة. واستغرقت بعض الوقت لأجد الكلمات.

«الأشياء ليست واضحة تماماً بالنسبة لي. لا أعرف شيئاً على وجه التأكيد. ما زلت أحاول استيعاب الأمر. لكنني أعتقد أن زوجتي هجرتني». أوضحت لها أن كوميكو لم تعد إلى المنزل الليلة السابقة ولم تتصل بمكان العمل.

بدت أنها تفكر بالأمر ملياً. قالت: «لا بد أنك في غاية القلق. لكن ثمة وقت صحيح لكل شيء، مثل المد والجزر، لا أحد يمكنه فعل أي شيء حيال ذلك. عندما يحين وقت الانتظار، عليك أن تنتظر».

«اسمعي، يا آنسة كانو، أنا ممتن للمجهود الذي بذلتيه فيما يتعلق بالقط وكل شيء. لكنني لست في مزاج لسماع تعميمات مائعة الآن. أشعر بالضياع، الضياع التام. وأشعر أن شيئاً فظيعاً سيحدث. لكنني لا أعرف ما عليّ فعله، وليست لدي أدنى فكرة. هل هذا واضح؟ إنني حتى لا أعرف ما ينبغي لي فعله بعدما أنهي هذه المكالمة. ما أحتاج إليه الآن هو الحقائق، حقائق ملموسة. لا يهمني مدى غبائها أو بساطتها، سأقبل بأي حقيقة يمكنني الحصول عليها. هل أعبّر عن نفسي تعبيراً واضحا؟ أحتاج إلى شيء يمكنني رؤيته وملامسته».

سمعت صوت شيء يسقط على الأرضيةعبر الهاتف ، ليس ثقيلاً، ربما لؤلؤة تسقط على أرضية خشبية. وأعقب ذلك صوت احتكاك مثل ورقة تجذب بقوة من أطرافها على نحو متكرر. بدا لي أن هذه التحركات تحدث في مكانٍ ما ليس قريباً جداً أو بعيداً جدا من الهاتف، لكنها من الواضح لم تكن مثار اهتمام مالطا كانو.

«فهمت. شيء ملموس». قالت بصوت مسطح، خالي من أي تعبير.

«صحيح. ملموس قدر الإمكان».

«كن في انتظار مكالمة».

«انتظار المكالمات هو كل ما أفعله».

«ستتلقى اتصالاً من شخص يبدأ اسمه بحرف الألف».

«هل يعرف هذا الشخص شيئاً عن كوميكو؟»

«لا يمكنني الجزم بذلك. إنني أخبركَ بهذا لأنك قلت إنك ستقبل بأي حقائق ملموسة يمكنك الحصول عليها. وإليك حقيقة أخرى: قبل وقت ليس بالطويل، سيدوم نصف القمر عدة أيام».

«نصف قمر؟ أتعنين القمر الذي في السماء؟»

«نعم يا سيد أوكادا، القمر الذي في السماء. على أي حال، ما عليك سوى الانتظار. الانتظار هو كل شيء. وداعاً إذاً. سأتحدث إليك عما قريب».

وأنهت المكالمة.

*

جلبت دفتر العناوين الخاص بنا من الدرج وفتحت صفحة الأسماء التي تبدأ بحرف الألف. كانت هناك أربعة أسماء بالضبط، مكتوبة بخط يد كوميكو الصغير الدقيق. الأول كان والدي، تاداو أوكادا. ثم صديق قديم لي من الجامعة اسمه أونودا. وطبيب أسنان يدعى أوشوكا. ومتجر أومورا للمشروبات الكحولية الذي يوجد في الحي.

استبعدت متجر المشروبات الكحولية. إنه على بعد عشر دقائق سيراً من المنزل، وعدا عن الحالات النادرة التي نطلب فيها توصيل صندوق من الجعة، لم تكن تربطنا بهم علاقة خاصة. طبيب الأسنان أيضاً لم يكن ذو صلة. ذهبت إليه لأعالج ضرساً قبل عامين، لكن كوميكو لم تذهب إليه قط. في الواقع، لم تقابل أي طبيب أسنان منذ زواجنا. لم أرَ صديقي أونودا منذ سنوات. عمل في مصرف بعد الجامعة، ونقِل إلى فرع في سابورو بعد سنته الثانية، وظل يعيش في هوكايدو منذ ذلك الوقت، ولم يعد سوى أحد أولئك الذين أتبادل معهم بطاقات السنة الجديدة. ولا أتذكر ما إذا كان قد التقى بكوميكو أم لا.

وبهذا لم يتبق سوى والدي، لكن كان من المستبعد تماماً أن تربط علاقة خاصة بينه وبين كوميكو. كان قد تزوج ثانية بعد موت والدتي، ولم أره أو أراسله أو أتحدث معه عبر الهاتف طوال تلك السنوات. وكوميكو لم تقابله قط.

ذكّرني دفتر العناوين، وأنا أتصفحه، بمدى ضيق دائرة علاقتنا بالآخرين. عدا عن القليل من العلاقات المفيدة مع بعض الزملاء، لم تكن لدينا أي علاقة خارج

المنزل خلال ست سنوات منذ زواجنا، بل كنا نعيش حياة منعزلة نوعاً ما، أنا وكوميكو فحسب.

قررت إعداد السباغيتي على الغداء مجدداً. ليس وكأنني كنت أشعر بأقل قدر من الجوع، بل لأنني لم أعد أحتمل الجلوس على الأريكة مكتوف اليدين، في انتظار رنين الهاتف. شعرت بحاجة إلى تحريك جسدي، وأن أعمل على شيء ما. وضعت الماء في الإناء، وأشعلت النار. وفي انتظار غليانه، أعددت صلصة الطماطم وأنا أستمع إلى إذاعة إف إم. كان الراديو يبث سوناتا كمان منفرد لباخ. الأداء نفسه كان ممتازاً، لكن ثمة شيء مزعج بشأنه. لم أعرف ما إذا كانت المشكلة في عازف الكمان أم في حالتي الذهنية عندئذٍ، فأوقفت الموسيقى وواصلت الطبخ في صمت. سخنت زيت الزيتون، ووضعت الثوم في المقلاة، وأضفت البصل المفروم. وعندما بدأت هذه المكونات تحمر، أضفت إليها الطماطم الذي قطعته وعصرته. راودني شعور جيد وأنا أقطع الأشياء وأقليها على ذلك النحو، ومنحتني شعوراً بالإنجاز يمكنني أن أحس به بيديّ. واستمتعت بالأصوات والروائح.

بعد غليان الماء، أضفت الملح وقبضة من السباغيتي. ثم ضبطت المؤقت على عشر دقائق. وغسلت الأواني في المغسلة. لكن حتى والسباغيتي الجاهز أمامي، لم أشعر برغبة في الأكل. تمكنت من إنهاء نصفه بالكاد، وألقيت الباقي. وضعت الصلصة المتبقية في عبوة وحفظتها في الثلاجة. حسناً، لم تكن لدي شهية منذ البداية.

يبدو أنني أتذكر، منذ وقت طويل، كنت أقرأ قصة ما عن رجل يأكل دون انقطاع في انتظار شيء ما. وبعدما اعتصرت ذهني بشدة، تذكرت أن تلك القصة كانت من رواية *وداع للسلاح*، لهيمنغواي. يتمكن بطل الرواية (لا يحضرني اسمه) من الهروب من إيطاليا إلى سويسرا على قارب. وأثناء انتظاره ولادة زوجته في بلدة سويسرية صغيرة، يتردد باستمرار على مقهى ليشرب أو يأكل شيئاً. لا أستطيع تذكر أي شيء عن حبكة الرواية. كل ما علق بذهني هو هذا الجزء القريب من النهاية، وفيه يلتهم البطل وجبة تلو أخرى أثناء انتظاره قدوم مولوده في بلد غريب.

بدا لي أن سبب تذكري هذه القصة بوضوح هو أن هذا الجزء من الكتاب كان يتسم بكثير من الواقعية. بدا أمراً واقعياً للغاية، بالنسبة لي، في الأدب، أن يتسبب التوتر في فتح شهية الشخصية على نحو غير معتاد بدلاً من إفقاده الرغبة في الأكل والشرب.

لكن على النقيض من *وداع للسلاح*، كنت فاقداً لشهيتي تماماً وأنا أشاهد عقارب الساعة تزحف في هذا المنزل الهادئ، في انتظار حدوث شيء ما. وسرعان ما خطر لي أن فقدان شهيتي قد يكون مردّه إلى افتقاري لمثل هذا النوع من الواقعية الأدبية. شعرت كما لو أنني أصبحت جزءاً من رواية مكتوبة كتابة سيئة، وأن أحدهم يحاول أن يجعلني غير واقعي بالمرة. وربما كان هذا صحيحاً.

*

رن الهاتف، أخيراً، قبيل الثانية بعد الظهر.

«هل هذا مسكن آل أوكادا؟» سأل صوت رجل غير مألوف. كان صوت شاب، منخفض وناعم.

«نعم، إنه هو». أجبته بصوت متوتر قليلاً.

«المربع الثاني، رقم ستة وعشرون؟»

«صحيح».

«معك متجر أومورا للمشروبات الكحولية. نشكرك لكونك زبوناً دائماً. أنا على وشك الخروج لتحصيل النقود، وأردت التأكد من أن الوقت مناسب لك».

«تحصيل النقود؟»

«نعم، سيدي. أنتم مدينون لنا بثمن صندوقي جعة وصندوق عصير».

«أوه، حسناً. سأكون بالمنزل بعض الوقت». قلت منهياً محادثتنا.

بعدما أنهيت المكالمة، تساءلت ما إذا كانت المحادثة تتضمن أي معلومة متعلقة بكوميكو. لكنني نظرت إليها من كل الزوايا، ولم تكن سوى مكالمة عملية قصيرة من متجر مشروبات كحولية بشأن تحصيل نقود. كنت قد طلبت جعة وعصيراً منهم، وأوصلوها، هذا مؤكد. بعد نصف ساعة، ظهر الشاب عند الباب، فدفعت له ثمن صندوقي الجعة وصندوق العصير. ابتسم الشاب الودود وهو يحرر الإيصال. «بالمناسبة، يا سيد أوكادا، هل سمعت عن الحادث الذي وقع بالقرب من المحطة صباح اليوم؟ قرابة التاسعة والنصف».

«حادث؟» سألته مصعوقاً. «من كان في الحادث؟»

«فتاة صغيرة. دهستها شاحنة مقفلة وهي ترجع للوراء. سمعت أنها تأذت بشدة. وصلت إلى مكان الحادث بعد وقوعه مباشرة. من الفظيع رؤية شيء كهذا فور خروجك في الصباح. يرعبني الأطفال الصغار، إذ لا يمكنك رؤيتهم عبر المرآة الخلفية. أتعرف المغسلة التي بجوار المحطة؟ وقع الحادث أمامها تماماً. يركن الناس دراجاتهم هناك، وتتراكم أعداد من صناديق الورق المقوى، فلا يمكنك رؤية أي شيء».

بعد مغادرته، لم أعد قادراً على المكوث في المنزل دقيقة واحدة. أحسست بالمكان ساخناً وخانقاً، مظلماً ومكتظاً. أقحمت قدميّ في حذائي وغادرت بأسرع ما يمكن. حتى إنني لم أوصد الباب، وتركت النوافذ مفتوحة، ومصباح المطبخ مضاءً. هِمت على وجهي في أرجاء الحي، أمص حلوى الليمون، وأجتر كلمات موظف متجر الكحوليات. وتذكرت ببطء أنني أخذت بعض الملابس إلى المغسلة التي بجوار المحطة. بلوزة وتنورة تخصان كوميكو.كانت التذكرة في المنزل، لكن إذا ذهبت وطلبتهما فحسب، فعلى الأرجح سيدعني الرجل آخذهما.

بدا لي الحي مختلفاً قليلاً. ترتسم على وجوه جميع الذين أمر جوارهم نظرة غريبة مصطنعة. كنت أتفرس في كل وجه يمر بي، وتساءلت، *أي نوع من الناس يمكن أن يكونوا؟ كيف هي المنازل التي يعيشون فيها؟ كيف هي عائلاتهم؟ ما نوع الحياة التي يعيشونها؟ هل ينامون مع نساء عدا عن زوجاتهم، أو مع رجال عدا عن*

أزواجهن؟ هل هم سعداء؟ هل يعرفون مدى غرابة النظرات التي ترتسم على وجوههم؟

كانت آثار حادث الصباح ما تزال حديثة خارج المغسلة. خطوط الطباشير التي رسمتها الشرطة على الأرض. وبالجوار، يناقش بعض المتسوقين الحادث، وتعابير حزينة تعلو وجوههم. وبالداخل، بدت المغسلة كما كانت دوماً، مشغل الموسيقى الأسود نفسه يشغل نفس ذلك النوع من الموسيقى، وبالخلف يهدر مكيف هواء قديم الطراز، وغيوم من البخار تتصاعد من المكواة إلى السقف. كانت الأغنية 'جَزْر'[1] لروبرت ماكسويل، على القيثار. قلت لنفسي، *كم أود لو تمكنت من الذهاب إلى المحيط*.وتخيلت رائحته، وصوت الأمواج وهي تتكسر على الشاطئ، والنوارس، وعلب الجعة المثلجة.

قلت للمالك إنني نسيت الإيصال، «أنا متأكد أنني أحضرتهما يوم الجمعة أو السبت الماضي، بلوزة وتنورة».

«أوكادا... أوكادا...» قال وهو يقلب صفحات دفتر ملاحظات جامعي. «بالطبع، ها هو ذا. بلوزة واحدة، وتنورة واحدة. لكن السيدة أوكادا أخذتهما في وقت سابق».

«حقا؟» قلت مندهشاً.

«صباح الأمس.أتذكر بوضوح أنني سلمتهما لها بنفسي. أظنها كانت في طريقها إلى العمل. وأحضرت معها الإيصال أيضاً».

لم أجد كلمات لأقولها له. ولم يكن بوسعي فعل شيء سوى التحديق إليه.

قال: «اسأل السيدة، لقد أخذتهما، ما من خطأ». وأخرج سيجارة من العلبة ووضعها بين شفتيه، وأشعلها بقداحة.

سألته: «صباح الأمس؟ ليس المساء؟»

[1] Ebb Tide

«الصباح بالتأكيد، عند الثامنة. كانت زوجتك أول زبونة في اليوم. لن أنسى شيئاً كهذا. أؤكد لك، عندما يكون أول زبون لك امرأة شابة، تصير في مزاج جيد، أتعرف ما أعنيه؟»

لم يكن بمقدوري تزييف ابتسامة له، والصوت الذي خرج مني لم يبدُ كصوتي «آه، حسناً. أعتقد أن هذا كل شيء. آسف، لم أكن أعرف أنها أخذت الملابس».

أومأ وألقى ناحيتي نظرة سريعة، وسحق سيجارته، التي لم يجذب منها سوى نفسين أو ثلاثة أنفاس، ثم عاد إلى مكواته. بدا لي أنه صار مهتماً بي، كأنما أراد أن يخبرني بشيء ما، لكنه في النهاية قرر ألا يقول شيئاً. وفي نفس الوقت، كنت أود أن أسأله عن بعض الأشياء: كيف كانت كوميكو تبدو عندما جاءت؟ ما الذي كانت تحمله؟ بيد أنني كنت مشوشاً وفي غاية العطش. ما كنت أريده، أكثر من أي شيء، هو الجلوس في مكان ما وتناول مشروب بارد. شعرت بأنني لن أتمكن من التفكير بأي شيء سوى بهذه الطريقة.

خرجت من المغسلة، ويممت وجهي صوب مقهى مجاور وطلبت كأساً من الشاي المثلج. كان المقهى بارداً بالداخل، وكنت الزبون الوحيد. يشغلون نسخة أوركسترالية من أغنية 'ثمانية أيام في الأسبوع'[2] للبيتلز علىسماعات صغيرة مثبتة على الجدار. فكرت بشاطئ البحر مجدداً، وتخيلت نفسي أسير حافي القدمين على الشاطئ بمحاذاة الماء. الرمال حارقة، والريح تحمل رائحة المد القوية. أخذت نفساً عميقاً ورنوت ببصري إلى السماء. ثم شعرت بحرارة شمس الصيف تتغلغل في ذراعيّ وأنا أمددهما ويديّ للأعلى. وسرعان ما بللت موجة باردة قدميّ.

نظرت للأمر من كل زاوية، ورأيت أنه من الغريب أن تأخذ كوميكو الملابس من المغسلة في طريقها إلى العمل، لسبب واحد، كان عليها أن تزج بنفسها في قطار مكتظ وهي تحمل ملابساً مكوية حديثاً على مشجب. ثم عليها أن تفعل الأمر نفسه في طريق عودتها إلى المنزل. لن تكون الملابس حملاً إضافياً فحسب، بل ستتجعد ويضيع عمل المغسلة هباءً. وبما أن كوميكو أكثر حساسية تجاه مثل هذه الأشياء، لا

[2] Eight Days a Week

أستطيع تخيّل أنها قد تفعل شيئاً عبثياً كهذا. كل ما كان عليها فعله هو أن تعرِّج على المغسلة في طريق عودتها من العمل. أو إذا كانت سوف تتأخر، لكان بمقدورها أن تطلب مني الذهاب لإحضارها. لا يوجد سوى تفسير واحد معقول، وهي أنها كانت تعلم أنها لن تعود إلى المنزل. وأنها ذهبت إلى مكان ما، وهي تحمل البلوزة والتنورة معها. هكذا سيكون معها غيار ملابس واحد على الأقل، ويمكنها شراء كل ما تحتاج إليه. إذ كانت تحمل معها بطاقات الإئتمان، وبطاقات الصراف الآلي، ولديها حسابها المصرفي الخاص. يمكنها أن تذهب أينما تريد.

وعلى الأرجح أنها مع شخص آخر، رجل. ليس ثمة سبب آخر يدفعها لترك المنزل.

كان هذا أمراً خطيراً. اختفت كوميكو، تاركة خلفها جميع ملابسها وأحذيتها. لطالما كانت تستمتع بالتسوق وملء خزانتها، التي خصّتها بعناية فائقة، ولا بد أن تركها خلفها ومغادرة المنزل تطلب منها إرادة حديدية. مع ذلك، يبدو لي أنها تركت المنزل، دون أدنى تردد، وهي لا تحمل سوى تنورة وبلوزة. لا، على الأرجح أن ملابسها كانت آخر ما يشغل بالها.

وأنا أتكئ على الكرسي، أكاد لا أستمع إلى الموسيقى المعدّلة المؤلمة، تخيلت كوميكو تصعد على متن قطار مكتظ، تحمل ملابسها في كيس بلاستيكي على مشجب سلكي. استحضرت في ذهني لون الفستان الذي كانت ترتديه، وشذا العطر خلف أذنيها، وظهرها الأملس. لا بد أنني كنت مرهقاً. وشعرت أنني إذا أغمضت عينيّ، فسأطفو في مكان آخر، قد أجد نفسي في مكان مختلف تماماً.

2

ما من أخبار جيّدة في هذا الفصل

*

غادرت المقهى وسرت هائماً على وجهي في الطرقات. وبدأت حرارة بعد الظهر الخانقة تصيبني بالغثيان. لكن المكان الوحيد الذي لم أكن أرغب في الذهاب إليه هو المنزل. إذ كانت فكرة المكوث وحيداً في المنزل في انتظار مكالمة، لن تأتي على الأرجح، تشعرني بالاختناق.

كل ما أمكنني التفكير به هو الذهاب لزيارة ماي كاساهارا. قصدت المنزل، وتسلقت الجدار، وشققت طريقي في الزقاق حتى بلغت خلفية منزلها. استندت إلى سياج المنزل المهجور الذي على الجانب الآخر من الزقاق، وحدقت إلى الحديقة التي يوجد بها تمثال الطائر. دائماً ما تكون ماي كاساهارا في المنزل، عدا عن المرات القليلة التي تخرج فيها لتعمل لشركة الشعر المستعار، تراقب الزقاق من غرفتها أو أثناء استمتاعها بحمام شمس في الباحة.

لكنني لم أرَ أثراً لماي كاساهارا. لم تكن ثمة سحابة واحدة في السماء، وكانت شمس الصيف تُصْلي مؤخرة عنقي. تصاعدت رائحة العشب القوية من الأرض وغزت رئتيّ. حدقت إلى تمثال الطائر وحاولت التفكير بالقصص التي رواها لي خالي مؤخراً عن مصاير الذين كانوا يقطنون هذا المنزل. لكن كل ما استطعت التفكير به هو البحر، بارداً وأزرقاً. تنفست بعمق عدة مرات، ونظرت إلى ساعتي. كنت على وشك الاستسلام وقبول الهزيمة في ذلك اليوم، وعندئذٍ خرجت ماي كاساهارا أخيراً.

سارت بتؤدة عبر باحتها إلى حيث كنت أقف. ترتدي شورت قصير من الجينز، وقميص ألوها أزرق، وتنتعل صندلاً أحمراً خفيفاً. وقفت أمامي وهي تبتسم من خلال نظارتها الشمسية.

«مرحباً، يا طائر الزنبرك. هل عثرت على القط نوبورو واتايا؟»

«ليس بعد».

«ما الذي أخّركَ عن المجيء اليوم؟» أقحمت يديها في جيبي الشورت ونظرت فيما حولها مبتهجة. «اسمع يا طائر الزنبرك، قد يكون لديّ متسع من أوقات الفراغ، لكنني لا أعيش لأقف حارسة لهذا الزقاق من الصباح حتى المساء. إنني مشغولة *ببعض الأشياء*، لكن مهما يكن، أنا آسفة. هل كنت تنتظر مدة طويلة؟»

«لا، ليس طويلاً. أشعر بالحر لوقوفي هنا».

نظرت ماي كاساهارا إلى وجهي ملياً، ثم عقدت ما بين حاجبيها. «ماذا دهاك يا طائر الزنبرك؟ تبدو بحالة مزرية، كشخص أنتُشِل من تحت الأرض للتو. يستحسن أن تأتي لتستريح في الظل قليلاً».

أخذت بيدي وقادتني إلى باحتها، ونقلت كرسي القماش إلى ظل شجرة البلوط، وأجلستني عليه. تلقي الأغصان الكثيفة ظلاً بارداً يعبق برائحة الحياة.

قالت: «لا تقلق. ما من أحد، كالعادة. اطمئن. خذ وقتك. كفّ عن التفكير واسترخِ».

قلت: «أريد أن أطلب منك معروفاً».

«جرّبني».

«أريد منك أن تجري مكالمة من أجلي». أخرجتُ دفتر ملاحظات صغير، ودوّنت رقم مكتب كوميكو. ثم مزقت الصفحة وناولتها إياها. كان دفتر الملاحظات المغطى بالفينيل دافئاً ورطباً بفعل العرق. «كل ما أريده منك هو الاتصال بهذا

المكان والسؤال عن كوميكو، وإذا لم تكن موجودة، فاسألي إذا كانت قد حضرت للعمل بالأمس».

أخذت ماي كاساهارا الورقة ونظرت إليها وهي تزمّ شفتيها. ثم نظرت إليّ. «حسناً، سأعتني بالأمر. أرِحْ بالك واستلقِ هنا. ليس مسموحاً لك بالتحرك. سأعود حالاً».

ما إن ذهبتْ، تمددتُ وأغمضت عينيّ كما أُمِرْت. كنت مبتلاً بالعرق من رأسي إلى قدميّ. حاولت التفكير، فشعرت بنبض في أعماق رأسي، وبدا أن لديّ كتلة من الخيوط في تجويف معدتي. وكنت أشعر بنوبة غثيان بين الفينة والأخرى. كان الحي ساكناً تماماً. خطر لي فجأة أنني لم أسمع صوت طائر الزنبرك منذ مدة. متى كانت آخر مرة سمعته؟ قبل أربعة أو خمسة أيام على الأرجح، بيد أنني لم أكن واثقاً من ذاكرتي. بحلول الوقت الذي لاحظت فيه ذلك، كان صوته قد انقطع زمناً يصعب معه الجزم. ربما كان أحد الطيور التي تهاجر موسمياً. عندما أعود بذاكرتي مفكراً بالأمر، يبدو لي أننا بدأنا سماعه قبل شهر تقريباً، وطيلة ذلك الوقت، كان طائر الزنبرك يدير زنبرك عالمنا الصغير يومياً. كان ذلك هو موسم طائر الزنبرك.

عادت ماي كاساهارا بعد عشر دقائق. أعطتني كأساً كبيرة، أصدر الثلج بداخلها رنيناً عندما أخذته، وبدا لي أن الصوت يصلني من عالم بعيد. توجد عدة بوابات تصل ذلك العالم بالمكان الذي كنت فيه، وتمكنت من سماع الصوت لأنها جميعها صادف أنها مفتوحة في تلك اللحظة، لكن ذلك كان مؤقتاً. إذا كانت بوابة واحدة منها مغلقة، فما كان الصوت ليبلغ أذنيّ. قالت: «اشربه، إنه عصير ليمون. سيصفّي ذهنك».

تمكنت من شراب نصفه وأعدت لها الكأس. مرّ العصير البارد بحلقي وواصل طريقه للأسفل ببطء، ومن ثم، داهمتني نوبة غثيان عنيفة. بدأت كتلة الخيوط المتحللة في معدتي بالتفكك والتحرك للأعلى إلى حلقي. أغمضت عيني وحاولت ازدرادها.رأيت كوميكو، وعيناي مغمضتان، تصعد على متن القطار، وفي يدها

بلوزتها وتنورتها. فكرت أنه من الأفضل أن أتقيأ، لكنني لم أتقيأ. أخذت عدة أنفاس عميقة حتى خفّ شعوري بالغثيان وتلاشى تماماً.

«هل أنتَ بخير؟»

«نعم، إنني بخير».

«أجريت الاتصال. وأخبرتهم أنني من أقربائها. لا بأس في ذلك، أليس كذلك؟»

«لا بأس».

«هذه المرأة، كوميكو أوكادا، إنها السيدة طائر الزنبرك، أليس كذلك؟»

«بلى».

«قالوا إنها لم تأت إلى العمل اليوم، ولا بالأمس. اختفت دون أي كلمة. إنها مشكلة كبيرة بالنسبة لهم. يقولون إنها ليست من الذين يتصرفون على هذا النحو».

«صحيح. إنها ليست من هذا النوع».

«هل هي مختفية منذ الأمس؟»

أومأتُ.

قالت: «يا لطائر الزنبرك المسكين!». وبدت كأنها تشعر بالأسف العميق حيالي. ثم وضعت يدها على جبهتي. «هل ثمة ما يمكنني فعله؟»

قلت: «ليس الآن، لكن شكراً».

«أتمانع إذا سألتك عن المزيد؟ أم إنك لا تفضل الحديث عنها؟»

«اسألي على الفور، مع إنني لست متأكداً من أنني أستطيع أن أجيبك».

«هل هربت زوجتك مع رجل آخر؟»

«لست متيقناً. ربما، إنه أمر وارد».

«لكنكما كنتما تعيشان معاً طوال هذه الأعوام. كيف لا يمكنك أن تكون متيقناً؟»

كانت محقة. كيف لا يمكنني أن أكون متيقناً؟

«يا لطائر الزنبرك المسكين!» قالت مجدداً. «ليتني أستطيع أن أقول شيئاً لأخفف عنك، لكنني لا أعرف شيئاً عن الحياة الزوجية».

نهضتُ من الكرسي. كان المجهود الذي بذلته لأقف أكبر بكثير مما تخيلت. وقلت: «شكراً على كل شيء. لقد ساعدتِني كثيراً. عليّ الذهاب الآن. ينبغي أن أكون بالمنزل تحسباً لورود أخبار. ربما يتصل أحدهم بي».

قالت: «ما إن تصل إلى المنزل، استحم أولاً، حسناً؟ ثم ارتدِ ملابس نظيفة واحلق ذقنك».

«أحلق؟» تحسست فكّي. بالفعل، نسيت الحلاقة. لم تخطر ببالي طوال الصباح.

«الأشياء الصغيرة مهمة يا طائر الزنبرك». قالت ماي كاساهارا وهي تنظر إلى داخل عينيّ.«اذهب إلى المنزل وألقِ نظرة على المرآة».

«سأفعل».

«أتمانع إذا جئتك لاحقاً؟»

قلت: «حسناً» ثم أومأت. «سوف تكونين عوناً كبيراً».

أومأت ماي كاساهارا بصمت.

*

في المنزل، وقفت إزاء المرآة ونظرت إلى وجهي فيها. كنت أبدو بحالة مزرية بالفعل. خلعت ملابسي، واستحممت. فركت نفسي جيداً بالشامبو، وحلقت ذقني، ونظفت أسناني، ووضعت دهان ما بعد الحلاقة على وجهي. ثم قصدت المرآة ثانية

لألقي نظرة من كثب. بدوت أفضل قليلاً من ذي قبل. ولم أعد أشعر بالغثيان، لكن ذهني كان ما يزال ضبابياً قليلاً.

ارتديت سروالاً قصيراً وقميص بولو. ثم جلست على الشرفة، متكئاً على عمود، أشاهد الحديقة منتظراً جفاف شعري. حاولت ترتيب أحداث الأيام الأخيرة. أولاً تلقيت مكالمة من الملازم ماميا. هل كانت في صباح الأمس؟ نعم، بلا شك، صباح الأمس. ثم غادرت كوميكو المنزل، وكنت قد رفعت سحّاب فستانها. ثم عثرت على صندوق قنينة العطر. بعدها جاء الملازم ماميا وحكى لي قصصه الغريبة عن الحرب: إلقاء جنود منغوليا الخارجية القبض عليه ورميه في بئر. وترك لي تذكاراً من السيد هوندا، وهو عبارة عن صندوق فارغ. ثم لم تعد كوميكو إلى المنزل، وكانت قد أخذت ملابسها من المغسلة التي بجوار المحطة في ذلك الصباح، واختفت بعد ذلك، دون أن تُخطر شركتها بأي شيء.

إذاً هذا ما حدث بالأمس.

كدت لا أصدق أن كل ذلك حدث خلال يوم واحد. كان يوماً حافلاً للغاية.

وأنا أتأمل هذه الأحداث، بدأت أشعر بنعاس شديد. لم يكن نعاساً عادياً، كان نعاساً غامراً، وعنيفاً. كان النوم يجردني من الوعي كما يُجرَّد جسد شخص ساكن من الملابس. قصدت غرفة النوم دون تفكير، ووضعت عني ملابسي، عدا الملابس الداخلية، وتمددت على الفراش. حاولت النظر إلى الساعة التي على المنضدة التي بجوار الفراش، لكنني عجزت عن تحريك رأسي جانباً. أغمضت عيني وغرقت في نوم عميق على الفور، نوم لا قرار له.

*

في نومي، كنت أرفع سحّاب فستان كوميكو، وكنت أرى ظهرها الأبيض الأملس. لكن عندما وصل السحّاب إلى نهايته، أدركت أنها ليست كوميكو، بل كريتا كانو. كنت أنا وهي الوحيدان في الغرفة.

الغرفة هي نفسها كما في الحلم السابق. غرفة في جناح الفندق نفسه. على الطاولة قنينة كَتي سارك وكأسان، ودلو معدني مليء بالثلج. ويسير أحدهم متحدثاً بصوت عال في الرواق بالخارج. لم أتمكن من فهم كلماته التي بدت لي بلغة أجنبية. تتدلى نجفة من السقف. ومصدر الإضاءة الوحيد في الغرفة المعتمة هو مصابيح مثبتة على الجدار. ومجدداً، النوافذ تغطيها ستائر سميكة مغلقة بإحكام.

ترتدي كريتا كانو فستان كوميكو الصيفي. فستان أزرق شاحب موشّىبأشكال طيور، يصل إلى فوق الركبتين بقليل. وكالعادة، تضع مكياجها على طريقة جاكلين كينيدي، وتضع سوارين متطابقين على معصمها الأيسر.

سألتها: «كيف حصلت على هذا الفستان؟ هل هو فستانك؟»

نظرت كريتا كانو إليّ وهزت رأسها، فتحركت أطراف خصلات شعرها المجعدة بطريقة جميلة. وقالت: «لا. إنه ليس فستاني، لقد استعرته. لكن لا تقلق يا سيد أوكادا، لن يسبب هذا متاعباً لأي أحد».

«أين نحن؟»

لم تجب كريتا كانو. وكما في المرة السابقة، كنت أجلس على حافة الفراش، أرتدي بدلة وربطة عنقي المرقطة.

قالت كريتا كانو: «لستَ مضطراً للتفكير بأي شيء يا سيد أوكادا. ليس ثمة ما تقلق بشأنه. سيكون كل شيء على ما يرام».

ومجدداً، كما في المرة السابقة، أنزلتْ سحّاب سروالي، وأخرجتْ عضوي، ووضعته في فمها. كان الشيء الوحيد المختلف عن المرة السابقة هو أنها لم تخلع ملابسها. كانت ترتدي فستان كوميكو طوال الوقت. حاولت أن أتحرك، لكنني شعرت بأنني مقيّد بخيوط خفية. ثم شعرت بنفسي أتضخم وأتصلب داخل فمها.

رأيت رموشها الاصطناعية وأطراف شعرها المجعدة تتحرك. أصدر سواراها صوتاً جافاً. وكان لسانها طويلاً وبدا أنه يلتف حولي. وما إن أوشكت على القذف،

ابتعدت عني وبدأت تجردني من ملابسي ببطء. خلعتْ سترتي، وربطة عنقي، وسروالي، وقميصي، وملابسي الداخلية. وجعلتني أستلقي على الفراش. لكنها ظلت مرتدية ملابسها. جلستْ على الفراش، وأمسكت يدي، وأدخلتها تحت فستانها. لم تكن ترتدي ملابساً داخلية، فشعرت يدي بالدفء والرطوبة.

سألتها: «ألن يكون نوبورو واتايا هنا في أي لحظة؟»

بدلاً من إجابتي، لمست كريتا كانو جبهتي، وقالت: «ليس عليك أن تفكر يا سيد أوكادا، سنهتم بذلك. اترك لنا كل شيء».

«لنا؟» سألتها، لكن لم يكن ثمة جواب.

ثم اعتلتني واستخدمت يدها لتزلقني إلى داخلها. وما إن أدخلتني عميقاً، بدأت تدير وركيها ببطء. ومع حركتها، كانت حواف الفستان تداعب بطني وفخذيّ العاريين. بدت كريتا كانو، والفستان حولها، مثل فطر عملاق وناعم أطلّ برأسه من الأرض بين الأوراق الميتة وتفتّح تحت جنح الظلام. كان عضوها دافئاً وبارداً في آنٍ واحد. يحاول أن يلتف حولي ويمتصّني إلى الداخل، وفي الوقت نفسه، يحاول أن يعتصرني ويلفظني إلى الخارج. بلغ انتصابي ذروته، وشعرت أنني على وشك الانفجار. كان أغرب إحساس اختبرته. شيء يتجاوز مجرد المتعة الجنسية. شعرت كما لو أن شيئاً بداخلها، شيء بعينه بداخلها، يحاول ببطء أن يجد طريقه إلى داخلي عبر عضوي.

بعينيها المغمضتين، وذقنها المرفوع للأعلى قليلاً، كانت كريتا كانو تتحرك للأمام وللخلف بهدوء كأنها تحلم. كنت أرى صدرها تحت فستانها يعلو ويهبط مع كل نفَس. أفلتت بضع خصلات من شعرها وتدلت على جبهتها. تخيلت نفسي أطفو وحيداً وسط بحر واسع. أغمضت عينيّ وأرهفت سمعي، متوقعاً سماع صوت المويجات الصغيرة التي تهدهد وجهي. كان جسدي مبللاً في مياه محيط فاترة. استشعرت ارتفاعاً تدريجياً في المد، وكان يجرفني بعيداً. قررت أن أفعل ما قالته

كريتا كانو وألّا أفكر بأي شيء. فأغمضت عينيّ، وتركت قواي تنسلّ من أطرافي. وأسلمت نفسي للتيار.

وفجأة، لاحظت أن الغرفة قد أظلمت. حاولت أن أنظر فيما حولي، لكنني لم أستطع رؤية شيء. كانت مصابيح الجدار جميعها مطفأة. ولم يكن هناك سوى شبح فستان كريتا كانو يهتز فوقي. قالت: «انسَ فحسب». لكن الصوت لم يكن صوت كريتا كانو. «انس كل شيء. إنك نائم، إنك تحلم. إنك تستلقي في طين دافئ جميل. جميعنا خرجنا من الطين، وجميعنا سوف نعود إليه».

كان صوت امرأة الهاتف. امرأة الهاتف الغامضة هي التي تعتليني عندئذٍ وتضم جسدها إلى جسدي. وهي أيضاً كانت ترتدي فستان كوميكو. حلّت محل كريتا كانو دون أن ألاحظ. حاولت أن أتكلم، بيد أنني لم أكن أعرف ما الذي آمل أن أقوله، لكن على الأقل حاولت أن أتكلم. كنت مشوشاً للغاية، وعاجزاً عن إخراج صوتي. كل ما استطعت إخراجه من فمي كان نفخة من الهواء الساخن. فتحت عينيّ على اتساعهما محاولاً رؤية وجه المرأة التي تعتليني، لكن الغرفة كانت غارقة في ظلام دامس.

لم تقل المرأة شيئاً بعد ذلك. إنما بدأت تحرك وركيها بطريقة أكثر إثارة. سمعت من خلفها -أو ظننت أنني سمعت- صوت مقبض الباب وهو يُدار. اخترق ضوء أبيض الظلام، فالتمع دلو الثلج للحظة بالضوء القادم من الرواق. أو ربما كان الضوء وميض مدية حادة. لكنني لم أعد قادراً على التفكير. ولم يعد أمامي سوى شيء واحد يمكنني فعله: قذفت.

*

اغتسلت في الحمام. وغسلت بيديّ ملابسي الداخلية الملطخة. قلت لنفسي، رائع، لماذا أحتلم باستمرار في هذه الفترة العصيبة من حياتي؟

مجدداً، ارتديت ملابس أخرى. ومجدداً، جلست في الشرفة، أنظر إلى الحديقة. كانت بقع من ضوء الشمس تتراقص على كل شيء، شاقة طريقها خلال الأوراق

الخضراء الكثيفة. أسهمت عدة أيام مطيرة في نمو أعشاب ناضرة الخضرة هنا وهناك، الأمر الذي أضفى على الحديقة شيئاً من الكآبة.

كريتا كانو مجدداً. احتلمت مرتين خلال فترة قصيرة، وفي المرتين رأيت كريتا كانو. لم يحدث أن فكرت بالنوم معها قط. ولم تخامرني أدنى رغبة تجاهها. ومع هذا، في المرتين كنت في تلك الغرفة، موصلاً جسدي بجسدها. ما السبب يا تُرى؟ ومن كانت امرأة الهاتف التي حلت محلها؟ إنها تعرفني، ومن المفترض أنني أعرفها. فكرت بكل اللاتي أقمت معهن علاقات في حياتي، لكن لم تكن امرأة الهاتف منهن. رغماً عن ذلك، كان ثمة شيء بشأنها بدا لي مألوفاً. وهذا ما أزعجني.

كانت إحدى الذكريات تحاول أن تشق طريقها إلى عقلي الواعي. كنت أشعر بها في تلافيف دماغي، تتخبط هنا وهناك. كل ما كنت أحتاج إليه هو تلميح صغير. إذا نجحت في الإمساك بهذا الخيط القصير، فسوف يتضح لي كل شيء. كان اللغز في انتظاري لأميط عنه اللثام. لكنني لم أتمكن من العثور على الخيط الصغير.

تخليت عن محاولة التفكير. «انس كل شيء. إنك نائم، إنك تحلم. إنك تستلقي في طين دافئ جميل. جميعنا خرجنا من الطين، وجميعنا سوف نعود إليه».

*

أشارت الساعة إلى السادسة. وما من مكالمة هاتفية بعد. حضرت ماي كاساهارا، ولم تكن تريد سوى رشفة من الجعة، على حد قولها. أحضرت علبة باردة من الثلاجة واقتسمتها معها. كنت جائعاً، لذلك وضعت بعض لحم الخنزير والخس بين شريحتين من الخبز وأكلت. عندما رأتني ماي آكل، قالت إنها تريد مثل ما آكله. فأعددت لها شطيرة أيضاً. أكلنا بصمت وشربنا جعتنا. وظللت أنظر إلى ساعة الحائط.

«أليس لديكم تلفاز في هذا المنزل؟»

«ما من تلفاز».

عضت طرف شفتها عضة خفيفة. «هذا ما ظننته. ألا تحب التلفاز؟»

«لا أكرهه. تسير أحوالي على ما يرام بدونه».

صمتت ماي كاساهارا لحظة لتستوعب ما قلته. «كم سنة مرت منذ زواجك يا طائر الزنبرك؟»

«ست سنوات».

«وعشت ست سنوات بدون تلفاز؟»

«نعم. لم يكن لدينا ما يكفي من المال لنبتاع واحداً في بادئ الأمر. ثم اعتدنا على العيش بدونه. الحياة جميلة وهادئة هكذا».

«لا بد أنكما كنتما سعيدان».

«ما الذي يجعلك تعتقدين هذا؟»

غيرت تعابير وجهها. «حسناً، ما كنت لأقدر على العيش يوماً واحداً دون تلفاز».

«لأنك غير سعيدة؟»

لم تجب ماي كاساهارا على تساؤلي.

«لكن كوميكو اختفت الآن. لا بد أنكَ لم تعد سعيداً يا طائر الزنبرك».

أومأتُ وارتشفت من جعتي، وقلت: «هذا ما هو عليه الوضع».

هذا ما كان عليه الوضع.

وضعتْ سيجارة بين شفتيها، وبحركة تشي بالتمرس، أشعلتها بعود ثقاب. وقالت: «الآن، يا طائر الزنبرك، أريد منك أن تخبرني الحقيقة دون مواربة. أتعتقد أنني قبيحة؟»

وضعتُ كأس الجعة وألقيت نظرة أخرى على وجه ماي كاساهارا. طوال وقت حديثي معها، كنت شارداً أفكر بأشياء أخرى. كانت ترتدي تيشيرت أسود يظهر تكوّر نهديها الفتيين.

قلت: «إنك أبعد ما تكونين عن القبح، هذا أمر مؤكد. لماذا تسألين؟»

«لطالما كان صديقي يقول إنني قبيحة، وأنني ليس لدي نهدين».

«الفتى الذي حطم الدراجة النارية؟»

«نعم، هو».

شاهدت ماي كاساهارا وهي تنفث دخان سيجارتها بتمهل، وقلت: «يقول الفتية في مثل هذه السن مثل هذه الأشياء. إنهم لا يعرفون كيفية التعبير عما يشعرون به تحديداً، لهذا يقولون ويفعلون العكس تماماً. إنهم يجرحون الآخرين بهذه الطريقة، دون أي سبب، ويؤذون أنفسهم أيضاً. مهما يكن، إنك لست قبيحة إطلاقاً. أعتقد أنك جميلة وظريفة. ولا أقصد الإطراء فحسب».

تأملت ماي كاساهارا فيما قلته قليلاً، وأسقطت رماد سيجارتها بداخل علبة الجعة. ثم سألتني: «هل السيدة طائر الزنبرك جميلة؟»

«اممم، يصعب عليّ الجزم بهذا. قد يقول البعض إنها جميلة. وقد يرى آخرون أنها ليست جميلة. إنها مسألة ذوق».

قالت: «فهمت». وراحت تنقر على كأسها كأنها تشعر بالملل.

«ما الذي يفعله صديقكِ صاحب الدراجة النارية؟ ألم يعد يأتي لزيارتك؟»

قالت وهي تلامس بإصبعها الندبة التي جوار عينها: «لا، لم يعد يأتي. لن أراه أبداً، هذا مما لا شك فيه. متأكدة مئتين بالمئة. وأراهن على هذا بإصبع قدمي الصغير. لكن لا أحبذ الحديث عنه الآن. بعض الأشياء، كما تعرف، إذا قلتها،تبدو غير حقيقية. أتعرف ما أعنيه يا طائر الزنبرك؟»

قلت: «أظن ذلك». وألقيت نظرة سريعة على الهاتف في صالة الجلوس. كان قابعاً على المنضدة، مسربلاً بالصمت. بدا كواحد من مخلوقات أعماق البحار يتظاهر بأنه جماد، ويربض في مكانه في انتظار فريسته.

«ذات يوم، يا طائر الزنبرك، سوف أخبرك بكل ما يتعلق به. عندما أشعر بالرغبة في ذلك. لكن ليس الآن. لا أرغب فحسب».

نظرت إلى ساعتها «عليّ العودة إلى المنزل. شكراً على الجعة».

رافقتها إلى جدار الحديقة. كان القمر المكتمل يسكب بلورات ضوئه على الأرض. فذكرني منظره بأن عادة كوميكو الشهرية تقترب. لكن لم تعد لي علاقة بذلك على الأرجح. وخزني هذا الخاطر بألم مباغت في صدري.

نظرت ماي كاساهارا إليّ، ويدها على الجدار.«قل لي يا طائر الزنبرك، إنك تحب كوميكو، أليس كذلك؟»

«أعتقد هذا».

«بالرغم من أنها ربما تكون قد هربت مع عشيق لها؟ إذا قالت إنها تريد أن تعود إليك، فهل ستسامحها؟»

صعّدتُ زفرة حرّى، وقلت: «هذا سؤال صعب. عليّ أن أفكر به عندما يحدث ما تقولينه».

«آسفة لإقحام أنفي في شؤونك». قالت وهي تصدر صوت تكة بلسانها. «لكن لا تغضب مني، إنني أحاول التعلم فحسب. أريد أن أعرف ما يعنيه هروب زوجة. ثمة أشياء كثيرة لا أعرفها».

قلت: «لستُ غاضباً». ونظرت إلى البدر المكتمل.

«حسناً إذاً يا طائر الزنبرك، اعتنِ بنفسك. آمل أن تعود زوجتك ويصير كل شيء على ما يرام».

ثم تسلقت ماي الجدار برشاقة واختفت في ظلام الصيف.

*

صرت وحيداً مجدداً بعد ذهاب ماي كاساهارا. فجلست في الشرفة، أفكر بالأسئلة التي أثارتها. إذا كانت كوميكو قد هربت مع عشيق لها، فهل بمقدوري مسامحتها؟ لم أكن أعرف الإجابة. *لم أكن أعرف حقاً*. ثمة أشياء كثيرة لا أعرفها.

رن الهاتف فجأة، فانطلقت يدي بردة فعل لا إرادية والتقطت السماعة.

الصوت على الطرف الآخر كان صوت امرأة. قالت: «أنا مالطا كانو. رجاءً سامحني على اتصالاتي المتكررة يا سيد أوكادا. إنني أتساءل عما إذا كنت تخطط لشيء غداً».

لم تكن لدي خطط. فالخطط، ببساطة، من الأشياء التي ليست لديّ.

«في هذه الحالة، أتساءل عن إمكانية مقابلتك بعد الظهر».

«هل للأمر علاقة بكوميكو؟»

«أعتقد هذا». قالت مالطا كانو وهي تنتقي عباراتها بحرص. «وأغلب الظن، سينضم نوبورو واتايا إلينا أيضاً».

كدت أن أُسقِط السماعة عندما سمعت هذا. «أتعنين أن ثلاثتنا سوف نجتمع لنتحدث؟»

«نعم. أعتقد أن هذا هو الوضع. الموقف الحالي يحتّم علينا هذا. آسفة، لا يمكنني الخوض في مزيد من التفاصيل عبر الهاتف».

«فهمت. حسناً إذاً».

«هل لنا أن نلتقي عند الواحدة؟ في نفس المكان الذي التقينا فيه سابقاً، مقهى الشاي في فندق باسيفيك شيناغاوا».

قلت: «عند الواحدة في مقهى شاي فندق باسيفيك شيناغاوا». وأنهيت المكالمة.

*

اتصلت ماي كاساهارا عند العاشرة. لم تكن تريد أن تتحدث عن شيء بعينه، أرادت التحدث إلى شخص ما فحسب. ثرثرنا حول مواضيع عادية قليلاً. وقالت في النهاية: «قل لي يا طائر الزنبرك، هل تلقيت أي أخبار جيدة منذ مغادرتي منزلك؟»

«ما من أخبار جيدة. لا شيء».

3

نوبورو واتايا يتحدث

*

قصة قرود الجزيرة القذرة

*

وصلت إلى مقهى الشاي قبل الموعد بعشر دقائق، لكن نوبورو واتايا ومالطا كانو كانا قد وجدا طاولة ويجلسان في انتظاري. كان حشد وقت الغداء كثيفاً، لكنني رأيت مالطا كانو على الفور. لا يعتمر الكثيرون قبعات فينيل حمراء في أيام الصيف المشمسة بعد الظهر. لا بد أنها القبعة نفسها التي كانت تعتمرها يوم قابلتها، إلا إذا كانت تملك مجموعة من قبعات الفينيل، جميعها بنفس الشكل واللون. وملابسها بسيطة وأنيقة كما في المرة السابقة. ترتدي سترة من الكتان فوق قميص قطني بلا ياقة. كلا القطعتين ناصعتي البياض وخاليتين من أي تجاعيد. ما من اكسسوارات أو مكياج. قبعة الفينيل الحمراء وحدها هي التي تتنافر مع بقية زيها، على مستوى الذوق العام والخامة. وكأنما كانت تنتظر وصولي، نزعت قبعتها حالما جلست على مقعدي، ووضعتها على الطاولة، جوار حقيبة يدوية صفراء صغيرة. كانت قد طلبت نوعاً من المياه الفوارة لكنها لم تمسها، كما في المرة السابقة. وبدا السائل مضطرباً في كأسه الطويلة على نحو غامض، كما لو أنه ليس لديه شيئاً أفضل ليفعله سوى تكوين فقاعاته الصغيرة.

كان نوبورو واتايا يرتدي نظارة شمسية خضراء. وما إن جلستُ، نزعها وحدق في عدساتها قليلاً، ثم ارتداها مجدداً. ويرتدي ما بدا كقميص بولو أبيض جديد تحت

سترة قطنية رياضية بلون كحلي. وأمامه كأس شاي مثلج، لكن بدا أنه لم يمس مشروبه أيضاً.

طلبت قهوة وأخذت رشفة من الماء المثلج.

لم يقل أحد شيئاً. بدا لي أن نوبورو واتايا لم يلاحظ وصولي. وحتى أتحقق من أنني لم أصبح شفافاً فجأة، وضعت يدي على الطاولة وقلّبتها بضع مرات. جاء النادل أخيراً، ووضع كوباً أمامي، وملأه بالقهوة. وبعد انصرافه، أصدرت مالطا كانو أصوات نحنحة قصيرة كأنها تختبر مايكروفون، لكنها لم تقل شيئاً.

ابتدر نوبورو واتايا الحديث: «ليس لديّ متسع من الوقت، لذا دعونا نجعل هذا الأمر بسيطاً وواضحاً قدر الإمكان». بدا أنه يخاطب وعاء السكر الفولاذي الصغير القابع وسط الطاولة، لكنه كان يوجه حديثه لي بطبيعة الحال. كان وعاء السكر مجرد منطقة وسطى ملائمة بيننا يمكنه أن يوجه حديثه إليها.

سألته مباشرة: «ما الذي نجعله بسيطاً وواضحاً قدر الإمكان؟»

أخيراً نزع نوبورو واتايا نظارته، وطواها، ثم وضعها على الطاولة، ونظر إليّ مباشرة. انقضت أكثر من ثلاث سنوات منذ آخر مرة تحدثت مع الرجل، لكنني لم أشعر بالوقت الفاصل. وافترضت أن هذا بفضل وجهه الذي تقحمه وسائل الإعلام في وجهي أينما ذهبت. بعض المعلومات كالدخان، تجد طريقها إلى عيون وعقول الناس سواء بحثوا عنها أم لم يبحثوا، دونما أي اعتبار للتفضيلات الشخصية.

وبما أنني كنت مجبراً على رؤية الرجل شخصياً، لم يسعني سوى ملاحظة التغير الذي تركته ثلاث سنوات على تعابير وجهه. أزيحت تلك النظرة الباردة المعتكرة إلى الخلفية، وغطتها أخرى مصطنعة ماكرة. تمكن نوبورو واتايا من أن يجد لنفسه قناعاً أكثر حنكة، متقن الصنع، وربما جلد جديد. أياً كان، قناعاً أم جلداً، كان عليّ أن أقر- أجل، حتى *أنا* كان عليّ أن أقر- أنه كانت تشوبه مسحة من القوة الجذابة. ثم أدركت فجأة أن النظر إلى ذلك الوجه كان أشبه بالنظر إلى صورة تلفزيونية. كان يتحدث بالطريقة التي يتحدث بها الناس على التلفاز، ويتحرك على النحو الذي يتحرك به

الناس على التلفاز. لطالما كانت هناك طبقة من الزجاج بيننا. أنا على جانب، وهو على الجانب الآخر.

قال نوبورو واتايا: «لا بد أنك مدرك أننا هنا اليوم لنتحدث عن كوميكو، عن كوميكو وعنك. وعن مستقبلكما، وما سوف تفعلانه».

«ما سنفعله؟» سألته وأنا أرفع كوب قهوتي وآخذ رشفة. «أيمكنك أن تكون أكثر تحديداً؟»

نظر نوبورو واتايا إليّ بعينين خاليتين من أي تعبير على نحو غريب، وقال: «أكثر تحديداً؟ اتخذت كوميكو عشيقاً لها. لقد هجرتك. إنك بالطبع لا تفترض أن جميع المعنيين بالأمر في الوضع الراهن يريدونه أن يستمر هكذا. لن يكون هذا من مصلحة أي أحد».

«اتخذتْ عشيقاً؟»

«من فضلكما، مهلاً لحظة». اختارت مالطا كانو هذه اللحظة لتتدخل. «مثل هذا النقاش يجب أن يسير بنظام لائق. سيد واتايا وسيد أوكادا، من المهم أن نجري هذا النقاش بأسلوب منظم».

«لا أتفق معكِ». قال نوبورو واتايا وصوته مجرد من أي أثر للحياة. «ليس ثمة نظام لهذا. أي نظام تعنين؟ هذا النقاش غير قابل لأي نظام».

قلتُ لمالطا كانو: «دعيه يتحدث أولاً. يمكننا إضفاء النظام اللائق لاحقاً، إذا افترضنا وجود نظام ما».

نظرت مالطا كانو إليّ بضع ثوان وشفتيها مطبقتين بإحكام، ثم أومأت إيماءة صغيرة، وقالت: «حسناً إذاً، سيد واتايا أولاً. تفضل».

بدأ: «لدى كوميكو رجل آخر في حياتها، وهي معه الآن. هذا أمر في تمام الوضوح. مما يعني عدم وجود مغزى من استمرار زواجكما. ولحسن الحظ، ليس لديكما أطفال، وبالنظر إلى ظروفكما، ما من مال يستحق الجدل بشأنه. يمكن تسوية

كل شيء بسرعة. تنسحب من سجل أفراد عائلتك ببساطة. وكل ما عليك فعله هو التوقيع على الأوراق التي أعدها المحامي، وهذا كل ما في الأمر. ودعني أضيف هذا لتجنب أي سوء تفاهم: ما أقوله الآن هو رأي عائلة واتايا كلها».

عقدت ذراعيّ وتأملت كلماته قليلاً، ثم قلت: «لدي بضعة أسئلة. قبل كل شيء، كيف عرفت أن كوميكو مرتبطة برجل آخر؟»

«أخبرتني بنفسها».

لم أعرف بمَ أرد على هذا. وضعت يديّ على الطاولة وظللت صامتاً. كان من الصعب عليّ تخيُّل لجوء كوميكو إلى نوبورو واتايا فيما يتعلق بمثل هذه المسائل الشخصية.

أردف نوبورو واتايا: «اتصلت بي قبل أسبوع وقالت إنها تريد مناقشة أمر ما، فالتقينا وتحدثنا، وجهاً لوجه. عندئذٍ أخبرتني أنها تواعد رجلاً آخر».

شعرت برغبة في التدخين، لأول مرة منذ أشهر، لكن لم تكن معي سجائر بالطبع. عوضاً منها، أخذت رشفة من القهوة، وأعدت الكوب إلى الطبق محدثاً صوتاً عالياً جافاً.

قال: «ثم غادرتْ المنزل».

«فهمت. إن كان هذا ما تقوله، فلا بد أنه صحيح. لا بد أن كوميكو مرتبطة بأحدهم، وأنها قصدتك طلباً للمشورة. ما يزال صعباً عليّ تصديق هذا، لكن لا أعتقد أنك تكذب عليّ في أمر كهذا».

«لا، لا أكذبُ بالطبع». قال نوبورو واتايا وظل ابتسامة يلوح على شفتيه.

«أهذا كل ما تريد قوله؟ هجرتني كوميكو من أجل رجل آخر، لذا ينبغي لي أن أوافق على الطلاق؟»

أجاب نوبورو واتايا بإيماءة صغيرة واحدة، كأنه يوفر طاقته. ثم قال: «أفترض أنك تدرك أنني لم أؤيد زواجك بكوميكو، منذ البداية. لم أفعل شيئاً للاعتراض، مفترضاً أن الأمر لا يعنيني. والآن أتمنى لو أنني اعترضت». أخذ رشفة من الماء ووضع كأسه على الطاولة بهدوء. ثم واصل حديثه: «منذ أول يوم قابلتك فيه، عرفت أنك لا تساوي شيئاً. لم أرَ فيك ما يدل على مستقبل واعد، أو أي شيء يوحي بأنك قد تنجز شيئاً مهماً أو تجعل من نفسك إنساناً جديراً بالاحترام. وعرفت أنك أخرق، لا تصلح لشيء. وكنتُ محقاً. كنتَ متزوجاً بشقيقتي ست سنوات، ما الذي فعلته طوال ذلك الوقت؟ لا شيء، صحيح؟ كل ما أنجزته خلال ست سنوات طويلة هو الاستقالة من عملك وإفساد حياة كوميكو. الآن أنت عاطل عن العمل، وليست لديك أي خطط للمستقبل. لا يوجد في رأسك هذا سوى القمامة والحجارة. لن أفهم أبداً سبب ارتباط كوميكو بشخص مثلك. ربما كانت تعتقد أن القمامة والحجارة التي في رأسك مثيرة للاهتمام. لكن في النهاية، القمامة قمامة، والحجارة حجارة. لم تكن مناسباً لها منذ البداية. وهذا لا يعني أنني أقول إن كوميكو مثالية. إنها تتصف بغرابتها الخاصة بها منذ طفولتها، لسبب أو لآخر. أعتقد أن هذا هو سبب انجذابها لك مؤقتاً. لكن كل ذلك انتهى الآن. على أي حال، سيكون من الأفضل أن ننهي هذا الموضوع بأسرع ما يمكن. سوف نعتني أنا ووالديّ بكوميكو. ونريد منك أن تبتعد عنها، ولا تحاول البحث عنها. لا شأن لك بها بعد الآن. ولن تسبب سوى المتاعب إذا حاولت المقاومة. أفضل ما يمكنك فعله هو بدء حياة جديدة في مكان ما، حياة تليق بك. سيكون هذا خير لنا جميعاً».

ليشير إلى أنه أنهى حديثه، شرب نوبورو واتايا الماء المتبقي في كأسه، واستدعى النادل وطلب المزيد.

سألتُه: «ألديك شيء آخرتريد قوله؟»

أجاب نوبورو واتايا هذه المرة بهزة صغيرة واحدة من رأسه.

قلت موجهاً حديثي لمالطا كانو: «والحالة هذه، أين يأتي النظام اللائق في هذا النقاش؟»

أخرجت مالطا كانو منديلاً أبيضاً صغيراً من حقيبتها ومسحت به زاويتي فمها. ثم التقطت قبعتها الحمراء من الطاولة ووضعتها على الحقيبة، وقالت: «أنا متأكدة أن كل هذا صادم لك يا سيد أوكادا. ومن جانبي، أجد الحديث عن مثل هذه الأشياء وجهاً لوجه مؤلماً للغاية، كما يمكنك تخيل هذا».

ألقى نوبورو واتايا نظرة سريعة على ساعته ليتأكد من أن العالم ما يزال يدور على عجلاته ويكلفه وقته الثمين.

تابعت مالطا كانو: «أرى الآن أنني يجب أن أقول لك هذا ببساطة ووضوح قدر الإمكان. جاءت السيدة أوكادا لمقابلتي أولاً. جاءتني طلباً للمشورة».

«بناءً على توصيتي» قاطع نوبورو واتايا. «جاءتني كوميكو لتحدثني عن القط، وعرّفتها إلى الآنسة كانو».

سألتُ مالطا كانو: «وهل حدث ذلك بعدما قابلتك أم قبل ذلك؟»

قالت: «قبل ذلك».

قلت: «في هذه الحالة، ولنضع الأحداث في نظام لائق، هذا ما جرى: علِمتْ كوميكو بوجودك من نوبورو واتايا، وقابلتكِ للحديث بشأن القط المفقود. ومن ثم، لسبب ما لم يتضح لي بعد، أخفت عني حقيقة أنها قابلتك. ورتبت للقائنا، وهو ما حدث في هذا المكان نفسه. هل أنا على صواب؟»

«هذا صحيح تقريباً». قالت مالطا كانو بشيء من الصعوبة. «كان حديثي الأول مع السيدة أوكادا مقصوراً على القط فحسب. لكنني لاحظت أن في الأمر أكثر من ذلك، لذا أردت مقابلتك لأتحدث معك مباشرة. ثم رأيت أنه من الضروري أن أقابل السيدة أوكادا مرة أخرى لأسألها عن أشياء ذات طابع شخصي أعمق».

«وعندئذٍ أخبرتك كوميكو أن لديها عشيقاً».

«أجل. أعتقد أنه هذه هي القضية، باختصار. ونظراً لوضعي، لست مخولة للخوض في تفاصيل أكثر من هذه».

أطلقتُ تنهيدة. ليس كأن التنهّد كان ليغير شيئاً، لكنه كان شيئاً عليّ فعله.

قلت: «إذاً، هل كوميكو مرتبطة بهذا الرجل منذ وقت طويل؟»

«شهران ونصف تقريباً، هذا ما أظنه».

«شهران ونصف. كيف استمر الأمر شهرين ونصف دون أن ألاحظ شيئاً؟»

قالت: «لأنك، يا سيد أوكادا، لم تساورك أي شكوك ناحية زوجتك».

أومأتُ «هذا صحيح، لم يخطر ذلك ببالي قط. لم أتخيل أن كوميكو يمكن أن تكذب عليّ هكذا، وما زلت غير قادر على التصديق».

«بصرف النظر عن النتائج، المقدرة على الثقة بإنسان آخر ثقة مطلقة واحدة من أنبل الخصال».

قال نوبورو واتايا: «من النادر مصادفتها».

اقترب النادل وأعاد ملء كوبي. وكانت امرأة تجلس إلى الطاولة المجاورة لنا تضحك بصخب.

قلت لنوبورو واتايا: «إذاً، ما الغاية النهائية من هذا الاجتماع؟ لماذا نحن ثلاثتنا هنا؟ لحملي على الموافقة على طلاق كوميكو؟ أم ثمة هدف خفي؟ يبدو أنه يوجد بعض المنطق في ما قلته سابقاً، لكن كل الجوانب المهمة غامضة. تقول إن كوميكو ارتبطت برجل وغادرت المنزل. أين ذهبا إذاً؟ وما الذي تفعله هناك؟ هل هي وحدها؟ أم إنها معه؟ ولماذا لم تتصل بي؟ إذا كان صحيح أنها ارتبطت برجل آخر، فهذه نهاية كل شيء. لكنني لن أصدق أن هذا صحيح ما لم أسمعه منها مباشرة. أتفهم ما أعنيه؟ من تهم آراؤهم هنا هم أنا وكوميكو. نحن الذين يجب أن نتحدث إلى بعضنا ونبتّ في الأمر. لا شأن لك بهذا».

أزاح نوبورو واتايا كأس الشاي المثلج الذي لم يمسه، وقال: «نحن هنا *لنحيطكعلماً* بالوضع. طلبت من الآنسة كانو مرافقتي، معتقداً أنه من الأفضل وجود

طرف ثالث. لا أعرف رجل كوميكو الآخر، ولا أعرف مكانها الآن. كوميكو امرأة بالغة، ويمكنها فعل ما يحلو لها. لكن حتى إذا كنت أعرف مكانها، قطعاً ما كنت لأخبرك. إنها لم تتصل بك لأنها لا ترغب في الحديث معك».

«من الواضح أنها رغبت في الحديث *معك*. ما الذي يمكن أن تقوله لك؟ وأنتما لستما مقربين جداً من بعضكما، حسبما أعرف».

«حسناً، إذا كنت مقرباً من كوميكو إلى هذه الدرجة اللعينة، فلماذا تضاجع رجلاً آخر؟»

سعلت مالطا كانو سعلة خفيفة.

أردف نوبورو واتايا: «قالت كوميكو لي إنها على علاقة برجل آخر. وأنها تريد أن تسوّي كل شيء تسوية تامة. فأشرت عليها بتطليقك، وقالت إنها ستفكر بالأمر».

«أهذا كل شيء؟»

«هل ثمة سبب آخر؟»

«لا أفهم فحسب. لا أصدق أن كوميكو لجأت إليك في أمر بهذه الأهمية. إنك آخر من قد تطلب رأيه في مسألة كهذه. لفكرت في الأمر بنفسها، أو لتحدثت إليّ مباشرة. لا بد أنها قالت لك شيئاً آخر. إذا تحدثت إليك شخصياً، فلا بد أن ما دفعها لمقابلتك في المقام الأول موضوع آخر».

تراقصت ابتسامة باهتة على شفتي نوبورو واتايا، ابتسامة باردة وهزيلة، مثل خيط هلال في السماء عند الفجر. «هذا ما يقصدونه بقولهم ‘ترْك الحقيقة تفلت’» قال بصوت ناعم لكنه مسموع بوضوح.

«ترك الحقيقة تفلت؟» قلت، مختبراً المقولة بنفسي.

قال: «أنا متأكد أنك تفهم مقصدي. تقيم زوجتك علاقة مع رجل آخر، وتهرب منك. فتحاول أنت إلقاء اللوم على شخص آخر. لم أسمع شيئاً بهذا الغباء من قبل قط.

اسمع، لم آتِ إلى هنا سعياً وراء متعتي الخاصة. إنما توجّب عليّ المجيء. وبالنسبة لي، جلوسي هنا مجرد مضيعة للوقت».

بعدما أنهى حديثه، ران صمت ثقيل فوق الطاولة.

سألته: «هل سمعت قصة قرود الجزيرة القذرة؟»

هز رأسه، دون أدنى أثر لاهتمام، وقال: «لم أسمع بها».

قلت: «في مكان ما، بعيد، بعيد جداً. توجد جزيرة قذرة. جزيرة بلا اسم، إذ لا تستحق أن يطلق عليها اسماً. جزيرة قذرة شكلها قذر. على هذه الجزيرة القذرة، تنمو أشجار جوز هند بأشكال قذرة أيضاً. وتُثمِر الأشجار ثمار جوز هند ذات رائحة قذرة. وتعيش قرود قذرة على الأشجار، وتحب أكل جوز الهند ذا الرائحة القذرة. ومن ثم، تتغوط القذارة الأشنع في العالم. تسقط القذارة على الأرض وتتراكم مكوِّنة كثباناً من القذارة، جاعلة الأشجار القذرة التي ستنمو عليها أكثر قذارة. وهكذا، دائرة لا نهاية لها».

شربتُ بقية قهوتي.

تابعتُ: «وأنا جالس هنا، تذكرت فجأة قصة تلك الجزيرة القذرة. ما أحاول قوله هو أن نوعاً بعينه من القذارة، نوعاً بعينه من القتامة، يطيل أمد حياته بقوة دفع ذاتية خاصة به في دائرته الضيقة. وما إن يتجاوز حداً معيناً، لا أحد يستطيع إيقافه، حتى إذا أراد الشخص نفسه إيقافه».

لم يرتسم أي تعبير من أي نوع على وجه نوبورو واتايا. اختفت الابتسامة، لكن لم يكن ثمة أثر للانزعاج. كل ما كان بوسعي رؤيته هو تجعيدة صغيرة بين حاجبيه، ولا أذكر ما إذا كانت موجودة من قبل.

«أتعي ما أقوله يا سيد واتايا؟ أعرف بالضبط أي نوع من الرجال أنت. تقول إنني مجرد قمامة وحجارة. وتعتقد أنك يمكنك أن تحطمني متى ما أردت. لكن الأمر ليس بهذه البساطة. ربما لا أكون سوى قمامة وحجارة من منظورك، ووفقاً لقيمك

الخاصة. لكنني لست غبياً كما تعتقد. أعرف تماماً ما تخفيه تحت قناعك المصنوع للتلفاز. أعرف سرّك. كوميكو تعرفه وأنا أعرفه. كلانا يعرف ما تحت هذا القناع. يمكنني إفشاؤه للعالم، إذا أردتُ. يمكنني إخراجه إلى النور. قد يستغرق هذا وقتاً، لكن يمكنني فعلها. ربما أكون نكرة، لكنني على الأقل لست كيس رمل. أنا إنسان حي، يتنفس. إذا ضربني أحدهم، فسأرد له الضربة. احرص على وضع هذا في اعتبارك».

راح نوبورو واتايا يحدق إليّ بوجهه الخالي من التعابير، وجه أشبه بقطعة حجر سابحة في الفضاء. ما قلته له كان خدعة محضة. لم أكن أعرف سر نوبورو واتايا. لا يصعب تخيل أن لديه شيئاً يخفيه في أعماقه، لكن لم تكن لدي وسيلة لمعرفة ماهيته بأي درجة من اليقين. لكن لاح لي أن كلماتي قد لامست وتراً حساساً بداخله، وتمكنت من قراءة أثر كلماتي على وجهه. لم يرد عليّ بالطريقة التي دائما ما يرد بها على خصومه في النقاشات المتلفزة. لم يهزأ بكلامي أو يحاول أن يمسك عليّ زلة أو يبتدر كلامه بعبارة ذكية، بل ظل جالساً في صمت، دون أن يحرك عضلة واحدة.

ثم بدأ شيء في غاية الغرابة يحدث لنوبورو واتايا.بدأ وجهه يتحول، شيئاً فشيئاً، إلى اللون الأحمر، لكن على نحو غريب. تحولت بقع إلى اللون الأحمر القاني، بينما احمرّت بقع أخرى احمراراً خفيفاً، وشحبت الأجزاء المتبقية شحوباً غريباً. ذكّرني هذا بغابة في الخريف، ألوان أشجارها متباينة، حيث تنمو الأشجار النفضية والأشجار دائمة الخضرة بخليط فوضوي.

في النهاية، نهض نوبورو واتايا، دون أن ينبس ببنت شفة، وأخرج نظارته الشمسية من جيبه، واخفى عينيه خلفها. كانت بقع الألوان الغريبة ما تزال تغطي وجهه، وبدت كأنها صارت دائمة. ظلت مالطا كانو ساكنة تماماً في مقعدها، لا تتفوه بشيء. أنا نفسي رسمت على وجهي تعابير عدم الاكتراث التام وسلكت مسلك غير العابئ. همّ نوبورو واتايا بقول شيء لي، لكنه غير رأيه في آخر لحظة. ثم سار مبتعداً وتلاشى وسط الحشد.

*

ظللنا صامتين، أنا ومالطا كانو، بعض الوقت بعد مغادرة نوبورو واتايا. شعرت بالإرهاق. جاء النادل وعرض أن يعيد ملء كوبي بالقهوة، لكنني صددته. حملت مالطا كانو قبعتها الحمراء من الطاولة، وراحت تحدق إليها بضع دقائق، قبل أن تضعها على الكرسي المجاور لها.

استشعرت مذاقاً مرّاً في فمي، فحاولت التخلص منه بشرب جرعات من الماء، لكن دون جدوى.

تحدثت مالطا بعد ذلك بقليل: «المشاعر المكبوتة بحاجة إلى التنفيس أحياناً، وإلا فإن الانسياب سيضطرب بداخلك. أنا متأكدة أنك تشعر بتحسن بما أنك قلت ما تريد قوله».

«قليلاً. لكن حديثي لم يحل أي مشكلة. لم يضع حداً لأي شيء».

«إنك لا تحب السيد واتايا، أليس كذلك يا سيد أوكادا؟»

«كل مرة أتحدث مع ذلك الرجل، ينتابني شعور هائل بالفراغ بداخلي. ويبدأ كل شيء فيما حولنا يبدو وكأن لا جوهر له. كل شيء يبدو مجوفاً. لا يمكنني أن أشرح لك ماهية الأمر بأي درجة من الدقة. وبسبب هذا الشعور، ينتهي بي المطاف وأنا أقول أو أفعل أشياءً ليس من شيمي قولها أو فعلها، ويجتاحني شعور سيئ حيالها لاحقاً. إذا تمكنت من عدم رؤيته مجدداً، فلن يجعلني شيءٌ أكثر سعادة».

هزت مالطا كانو رأسها.«لسوء الحظ، سوف تضطر للقاء السيد واتايا عدة مرات مجدداً. هذا أمر ليس بمستطاعك تلافيه».

كانت محقة على الأرجح. لم أستطع إخراجه بسهولة من حياتي.

رفعت كأسي وشربت جرعة أخرى من الماء. *من أين جاء هذا المذاق المريع.*

قلت: «ثمة شيء واحد أريد سؤالك عنه. إلى جانب من تقفين؟ جانب نوبورو واتايا أم جانبي؟»

وضعت مالطا كانو مرفقيها على الطاولة وضمت راحتي يديها أمام وجهها، وقالت: «لا أقف إلى جانب أي منكما. ما من جوانب في هذه القضية، لا توجد ببساطة. ما نحن فيه ليس من نوع الأشياء التي لديها قمة وقاع، أو يمين ويسار، أو أمام وخلف يا سيد أوكادا».

«يبدو ما تقولينه أشبه بعقيدة الزن. مثير للاهتمام في حد ذاته بوصفه نظاماً فكرياً، لكنه لا يصلح كثيراً لتفسير أي شيء».

أومأت برأسها. وباعدت بين راحتي يديها بمقدار ثلاث بوصات بزاوية خفيفة مصوبة إياهما ناحيتي. كانتا يدين صغيرتين جميلتي الشكل. «أعرف أن ما أقوله لا يبدو منطقياً. لا ألومك على غضبك، لكن إذا قلت أي شيء الآن، فلن يخدم غرضاً عملياً. في الواقع، قد يفسد الأشياء. عليك أن تفوز بنفسك، بقوة ذراعيك».

قلت مبتسماً: «كما في برنامج ‘مملكة الحيوانات’[3]. تتعرضين للضرب، وتردّي الضربة».

قالت: «بالضبط». ثم حملت حقيبتها، بعناية شخص يأخذ حاجيات شخص مات حديثاً من جيبه، واعتمرت قبعة الفينيل الحمراء. عندما وضعت القبعة على رأسها، أوحت لي مالطا كانو بانطباع أن وحدة من الزمن قد وصلت إلى نهايتها.

*

بعد مغادرة مالطا كانو، ظللت جالساً في مكاني وحدي، لا أفكر بأي شيء محدد. لم تكن لديّ فكرة عن المكان الذي ينبغي لي الذهاب إليه أو ما يجدر بي فعله إذا نهضت. لكن لم يكن بوسعي البقاء هناك للأبد، بطبيعة الحال. بعدما مرت عشرون

[3] Wild kingdom

دقيقة وأنا على ذلك الحال، دفعت حساب ثلاثتنا وغادرت مقهى الشاي. لم يدفع أي منهما.

4

هِبة إلـهية ضائعة

*

عاهرة ذهنية

*

وفي المنزل، وجدت ظرفاً سميكاً في صندوق البريد، كان من الملازم ماميّا. اسمي وعنواني مكتوبان عليه بنفس الحروف السميكة الأنيقة كما في المرة السابقة. غيرت ملابسي، وغسلت وجهي، ثم ذهبت إلى المطبخ، حيث شربت كأسين من الماء البارد. وما إن التقطت أنفاسي، فتحت الرسالة.

استخدم الملازم ماميا قلم حبر ليسوِّد قرابة عشر ورقات برموز صغيرة. قلبت الصفحات وأعدتها إلى الظرف. كنت أكثر إرهاقاً من أن أقرأ رسالة بذلك الطول. لم تكن لدي المقدرة على التركيز عندئذٍ. عندما مررت بعينيّ على الرموز المكتوبة يدوياً، بدت لي كسرب من حشرات زرقاء غريبة. وفوق ذلك، كان صدى صوت نوبورو واتايا ما يزال يتردد في رأسي.

تمددت على الأريكة وأغمضت عينيّ مدة طويلة، دون أن أفكر بشيء. شعرت، في تلك اللحظة، أنه ليس من الصعب عليّ ألا أفكر بشيء.كل ما عليّ فعله، حتى لا أفكر بأي شيء، هو التفكير قليلاً بعدة أشياء، واحداً تلو الآخر. أفكر بشيء برهة وجيزة، ثم أطيح به في الفضاء.

كانت الساعة قد اقتربت من الخامسة عندما قررت أخيراً قراءة رسالة الملازم ماميا. خرجت إلى الشرفة، وجلست مستنداً إلى عمود، وأخرجت الأوراق من الظرف.

الصفحة الأولى بكاملها مليئة بعبارات تقليدية. تحيات مسهبة معتّقة، وشكر على دعوتي له إلى منزلي ذلك اليوم، واعتذار مؤثر لإصابتي بالملل بقصصه التي لا تنتهي. كان الملازم مامياً رجلاً كيّساً ولبقاً بلا شك. وقد عاش في حقبة شغلت فيها مثل هذه الكياسة حيزاً كبيراً من الحياة اليومية. مررت على هذه الصفحة سريعاً، وانتقلت للصفحة الثانية.

أرجو أن تسامحني على الإسهاب في هذه المقدمات التمهيدية. هدفي الوحيد من كتابة هذه الرسالة اليوم - مع معرفتي التامة بأن وقاحتي بكتابتها سوف تثقل عليك- هو إخبارك بأن الأحداث التي رويتها لك مؤخراً لم تكن من نسج خيالي أو ذكريات عجوز مشكوك في صحتها، بل هي الحقيقة المجردة في كل تفاصيلها. وكما تعرف، انتهت الحرب منذ وقت طويل للغاية، ومن الطبيعي أن تتردى الذاكرة بمرور الأعوام. تشيخ الأفكار والذكريات تماماً كما يشيخ الناس. لكن أفكاراً بعينها لا يمكن أن تشيخ البتّة، وذكريات بعينها لن تبهت أبداً.

لم أقل، حتى يومنا هذا، أياً من هذه الأشياء لأي أحد سواك يا سيد أوكادا. ستبدو قصصي هذه، بالنسبة لمعظم الناس، مجرد تلفيقات يستحيل تصديقها. يصرف غالبية الناس النظر عن الأشياء التي تقع خارج نطاق فهمهم باعتبارها سخيفة منافية للعقل ولا تستحق التفكير بشأنها. أنا نفسي لا أتمنى سوى ألّا تكون قصصي - في الحقيقة- سوى مجرد تلفيقات يستحيل تصديقها. ظللت طوال حياتي أقتات على أمل ألا تعدو ذكرياتي هذه سوى كونها مجرد حلم أو وهم. وقد جاهدت لأقنع نفسي بأنها لم تحدث قط. لكن كلما حاولت إزاحتها إلى الظلام، تعود أقوى وأوضح مما كانت عليه. تماماً مثل الخلايا السرطانية، ضربت هذه الذكريات بجذورها في عقلي ونخرت عظامي.

حتى هذه اللحظة، يمكنني تذكر أدق التفاصيل بوضوح رهيب، وأشعر أنني أتذكر أحداثاً وقعت بالأمس. أحسّ بملمس الرمال والعشب في يدي، ويمكنني حتى

أن أشمّ رائحتها. وأري أشكال السحب في السماء. وأشعر بالرياح الرملية الجافة على خدّيّ. إن أحداث حياتي اللاحقة، مقارنة بها، هي التي تبدو كوهم يقع على تخوم الحلم والواقع.

جذور حياتي نفسها، أي الاشياء التي تخصني وحدي، إما تجمدت أو تيبّست أو احترقت هناك، في سهوب منغوليا الخارجية، حيث لا يوجد شيء على مد البصر. بعد ذلك، فقدت يدي في تلك المعركة الشرسة مع وحدة الدبابات السوفييتية التي هاجمتنا على الحدود، وتجرّعت مشقة لا يمكن تخيلها في معسكر الأشغال السيبيري في زمهرير الشتاء. أعِدتُ إلى اليابان وعملت ثلاثين عاماً خالية من الأحداث أستاذاً للدراسات الاجتماعية في مدرسة ثانوية قروية. وأعيش وحدي منذ ذلك الوقت، أفلح الأرض. لكنني أشعر أن كل تلك الأشهر والأعوام اللاحقة ليست سوى وهم، كما لو أنها لم تحدث. في لحظة، تقفز ذاكرتي عبر قوقعة الزمن الفارغة تلك وتعيدني إلى هولون بوير.

أعتقد أن ما كلفني حياتي، وما حوّلني إلى هذه القوقعة الفارغة كان شيئاً في الضوء الذي رأيته في قاع البئر، ضوء الشمس الساطع الذي شق طريقه إلى قاع البئر واستمر عشر أو عشرين ثانية. كان يظهر بلا مقدمات، ويختفي فجأة. لكن في ذلك الفيض اللحظي من الضوء، رأيت شيئاً. رأيته مرة واحدة. ولن أراه مجدداً ما حييت. وبعد رؤيته، لم أعد الشخص نفسه الذي كنته.

ما الذي حدث هناك؟ وما معناه؟ ليس بمقدوري، حتى الآن، بعد أربعين عاماً، الإجابة عن هذه الأسئلة بأي درجة من اليقين. ولهذا فإن ما أود قوله افتراضي تماماً، تفسير غير قاطع صغته لنفسي دون استناد إلى أي أسس منطقية. رغماً عن ذلك، أعتقد أن فرضيتي هذه، للوقت الراهن، هي أقرب تفسير يمكن أن يقدمه أي أحد لحقيقة ما اختبرته.

ألقاني جنود منغوليا الخارجية في بئر عميقة مظلمة وسط السهوب، وكنت أعاني كسوراً في ساقي وكتفي، وليس لدي طعام أو ماء. كنت أنتظر الموت ببساطة. وقبل ذلك، رأيت رجلاً يُسلخ حياً. أعتقد أن وعيي، في تلك الظروف، وصل إلى حالة من

التركيز المتماسك، لدرجة أنني تمكنت- عندما سطع الضوء بضع ثوان- من الهبوط مباشرة إلى مكان لربما يمكن تسميته بأعمق مراكز وعيي. مهما يكن، رأيت شكل شيء ما هناك. تخيل فحسب: كل ما حولي يسبح في الضوء، وأنا في قلب لجّة الضوء، عيناي لا تريان شيئاً، إنني مغلف بالضوء تماماً. لكن شيئاً يبدأ في الظهور، أثناء فقداني المؤقت لبصري، شيء يحاول أن يتخذ شكلاً. شيء ما. شيء ما له حياة. مثل الظل في كسوف الشمس. يبدأ في الخروج، أسوداً، في الضوء. لكنني لا أستطيع تبيّن شكله إطلاقاً. يحاول أن يصلني. يحاول أن يُنعِم عليّ بشيء أشبه بهبة إلهية. انتظرته، مرتعشاً. لكن إما لأنه غير رأيه أو لأن الوقت لم يعد كافياً، لم يصلني. وقبيل أن يتخذ شكله كاملاً، يتحلل ويذوب مجدداً في الضوء. ومن ثم، يتلاشى الضوء نفسه، وقد انتهت مدة سطوع الشمس داخل البئر.

تكرر هذا الحدث في يومين متتاليين. يبدأ شيء في اتخاذ شكل له في الضوء الغامر، ثم يتلاشى قبل أن يكتمل. في تلك البئر، كنت أعاني الجوع والعطش أيّما معاناة. لكن في النهاية، لم يكن الجوع على جانب كبير من الأهمية. أكثر ما عانيته في تلك البئر كان عذابي الناجم عن عجزي عن رؤية ذلك الشيء الذي في الضوء رؤية واضحة. جوع عجزي عن رؤية ما كنت بحاجة إلى رؤيته، وعطش عجزي عن معرفة ما كنت بحاجة إلى معرفته. إذا تمكنت من رؤيته بوضوح، ما كنت لأمانع الموت عندئذٍ في ذلك المكان. هذا ما شعرت به حقاً. كنت لأضحّي بأي شيء لأحظي برؤية كاملة لشكله.

لكن في النهاية، أُنتُزِع الشكل بعيداً عني للأبد. ضاعت الهبة قبل أن تصلني. وكما ذكرت آنفاً، الحياة التي كنت أعيشها بعد خروجي من تلك الحفرة لم تكن سوى قوقعة جوفاء فارغة. ولهذا السبب، عندما غزا الجيش السوفييتي منشوريا قبيل نهاية الحرب، تطوعت ليتم إرسالي إلى الخطوط الأمامية. وفي معسكر الأشغال السيبيري أيضاً، كنت أتعمّد قذف نفسي في أقسى الظروف. لكن مهما فعلت، لم أتمكن من الموت. وتماماً كما تنبأ العريف هوندا في تلك الليلة، كان مقدر لي أن أعود إلى اليابان وأعيش حياة مديدة. أتذكر مدى سعادتي عندما سمعت كلماته أول مرة، لكن

اتضح أنها لعنة. كان العريف هوندا محقاً أيضاً عندما قال إنه من الأفضل ألّا أعرف.

فقدت حياتي عندما فقدت ذلك الإلهام وتلك الهبة. ماتت كل الأشياء الحية بداخلي، وكل ما كان له قيمة. ولم يتبق شيء. احترقت جميعها واستحالت رماداً. تسببت حرارة ذلك الإلهام، في ذلك الضوء الجبار، في ذبول مركز حياتي الذي كان يجعل مني الشخص الذي كنته. وبالطبع كانت تعوزني القوة لمقاومة تلك الحرارة. ولذا لا أشعر بالخوف من الموت. بل بالعكس، سيكون موتي الجسدي، بالنسبة لي، نوعاً من الخلاص، سيحررني للأبد من هذا السجن البائس، ألمُ أن أكون أنا.

أثقلت عليك مجدداً بحكاية مطولة. أتوسل إليك لتسامحني. لكن ما أردت إيصاله لك يا سيد أوكادا هو أنني فقدت حياتي في لحظة معينة من الزمن، وواصلت العيش أربعين عاماً أو أكثر فاقداً حياتي. وباعتباري شخص وجد نفسه في مثل هذا الوضع، خلصت إلى الاعتقاد بأن الحياة شيء أكثر محدودية بكثير مما يدركه أولئك الذين يعيشون في خضم دوّامتها. يسقط الضوء على فعل الحياة لأقصر مدة ممكنة، ربما ثوان فحسب. وحالما يختفي وقد أخفق المرء في استيعاب ما تقدمه من إلهام، لن تسنح له فرصة ثانية. قد يضطر المرء لعيش بقية حياته في أعماق الوحدة والندم. في هذا العالم الطافح بالخيالات والأوهام، لا يستطيع المرء التطلع إلى أي شيء، ولا يحمل بين جنبيه سوى الجثة الذاوية لما كان ينبغي أن يكونه.

على أي حال، إنني ممتن لفرصة لقاءك يا سيد أوكادا، ولإخبارك بقصتي. لست متأكداً من مدى فائدتها لك بطريقة أو بأخرى. لكنني بإخبارك إياها، أشعر بنوع من الخلاص. مع إنه قد يكون ضعيفاً وواهياً، لكن أي ضرب من ضروب الخلاص هو كنز بالنسبة لي. كما أشعر بحضور خفي لأيدي القدر عندما أتذكر أن السيد هوندا هو الذي دلّني إليك. رجاءً تذكر، يا سيد أوكادا، أن أحدهم هنا يرسل لك أطيب تمنياته لك بحياة سعيدة في الأعوام القادمة.

قرأت الرسالة مرة أخرى، قراءة متأنية، ثم أعدتها إلى ظرفها. لامست رسالة الملازم مامياً شغاف قلبي على نحو غريب، لكنها لم تُثِر في عقلي سوى صور

باهتة وغامضة. كان الملازم ماميا رجلاً يمكنني الوثوق به وتقبّله، ويمكنني أيضاً تقبل الأشياء التي قال إنها حقائق على أنها حقائق. لكن مفهوم الحقيقة أو الواقع نفسه لم يكن كافياً لإقناعي عندئذٍ. أكثر ما تأثرت به في رسالة الملازم هو شعور الإحباط الذي يخيّم على كلماته، إحباط عدم مقدرته على إيصال أو توضيح أي شيء على نحو يشعره بالرضا التام.

ذهبت إلى المطبخ من أجل شربة ماء. ثم تجولت في أنحاء المنزل. وفي غرفة النوم، جلست على الفراش، ورحت أنظر إلى فساتين كوميكو المرصوفة في الخزانة. وفكرت، *ما المغزى من حياتي التي عشتها حتى الآن؟* تذكرت ما قاله نوبورو واتايا. كانت ردة فعلي الأولى هي الغضب. لكن كان علي الاعتراف بأنه محق. قال: *«إنك متزوج بشقيقتي ست سنوات، ما الذي فعلته طوال ذلك الوقت؟ لا شيء، صحيح؟ كل ما أنجزته خلال ست سنوات طويلة هو الاستقالة من عملك وإفساد حياة كوميكو. والآن أنت عاطل عن العمل، وليست لديك أي خطط للمستقبل. لا يوجد في رأسك هذا سوى القمامة والحجارة».* لم يكن أمامي خيار سوى الإقرار بدقة ملاحظاته. من ناحية موضوعية، لم أفعل شيئاً ذا معني خلال هذه السنوات الست، وما في رأسي كان بالفعل أشبه بالقمامة والحجارة، كنت صفراً. تماماً كما قال.

لكن هل صحيح أنني أفسدت حياة كوميكو؟

لبثت أنظر إلى فساتينها وبلوزاتها وتنوراتها في الخزانة مدة طويلة. كانت هي الأشباح التي خلفتها كوميكو وراءها. لم يكن بوسع تلك الأشباح، المحرومة من صاحبتها، سوى أن تظل متدلية في أماكنها، ذابلة ومرتخية. ذهبت إلى الحمام، وأخرجت قنينة عطر كريستيان ديور التي أعطاها أحدهم لكوميكو. فتحت القنينة وتنشقتها. الشذا نفسه الذي شممته خلف أذن كوميكو صبيحة اليوم الذي غادرت فيه المنزل. سكبت محتويات القنينة في المغسلة ببطء. وأثناء تدفق السائل إلى المصرف، عبقت رائحة زهور قوية (حاولت تذكر اسمها تحديداً لكن عجزت) فوق

المغسلة، فأثارت الذكريات بقوة. غسلت وجهي، في غمرة تلك الرائحة القوية، ونظفت أسناني. ثم قررت الذهاب إلى منزل ماي كاساهارا.

*

وقفت، كالعادة، في الزقاق خلف منزل مياواكي، منتظراً ظهور ماي كاساهارا، لكن ذلك لم يفلح. اتكأت على السياج، أمص حلوى الليمون، متطلعاً إلى تمثال الطائر، وفكرت برسالة الملازم ماميا. لكن سرعان ما بدأ الظلام يهبط. بعدما انتظرت قرابة نصف ساعة، استسلمت. كانت ماي كاساهارا خارج المنزل على الأرجح.

عدت عبر الزقاق في طريقي إلى المنزل وتسلقت الجدار. وبالداخل، وجدت المكان غارقاً في ظلام أمسية صيفية ساكن وشاحب. وكانت كريتا كانو موجودة. توهمت أنني كنت أحلم، لكن لا، كان امتداداً للواقع. ما زال أثر خفيف من العطر الذي سكبته عالق في الهواء. وجدت كريتا كانو جالسة على الأريكة، ويديها على ركبتيها. اقتربت منها، لكنها لم تأتِ بحركة، كما لو أن الزمن نفسه توقف بداخلها. أضئت المصباح، وجلست على كرسي قبالتها. قالت أخيراً: «لم يكن الباب موصداً، فسمحت لنفسي بالدخول».

«لا بأس، غالباً ما أترك الباب مفتوحاً عندما أخرج».

كانت ترتدي بلوزة بيضاء عليها أشرطة، وتنورة بلون بنفسجي زاه مزودة بأهداب، وتضع قرطين كبيرين، وعلى معصمها الأيسر سوارين متطابقين، اجتاحتني قشعريرة عندما رأيتهما. كانا مطابقين للسوارين اللذين كانت تضعهما عندما رأيتها في منامي. شعرها ومكياجها على طريقتها المعتادة، ورذاذ الشعر يثبت شعرها كما ينبغي، كما لو أنها وصلت من صالون تجميل للتو.

قالت: «ليس أمامي متسع من الوقت، عليّ أن أعود إلى المنزل في الحال. لكنني حرصت على أن أحظى بفرصة للحديث معك يا سيد أوكادا. أعتقد أنك قابلت شقيقتي والسيد واتايا اليوم».

«بالفعل، بيد أنه لم يكن اللقاء الأكثر إبهاجاً».

سألتني: «أليس هناك ما له علاقة باللقاء تود أن تسألني عنه؟»

أناس لا حصر لهم يأتون إليّ ويسألوني جميع أنواع الأسئلة.

قلت: «أود معرفة المزيد عن نوبورو واتايا، لطالما اعتقدت أنني يجب علي أن أعرف المزيد عنه».

أومأتْ: «أنا نفسي أود معرفة المزيد عن نوبورو واتايا. أعتقد أن شقيقتي سبق وأخبرتك أنه دنّسني ذات مرة، منذ وقت طويل جداً. ليس لدي الوقت اليوم لأخوض في قصته، لكنني سوف أرويها لك، في مناسبة ما في المستقبل. على أي حال، كان شيئاً حدث دون إرادتي. كان مرتّباً بيننا أن نقيم علاقة، ولهذا لم يكن اغتصاباً بالمعنى المعروف للكلمة. لكنه *دنّسني* بالفعل. وقد غيرتني تلك الحادثة من عدة جوانب مهمة. تعافيت من الحادثة في نهاية المطاف. وفي الواقع، مكّنتني (ببعض العون من مالطا كانو) من إيصال نفسي إلى مستوى مغاير. أياً كانت النتائج النهائية، تبقى الحقيقة هي أن نوبورو واتايا انتهكني ودنسني عندئذٍ دون إرادتي. ما فعله بي كان خطأً، وخطيراً. كان من الممكن أن أضيع للأبد».

لم أكن أفهم ما تعنيه.

«وبالطبع، أقمت معكَ علاقة أيضاً يا سيد أوكادا، لكن ذلك تم على نحو صحيح، ومن أجل غرض صحيح. لم أتدنّس بأية طريقة».

نظرت إليها مباشرة بضع ثوان، كأنني أحدق إلى جدار تغطيه بقع ملونة.

«أقمتِ علاقة معي؟»

«نعم، في المرة الأولى استخدمت فمي فحسب. لكن في المرة الثانية، أقمنا علاقة جنسية كاملة. كنا في نفس الغرفة في كلتا المرتين. إنك تتذكر بالطبع. كان الوقت ضيقاً في المناسبة الأولى، فكان علينا أن نتعجل. وكان أمامنا متسع من الوقت في المناسبة الثانية».

استحال عليّ الرد عليها.

«كنت أرتدي فستان زوجتك في المرة الثانية، الفستان الأزرق. وأساور كهذه في معصمي الأيسر، أليس كذلك؟»

رفعت معصمها الأيسر ناحيتي.

أومأتُ.

ثم قالت كريتا كانو: «لم نقم علاقة في الواقع، بطبيعة الحال. عندما قذفتَ، لم يكن ذلك بداخلي، جسدياً، بل في وعيك الخاص بك. أرأيت؟ كان وعياً ملفّقاً. ومع ذلك، كلانا نشترك في وعي إقامة علاقة مع بعضنا».

«ما المغزى من فعل شيء كهذا؟»

قالت: «لنعرف. لنعرف أكثر، ونعمّق معرفتنا».

أطلقت تنهيدة. كان ذلك جنوناً. لكنها وصفت مشهد حلمي بدقة لا تصدق.رحت أحدق إلى سِوارَي معصمها الأيسر وأنا أمرر إصبعي حول فمي.

قلت بصوت جاف: «ربما لستُ ذكياً جداً، لكن لا أستطيع أن أزعم أنني فهمت كل ما كنتِ تقولينه لي».

«في حلمك الثاني، أثناء ممارستنا، حلّت امرأة أخرى محلي، أليس كذلك؟ ليست لديّ فكرة عمّن كانت. لكن ذلك الحدث كان المقصود منه، على الأرجح، الإيحاء لك بشيء يا سيد أوكادا. هذا ما أردت إيضاحه لك».

لم أرد عليها بشيء.

«ينبغي لكَ ألّا تشعر بالذنب بشأن إقامتك علاقة معي. كما ترى، يا سيد أوكادا، أنا عاهرة. كنت عاهرة أبيع جسدي، لكنني الآن عاهرة ذهنية. تمر الأشياء من خلالي».

عندئذٍ نهضت كريتا كانو وجثت على ركبتيها إلى جانبي، وأمسكت يدي بكلتي يديها. كانت يداها ناعمتين ودافئتين، وصغيرتين للغاية. «من فضلك يا سيد أوكادا، ضُمّني إليك، الآن».

نهضنا، وطوقتها بذراعي. صدقاً، لم تكن لديّ فكرة عما إذا كان يجدر بي فعل ذلك. لكن ضم كريتا كانو، في تلك اللحظة، لم يبدُ خطأً. لا يمكنني تفسير الأمر، لكن هذا ما شعرت به. أحطت جسدها الرشيق بذراعي كأنني أتلقى أول درس لي في قاعة رقص. كانت امرأة صغيرة. أعلى رأسها يلامس أسفل ذقني، ونهداها يضغطان على بطني. أسندت رأسها إلى صدري. وكانت تبكي، رغم أنها لم تصدر صوتاً طوال الوقت، وكنت أشعر بدفء دموعها من خلال قميصي. نظرت للأسفل، ورأيت شعرها المصفف بعناية يرتعش. شعرت كأنني أرى حلماً جيّد الإخراج. لكنه لم يكن حلماً.

بعدما لبثنا على هذا الوضع دون حراك مدة طويلة جداً، ابتعدت عني كما لو أنها تذكرت شيئاً فجأة. وراحت تنظر إليّ، محتفظة بمسافة بيني وبينها.

«شكراً جزيلاً لك يا سيد أوكادا. سأعود إلى المنزل الآن».

من المفترض أنها كانت تبكي بحرقة، لكن مكياجها لم يمسه سوءٌ يُذكر. كان الإحساس بالواقع عندئذٍ غائباً على نحو غريب.

سألتها: «هل ستزورينني في أحلامي مجدداً؟»

قالت بهزة خفيفة من رأسها: «لا أدري، حتى أنا لا أعرف هذا. لكن رجاءً، ثِق بي. مهما يحدث، رجاءً لا تخف مني أو تشعر بأنك عليك توخي الحذر في كل ما يتعلق بي. أتعدني بهذا يا سيد أوكادا؟»

أجبتها بإيماءة. وبعدها ذهبت كريتا كانو إلى منزلها.

صار ظلام الليل أشد كثافة من ذي قبل. وكان الجزء الأمامي من قميصي مبللاً. ظللت مستيقظاً حتى الفجر، عاجزاً عن النوم. لم أشعر بالنعاس، وفي الحقيقة، كنت أخشى أن أنام. شعرت أنني إذا خلدت إلى النوم، فسأغرق في تيار من الرمال المتحركة، الذي سيجرفني إلى عالم آخر لن أتمكن من العودة منه أبداً. بقيت مستلقياً على الأريكة حتى الصباح، أحتسي البراندي وأفكر بقصة كريتا كانو. حتى بعد انقضاء الليل، ظل حضور كريتا كانو وعطر كريستيان ديور يتشبثان بالمنزل مثل أشباح أسيرة.

5

مناظر من مدن بعيدة

*

نصف قمر أبدي

*

سلّم في مكانه

*

رن الهاتف في اللحظة التي أغمضت عينيّ فيها. حاولت تجاهله، لكنه كما لو كان يقرأ أفكاري، واصل رنينه بعناد. عشر رنات، عشرون رنة، ما كان ليتوقف أبداً. في النهاية، فتحت عيناً واحدة ونظرت إلى الساعة. وجدتها تشير إلى بعد السادسة صباحاً بقليل، وكان ضوء النهار يملأ الفضاء خلف النافذة. ربما يكون الاتصال من كوميكو. غادرت الفراش، وتوجهت إلى صالة الجلوس، ورفعت السماعة.

قلت: «مرحباً». لكن المتصل لم يقل شيئاً. كان من الواضح أن أحدهم على الطرف الآخر، لكنه لم يتحدث. لزمت الصمت بدوري. أرهفت سمعي، فميّزت بصعوبة صوت تنفس.

«من معي؟» سألت، لكن الصمت استمر على الطرف الآخر. فقلت: «إذا كنتِ من تتصل بي دائماً، فأسدني معروفاً وأجّلي المكالمة إلى وقت لاحق. لا أحاديث جنسية قبل الإفطار، من فضلك».

«من هي التي تتصل بك دائماً؟» فجأة سمعت صوت ماي كاساهارا. «من التي تتحدثَ معها عن الجنس؟»

قلت: «لا أحد».

«المرأة التي كنت تطوقها بذراعيك ليلة الأمس؟ أتتحدث معها عن الجنس عبر الهاتف؟»

«لا، ليست هي».

«قل لي، يا طائر الزنبرك، كم عدد النساء اللاتي يتسكعن حولك عدا عن زوجتك؟»

«ستكون هذه قصة طويلة. على أي حال، إنها السادسة صباحاً ولم أتمكن من النوم جيداً. إذاً، أتيتِ إلى منزلي ليلة أمس، هه؟»

«ورأيتك معها، تحتضنان بعضكما».

«لم يكن ذلك يعني شيئاً. كيف يمكنني أن أعبّر عنه؟... كان نوعاً من مراسم صغيرة».

«لستَ مضطراً لتقديم الأعذار لي، أنا لست زوجتك. هذا ليس من شأني. لكن دعني أقول لك هذا: لديك مشكلة».

«قد تكونين محقة».

صمتت ماي كاساهارا هنيهة، ثم تنحنحت وقالت: «أتيتَ إلى الزقاق ليلة الأمس، أليس كذلك؟ وظللت واقفاً خلف منزلي مدة طويلة، مثل لص مبتدئ... لا تقلق، رأيتك هناك».

«لماذا لم تخرجي إذاً؟»

«قد لا ترغب الفتاة في الخروج دائماً، كما تعرف، يا طائر الزنبرك. أحياناً تحب أن تكون شقية، كأنها تقول، إذا كان سينتظر، فلينتظر لأطول مدة ممكنة».

أطلقت ضحكة قصيرة.

تابعتْ: «لكن مع ذلك، شعرت بالذنب. فجررت نفسي إلى منزلك لاحقاً، كالحمقاء».

«ووجدتِني أعانق المرأة».

«أجل. لكن، أليست مجنونة قليلاً؟ لم يعد أحد يرتدي مثل تلك الملابس. ومكياجها! كأنها قادمة من زمن آخر أو ما شابه. ينبغي لها التحقق من سلامة عقلها».

«لا تقلقي، إنها ليست مجنونة. تتباين أذواق الناس».

«حسناً، بالطبع. يمكن للناس أن يتحلوا بأي ذوق يريدونه. لكن الناس العاديين لا يبلغون هذا الحد لأن ذوقهم يملي عليهم ذلك فحسب. كأنها- ماذا؟- قفزت من مجلة قديمة. كل ما فيها، من رأسها إلى قدميها، يوحي بهذا».

لم أرد على كلامها.

«قل لي، يا طائر الزنبرك. هل نمت معها؟»

ترددت لحظة، وقلت: «لا، لم أنم معها».

«حقاً؟»

«حقاً. لا تربطني بها علاقة جسدية من هذا النوع».

«لماذا كنت تحتضنها إذاً؟»

«ترغب النساء في أن يحتضنهن شخصٌ ما أحياناً».

«قد يكون الأمر كذلك. لكن فكرة كهذه قد لا تخلو من خطورة».

«صحيح».

«ما اسمها؟»

«كريتا كانو».

صمتت ماي كاساهارا، ثم قالت أخيراً: «أنت تمزح، صحيح؟»

«لا، إطلاقاً. واسم شقيقتها مالطا كانو».

«مالطا!؟ لا يمكن أن يكون هذا اسمها الحقيقي».

«لا، إنه اسمها المهني».

«ما مهنتهما؟ ثنائي كوميدي؟ أم هل تربطهما علاقة بالبحر المتوسط؟»

«في الواقع، ثمة علاقة ما بالبحر المتوسط».

«هل ترتدي شقيقتها ملابساً كالناس العاديين؟»

«إلى حد كبير. ملابسها عادية جداً، مقارنة بكريتا على الأقل. عدا أنها دائماً ما ما تعتمر قبعة فينيل حمراء».

«ثمة شيء يخبرني أنها أيضاً ليست طبيعية تماماً. لماذا تكبّد نفسك عناء الاختلاط بمثل هؤلاء الناس غريبي الأطوار؟»

«ستكون هذه قصة طويلة حقاً. إذا استقرت الأحوال ذات يوم، ربما أرويها لك. لكن ليس الآن. رأسي مضطرب للغاية، والأحوال أكثر اضطراباً».

«أجل، صحيح» قالت بنبرة شك في صوتها. «على أي حال، لم تعد زوجتك بعد، أليس كذلك؟»

«لا، ليس بعد».

«أتعرف، يا طائر الزنبرك، إنك رجل بالغ. لمَ لا تشغّل رأسك قليلاً؟ إذا غيرت زوجتك رأيها وعادت إلى المنزل ليلة أمس، لرأتك تطوق المرأة بذراعيك. ماذا عندئذٍ؟»

«صحيح. كان هذا أمراً وارداً».

«وإذا كانت هي المتصلة الآن، وليس أنا، وأنت شرعت في الحديث عن الجنس عبر الهاتف، ما الذي كانت لتعتقده بشأن هذا؟»

«إنكِ محقة».

قالت متنهدة: «إنني أؤكد لك، لديك مشكلة».

«صحيح. لديّ مشكلة بالفعل».

«كفّ عن موافقتي على كل ما أقوله! مهما يكن، قل لي، ما الذي كنت تريده ليلة الأمس؟ أتيت إلى منزلي من أجل شيء ما، أليس كذلك؟»

«آه، ذلك. لا تشغلي بالك».

«لا أشغل بالي؟»

«نعم. في النهاية، أردت... لا تشغلي بالك».

«بعبارة أخرى، عانقتك تلك المرأة، فلم تعد بحاجة إليّ».

«لا، الأمر ليس كذلك. بدا لي...»

أنهتْ المكالمة.

رائع.

ماي كاساهارا، مالطا كانو، كريتا كانو، امرأة الهاتف، كوميكو. كانت ماي كاساهارا محقة. هذه الأيام، حولي عدد أكبر من اللازم من النساء. وكل واحدة تتبعها مشكلتها الملغزة الخاصة بها.

لكنني كنت من الإرهاق بحيث عجزت عن التفكير. كان علي أن أحصل على قسط من النوم. وثمة شيء أريد القيام به عندما استيقظ.

عدت إلى الفراش وغصت في النوم.

*

عندما استيقظت، أخرجت حقيبة الظهر من الدرج. الحقيبة التي نحتفظ بها تحسباً للزلازل والحالات الطارئة الأخرى التي قد تتطلب إخلاء المنزل. بداخلها قارورة ماء، وبسكوت، ومصباح يدوي، وقداحة. اشترت كوميكو جميع هذه الأشياء عندما انتقلنا إلى هذا المنزل، تحسباً لوقوع الكارثة الأكبر. كانت قارورة الماء فارغة، والبسكويت يغطيه الفطر، وبطاريات المصباح ميتة. ملأت القارورة بالماء، وألقيت البسكويت، وركّبت بطاريات جديدة في المصباح. ثم ذهبت إلى متجر المعدات الثقيلة بالحي، واشتريت واحداً من سلالم الحبال، تلك التي تستخدم في طوارئ الحريق. فكرت فيما قد أحتاج إليه أيضاً، لكن لم يخطر لي شيء، عدا عن حلوى الليمون. طفت بالمنزل، وأغلقت النوافذ وأطفأت الأنوار. وتحققت من قفل الباب الأمامي. ثم أعدت التفكير في أمر قفله. ربما يأتي أحدهم بحثاً عني أثناء غيابي. وربما تعود كوميكو. وفوق هذا وذاك، لا يوجد ما يستحق السرقة هنا. تركت ملاحظة على طاولة المطبخ: «خرجت بعض الوقت. سأعود. تورو».

تساءلت، كيف سيبدو الأمر لكوميكو عندما تجد هذه الملاحظة. كيف ستتقبل الأمر؟ جعّدتها وكتبت واحدة جديدة: «اضطررت للخروج لقضاء أمر مهم. سأعود قريباً. انتظري رجاءً. تورو».

سرت من الشرفة إلى الباحة، مرتدياً سروالاً قطنياً، وقميص بولو قصير الأكمام، وحاملاً حقيبة الظهر. رأيت آثار الصيف في كل مكان، الصيف كما ينبغي له أن يكون، دون أي تحفظات أو شروط. وهج الشمس، ورائحة النسيم، وزرقة السماء، وأشكال السحب، وطنين حشرات زيز الحصاد. كل شيء كان يعلن قدوم

الصيف. وكنت هناك، حاملاً حقيبة على ظهري. وتسلقت جدار الحديقة قبل أن أهبط إلى الزقاق.

هربت من المنزل ذات مرة، وأنا بعد صبي، في صباح يوم صيفي جميل كهذا تماماً، لا أذكر السبب الذي دفعني للهروب. كنت غاضباً من والديّ على الأرجح. غادرت المنزل حاملاً حقيبة ظهر، وفي جيبي كل النقود التي ادّخرتها. قلت لأمي إنني سأذهب في نزهة مع بعض الأصدقاء، وطلبت منها إعداد الغداء. توجد تلال تصلح للنزهات على مقربة من منزلنا، وعادة ما يذهب الأطفال لتسلقها دون رقابة الكبار. حالما غادرت المنزل، صعدت على متن حافلة، ووصلت معها إلى نهاية الخط. كانت بلدة نائية وغريبة بالنسبة لي. وهناك انتقلت إلى حافلة أخرى وذهبت إلى بلدة نائية غريبة أخرى. ترجلت من الحافلة، دون أن أعرف اسم المكان، وظللت هائماً على وجهي في الطرقات. لم يكن ثمة ما يميز تلك البلدة، كانت أكثر حيوية قليلاً من الحي الذي كنت أعيش فيه، وأكثر بؤساً. فيها شارع تحيط به المحلات التجارية، ومحطة قطار، وبضعة مصانع صغيرة. ويشقها مجرى مائي تطل عليه قاعة سينما، تعلن لوحة العرض أمامها أنهم يعرضون فيلماً غربياً. عند الظهر، جلست على مقعد منتزه وتناولت غدائي. مكثت في البلدة حتى أول المساء. وعندما بدأت الشمس تغوص في الأفق، غاص قلبي أيضاً. قلت لنفسي، هذه فرصتي الأخيرة للعودة، حالما يهبط الظلام، لن أتمكن من مغادرة هذا المكان أبداً. فعدت إلى المنزل مستقلاً الحافلات نفسها التي أحضرتني. وصلت قبل السابعة، ولم يلاحظ أحد أنني هربت. ظن والديّ أنني كنت في التلال مع الصبية الآخرين. كنت قد نسيت كل ما له صلة بتلك الواقعة. لكن ما إن وجدت نفسي أتسلق الجدار حاملاً حقيبة الظهر، عاودني ذلك الشعور، الوحدة التي لا توصف التي شعرت بها عندئذٍ، واقفاً وحدي وسط شوارع غريبة، وأناس غرباء، ومنازل غريبة، أشاهد شمس العصر وهي تفقد عنفوانها شيئاً فشيئاً. ثم فكرت بكوميكو، كوميكو التي اختفت في مكان ما، دون أن تأخذ معها شيئاً سوى حقيبة يدوية، وبلوزة وتنورة من المغسلة. لم تغتنم آخر فرصة للعودة. وعلى الأرجح إنها الآن تقف وحيدة في بلدة ما، غريبة ونائية. لم أحتمل التفكير بها على هذا النحو.

لكن لا، لا يمكن أن تكون وحدها. لا بد أنها مع رجل. هذا هو الوضع المنطقي الوحيد.

توقفت عن التفكير بكوميكو.

*

شققت طريقي في الزقاق.

كان العشب تحت قدميّ قد فقد الحياة، وفقد خضرته اليانعة التي كانت تلوّنه أثناء هطول أمطار الربيع. والآن يبدو باهتاً وكئيباً. يثب جندب من بين بعض أوراقه الخضراء أثناء سيري، وحتى بعض الضفادع كانت تتقافز مبتعدة أحياناً. صار الزقاق عالم هذه المخلوقات الصغيرة، ولم أكن سوى دخيل جاء ليُخِل بالنظام السائد.

عندما بلغت منزل مياواكي المهجور، فتحت البوابة ودخلت دون تردد. وسرت عبر الأعشاب الطويلة إلى منتصف الباحة، ومررت جوار تمثال الطائر، الذي كان يواصل التحديق إلى السماء. وانعطفت إلى جانب المنزل، آملاً ألا تكون ماي كاساهارا قد رأتني أثناء دخولي.

وصلت إلى البئر، فأزحت الحجارة التي تثبت الغطاء، ثم رفعت أحد الغطائين الخشبيين نصف الدائريين. وألقيت بحصاة في البئر لأتحقق من أنها ما تزال جافة. فأصدرت الحصاة، كما في المرة السابقة، صوتاً جافاً. إذاً لم تكن ثمة مياه فيها. أنزلت حقيبة الظهر، وأخرجت سلم الحبال، ثم ربطت أحد طرفيه بجذع الشجرة القريبة، وجذبته بكل ما أوتيت من قوة. توجّب عليّ الإعداد لهذا الأمر بعناية مفرطة. إذا ارتخى الحبل أو انحلّ، فعلى الأرجح لن أعود إلى السطح أبداً.

بدأت إنزال السلم إلى البئر، ممسكاً بحزمة الحبال بذراعي، فنزل الحبل الطويل بكامله، لكنني لم أشعر به يلمس القاع. لا يمكن أن يكون قصيراً جداً، إذ اشتريت أطول سلم حبال في المتجر. لكن البئر عميقة. أضئت المصباح اليدوي، لكنني لم

أتمكن من رؤية ما إذا كان السلم قد وصل إلى القاع أم لا. اخترقت أشعة المصباح البئر إلى حد معين، ثم ابتلعها الظلام.

جلست على حافة حاجز البئر، وأرهفت سمعي، فسمعت صرير عدد قليل من حشرات زيز الحصاد بين الأشجار، كما لو أنها تتنافس لترى أيها صاحب أعلى صوت أو أكبر رئة. لكن لم أسمع أي طيور. وتذكرت طائر الزنبرك بحنين. ربما لم يكن يحب منافسة حشرات زيز الحصاد ورحل إلى مكان ما ليتجنبها.

رفعت راحتي يدي للأعلى لتتلقيا ضوء الشمس. وخلال لحظة، شعرت فيهما بالدفء، كأن الضوء نفذ إلى جلدي، متغلغلاً بين خطوط بصمات أصابعي. الضوء يغمر كل ما حولي، جاعلاً كل شيء يتوهج بضوء الصيف الباهر. حتى الأشياء غير المحسوسة كانت تتنعّم بضوء الصيف. ألقيت حلوى ليمون في فمي ولبثت جالساً في مكاني حتى ذابت تماماً. ثم جذبت السلم بقوة مرة أخرى لأتيقن من إحكام ربطه.

كان نزولي على سلم الحبال الرخو أصعب بكثير مما تخيلته. الحبال المصنوعة من مزيج من القطن والبلاستيك متينة بلا شك، لكن قدميّ لم تكونا تثبتا عليها. تنزلق أرضية حذاء التنس المطاطية كلما حاولت نقل وزني إلى الساق الأخرى. وكنت أتشبث بالحبال بقوة لدرجة أن راحتي يدي بدأتا تؤلماني. نزلت ببطء وحذر، درجة تلو الأخرى. لكنني لم أبلغ القاع. بدا لي أن هبوطي استغرق دهراً. ذكّرت نفسي بصوت الحصاة وهي ترتطم بالقاع. البئر لديها قاع بالفعل! هبوطي على هذا السلم اللعين هو ما استغرق وقتاً طويلاً.

عندما حسبت عشرين درجة، اجتاحتني موجة من الرعب. اجتاحتني فجأة، مثل صعقة كهربائية، وسمّرتني في مكاني. وتصلبت عضلاتي. جميع مسامات جسدي نضحت بالعرق. وبدأت ساقاي ترتعشان. من المستحيل أن تكون البئر بهذا العمق. ذلك المكان يقع في وسط طوكيو، خلف المنزل الذي أعيش فيه مباشرة. حبست أنفاسي وأصخت السمع، لكنني لم أسمع شيئاً. كان خفقان قلبي يدوّي في أذنيَّ بقوة لدرجة أنني لم أستطع سماع أصوات حشرات زيز الحصاد بالأعلى. أخذت نفساً

عميقاً. كنت في الدرجة العشرين، عاجز عن مواصلة الهبوط أو التسلق عائداً للأعلى. الهواء داخل البئر بارد ويعبق برائحة الأرض. كان عالماً منفصلاً، مقطوعاً عن السطح، حيث تسطع الشمس بسخاء. نظرت إلى فوهة البئر فوقي، فوجدتها صغيرة. فتحة البئر الدائرية منصّفة بالغطاء الخشبي الثاني الذي تركته في مكانه. بدت الفوهة، من الأسفل، كنصف قمر يسبح في سماء الليل. قالت مالطا كانو سابقاً: *«سوف يدوم نصف قمر عدة أيام»*. توقعَتْ هذا في حديثها معي عبر الهاتف.

رائع. عندما خطرت لي الفكرة ، شعرت بقواي تخور قليلاً. استرخت عضلاتي، وتحررت كتلة الهواء الصلبة بداخلي وخرجت.

استجمعت كل ما تبقى لي من قوة، واستأنفت الهبوط، قائلاً لنفسي، *لم يتبق سوى القليل، درجات قليلة بعد، لا تقلق، ثمة قاع*. وبعد الدرجة الثانية والعشرين، بلغته. لامست قدماي تراب البئر.

*

أول ما فعلته في الظلام هو تحسس أرضية قاع البئر بطرف حذائي، وأنا ما أزال ممسكاً بالسلم تحسباً لوجود شيء عليّ الهروب منه. وبعدالتحقق من عدم وجود مياه أو أي شيء ذو طبيعة مريبة، نزلت إلى الأرض. وأنزلت حقيبتي، وتحسست سحّابها وأخرجت المصباح اليدوي. ألقيت نظرتي الأولى على المكان. لم يكن سطح القاع صلباً جداً أو هشاً. ولحسن الحظ، كان التراب جافاً. وتتناثر فيه بضعة حجارة، التي لا بد أن الناس ألقوها. الشيء المختلف الوحيد الذي سقط في البئر هو كيس رقائق بطاطس قديم. ذكّرني قاع البئر المضاء بالمصباح بسطح القمر كما رأيته في التلفاز منذ مدة طويلة.

جدار البئر الأسطواني الخرسانى أملس، ولا تشوبه سوى بضع كتل تشبه الطحالب نامية هنا وهناك. وينتصب عموديا مثل مدخنة، وفي نهايته نصف قمر صغير من الضوء. وأنا أنظر للأعلى، تمكنت من استيعاب مدى عمق البئر. جذبت السلم جذبة قوية أخرى، فشعرت به متماسكاً ومطمْئناً. يمكنني العودة إلى السطح ما

دام ثابتاً في مكانه. ثم أخذت نفساً عميقاً. لم تكن ثمة مشكلة في الهواء، عدا عن رائحة العفونة الخفيفة. كان مصدر قلقي الأعظم هو الهواء، إذ دائماً ما يكون هواء الآبار راكداً. ويمكن أن تنفذ الغازات السامة من الأرض إلى الآبار الجافة. كنت قد قرأت في صحيفة، قبل مدة طويلة، عن حفّار آبار فقد حياته بسبب غاز الميثان في قاع بئر.

اقتعدتُ أرضية البئر متنهداً، مستنداً بظهري إلى الجدار. أغمضت عيني وتركت جسدي يتكيف مع المكان. وقلت لنفسي، حسناً، هأنذا في قاع بئر.

6

مِلكية ميراث

*

تحقيق عن قناديل البحر

*

شيء كشعور بالانفصال

*

جلست في الظلام. وفوقي بعيداً، يطفو نصف قمر من الضوء رسمه غطاء البئر، كإشارة إلى شيء ما. ومع ذلك، لم يجد أي من ذلك الضوء طريقه إلى القاع.

تكيفت عيناي مع الظلام بمرور الوقت. وقبل وقت ليس بالطويل، تمكنت بالكاد من رؤية شكل يدي عندما قربتها من وجهي. وبدأت الأشياء الأخرى من حولي تتخذ أشكالها الباهتة ببطء، مثل حيوانات برية خائفة تتخلى عن حذرها تدريجياً. لكن بقدر ما اعتادت عيناي على الظلام، فإن الظلام ظل ظلاماً. كلما حاولت أن أركز بصري عليه، يفقد شكله ويذوب بصمت في العتمة المحيطة به. ربما يمكنني أن أطلق عليه «ظلام شاحب». لكن مهما بلغ من شحوبه، فإنه ظل يحتفظ بكثافة

تميزه، والتـي فـي بعـض الحـالات، يكـون ظلامهـا أعمـق معنـىً مـن الظـلام الـدامس. يمكنك أن ترى فيه شيئاً، وفي الوقت عينه، لا يمكنك أن ترى شيئاً البتة.

بدأت ذكرياتي، هناك في ذلك الظلام، مع غرابـة تأثيره، تكتسب قوة لم تكن تمتلكها من قبل. أصبحت شظايا الصور بداخلي جليّة بأدق تفاصيلها، لدرجة شعرت معها إنني أستطيع الإمساك بها بيدي. أغمضت عينيّ واستحضرت وقت مقابلتي كوميكو أول مرة قبل ثمان سنوات.

حدث ذلك في صالة انتظار أفراد الأسر بمستشفى الجامعة في كاندا. كان علـيَّ الذهاب إلـى المستشفى يومياً تقريبـاً فـي ذلـك الوقت، لمقابلـة موكل ثري فيمـا يتعلـق بتوريث ممتلكاته. وكانت كوميكو تحضـر للمستشفى يومياً بين المحاضرات لتعتنـي بوالـدتها، التـي كانـت هنـاك بسـبب قرحـة فـي المعـي الإثنـي عشـري. غالبـاً مـا كانـت كوميكو ترتدي جينزاً أو تنورة قصيرة وسترة، وتعقد شعرها على شكل ذيل الحصان. وترتدي معطفاً أحياناً، وفقاً لطقس بدايات نوفمبر. وكانت لديها حقيبة كتف،ودائماً ما تحمل معها بضعة كتب بدت كنصوص جامعية، بالإضافة إلى دفتر رسم من نوع ما.

في عصر أول يوم ذهبت فيه إلى المستشفى، كانت كوميكو هناك، جالسة على الأريكـة مقاطعـة سـاقيها، تنتعـل حـذاءً أسـوداً مـنخفض الكعبـين، وغارقـة بـين دفتـي كتاب. جلست قبالتها، أنظر إلى ساعتي كل خمس دقائق حتى موعد مقابلتي مع

موكلي، الذي أُخِّر ساعة ونصف لسببٍ مالم يتم إعلامي به. لم ترفع كوميكو عينيها عن الكتاب قط. وكانت ساقاها جميلتان. ساعدني النظر إليها على رفع معنوياتي نوعاً ما. وجدت نفسي أتساءل، كيف هو شعور امتلاك وجه جميل (أو على الأقل في غاية الذكاء) وساقان رائتعان.

بعدما رأينا بعضنا في صالة الانتظار عدة مرات، بدأنا نتجاذب أطراف الأحاديث الصغيرة، وصرنا نتبادل المجلات التي انتهينا من قراءتها، أو نتناول الفواكة من سلة هدايا أحضرها أحدهم لوالدتها. فقد كنا في غاية الملل، وبحاجة إلى محادثة شخص في مثل عمرنا.

شعر كل منا بشيء ناحية الآخر منذ البداية. لم تكن مثل تلك المشاعر القوية المندفعة التي تجتاح شخصين مثل صعقة كهربائية عندما يلتقيان أول مرة، بل كان شيئاً أهدأ وألطف، مثل شعاعين من الضوء يسيران متوازيين عبر ظلام شاسع ويقتربان من بعضهما شيئاً فشيئاً. ومع تكرار لقاءاتنا، لم أشعر بأنني قابلت شخصاً جديداً، بقدر ما شعرت بأنني صادفت صديقاً قديماً عزيزاً.

سرعان ما رغبت في أكثر من المحادثات الصغيرة المتقطعة التي نتبادلها بين أشياء أخرى في المستشفى. ظللت أتمنى مقابلتها في مكان آخر، حتى نتمكن من الحديث مع بعضنا كما ينبغي على سبيل التغيير. وأخيراً، ذات يوم، قررت أن أطلب الخروج معها في موعد.

قلت: «أعتقد أن كلينا بحاجة إلى تغيير الجو، دعينا نخرج من هنا ونذهب إلى مكان آخر، حيث لا يوجد أي مرضى أو موكلين».

فكرت كوميكو بالأمر قليلاً. وقالت: «ماذا عن الحديقة المائية؟». وهكذا كانت الحديقة المائية هي مكان موعدنا الأول. أحضرت كوميكو غيار ملابس صباح ذلك الأحد، والتقينا في صالة الانتظار. كان يوماً دافئاً سماءه صافية. وكانت كوميكو ترتدي فستاناً أبيضاً بسيطاً تحت سترة بلون أزرق شاحب. لطالما كان يذهلني تأنقها حتى في ذلك الوقت. كانت ترتدي ملابس عادية جداً. وتتمكن، بكفة كُم أو ثني ياقة، من تحويلها إلى شيء مدهش. كانت لديها موهبة في ذلك، ولاحظت أنها تعتني بملابسها عناية تتاخم نوعاً من الحب. أجد نفسي، كلما أكون معها، سائراً إلى جانبها، أحدق بإعجاب إلى ملابسها. لم تكن تشوب بلوزاتها أي تجعيدة. وطيّاتها منظمة على نحو مثالي. وكان كل شيء أبيض ترتديه يبدو جديداً تماماً. ولم تكن أحذيتها بالية أو ملطخة قط. بالنظر إلى ما كانت ترتديه، تخيلت أن بلوزاتها وستراتها مطوية بعناية ومرصوفة في خزانتها، وتنوراتها مغلفة ومعلقة. (الأمر الذي اتضح لي أنه صحيح بعدما تزوجنا).

أمضينا عصر ذلك اليوم معاً في الحديقة المائية بحديقة أوينو. كان الجو رائعاً يومئذٍ. اعتقدت أنه قد يكون من الممتع أن نتمشى حول الحديقة نفسها، ولمّحت لكوميكو بهذا كثيراً على متن القطار في طريقنا إلى أوينو، لكن كان من الواضح أنها قد حسمت أمرها في الدخول إلى الحديقة المائية، وبما إن ذلك ما كانت تريده، لم

يكن بوسعي التذمر إطلاقاً. كانت الحديقة المائية تقيم معرضاً خاصاً لقناديل البحر، فطفنا به من بدايته إلى نهايته، نطالع العينات النادرة التي جمعوها من جميع أنحاء العالم. كانت تسبح، مرتعشة، في أحواضها، بجميع الأحجام، من الصغيرة التي تشبه ندفة قطن بحجم عقلة الإصبع إلى تلك العملاقة التي يبلغ قطرها ثلاثة أقدام. لم تكن الحديقة المائية مكتظة نسبياً بالنسبة ليوم أحد. بل تكاد أن تكون خالية. في مثل ذلك اليوم الجميل، لفضّل أي شخص الأفيال والزرافات على قناديل البحر.

كنت أكره قناديل البحر، بالرغم من أنني لم أقل شيئاً لكوميكو عن الأمر. غالباً ما كانت تلسعني عندما كنت أسبح في المحيط في صباي. ذات مرة، عندما كنت أسبح بعيداً وحدي، ألفيت نفسي وسط مجموعة كبيرة منها. وعندما أدركت ورطتي، كنت محاصراً. لن أنسى ما حييت ملمسها البارد اللزج. اجتاحني رعب هائل وسط تلك الدوامة من قناديل البحر، كأنني سُحبت إلى ظلام لا قرار له. لم أُلسع، لسبب ما، لكن في خضم ذُعري، ابتلعت كمية كبيرة من مياه المحيط. لهذا كنت أود تخطي معرض قناديل البحر إذا استطعت، والذهاب لرؤية بعض الأسماك العادية، مثل التونة والسمك المفلطح.

لكن كوميكو كانت مفتونة بقناديل البحر، تتوقف عند كل حوض، متكئةفوق السياج، متسمرة في مكانها كأنها نسيت مرور الوقت. ظلت تقول لي: «انظر إلى هذا، لم أكن أعرف أنه توجد قناديل بمثل هذا اللون الوردي الزاهي. وأنظر إلى

الطريقة الجميلة التي تسبح بها. إنها تتهادى هكذا فحسب حتى تجوب جميع محيطات العالم. أليست رائعة؟»

«بلى، بالطبع».

لكن كلما أرغمت نفسي على مواصلة مشاهدة قناديل البحر معها، ازداد شعوري بالانقباض في صدري. ودون أن أشعر، توقفت عن الرد عليها ورحت أحسب عدد النقود المعدنية في جيبي مراراً وتكراراً، أو أمسح زاويتي فمي بمنديلي. ظللت أتمنى الوصول إلى آخر أحواض قناديل البحر، لكنها كانت بلا نهاية. كان تنوع قناديل البحر التي تسبح في محيطات العالم هائلاً. تمكنت من التحمل نصف ساعة، لكن التوتر كان يحول دماغي إلى هريسة. وأخيراً، عندما لم أعد احتمل الوقوف متكئاً على السياج، ابتعدت عن كوميكو وتهاويت على مقعد مجاور. لحقت بي، قلقة جداً بطبيعة الحال، وسألتني عما إذا لم أكنعلما يرام. أجبت بصراحة أن النظر إلى قناديل البحر يسبب لي الدوار.

حدقت إلى داخل عيني وتعابير قلقة ترتسم على وجهها، وقالت: «صحيح، يمكنني رؤية هذا في عينيك، إنها زائغة قليلاً. أمر لايصدق أن يحدث لك هذا من مجرد النظر إلى قناديل البحر!». أخذت كوميكو بيدي وقادتني إلى خارج الحديقة المائية قاتمة الإضاءة إلى ضوء الشمس.

بعدما جلست في منتزه مجاور وتنفست بعمق وهدوء، تمكنت من العودة إلى حالة نفسية طبيعية. كانت شمس الخريف القوية ترسل أشعتها إلى كل مكان، وأوراق أشجار الجِنْكة تخشخش بنعومة كلما هب عليها نسيم.

سألتني كوميكو بعد مرور بضع دقائق: «هل أنت بخير؟ إنك غريب بلا شك. إذا كنت تكره قناديل البحر لهذه الدرجة، فينبغي لك أن تقول هذا على الفور، بدلاً من الانتظار حتى تصيبك بالغثيان».

كانت السماء عالية وخالية من الغيوم، والرياح تولد شعوراً جميلاً. والناس الذين يمضون يوم الأحد في المنتزه تعلو وجوههم تعابير السعادة. فتاة رشيقة تمشّي كلباً ضخماً طويل الشعر. ورجل مسن يعتمر قبعة مبطنة يشاهد حفيدته على الأرجوحة. عدة أزواج يجلسون على المقاعد، مثلنا. وعلى مبعدة، كان أحدهم يتدرب على بعض النوتات على الساكسفون.

سألتها: «لمَ تحبين قناديل البحر بهذا القدر؟»

«لا أدري. أظن أنها ظريفة ومحببة. لكن شيئاً خطر لي عندما كنت أراقبها بكل حواسي. ما نراه أمامنا لا يعدو جزءاً صغيراً جداً من العالم. اعتدنا على الاعتقاد قائلين لأنفسنا، *هذا هو العالم*، لكن هذ ليس صحيحاً إطلاقاً. العالم الحقيقي في مكان أعمق وأشد ظلاماً من هذا. وتشغل معظمه قناديل البحر وأشياء أخرى. نحن ننسى كل هذا فحسب. ألا تتفق معي؟ ثلثا سطح الأرض تغطيه المحيطات، وكل ما

نراه منها بالعين المجردة هو السطح، الجلد. إننا بالكاد نعرف شيئاً عما تحت الجلد».

سرنا مسافة طويلة بعد ذلك. وعند الخامسة، قالت كوميكو إنها عليها أن تعود إلى المستشفى، فرافقتها. قالت عندما افترقنا: «شكراً لك على هذا اليوم الجميل». كان ثمة توهج خفيف في ابتسامتها لم يكن موجوداً من قبل. وعندما رأيته، أدركت أنني تمكنت من الاقتراب منها قليلاً خلال اليوم، ويعود الفضل في ذلك إلى قناديل البحر.

*

واصلت مواعدة كوميكو. وغادرت والدتها المستشفى دون تعقيدات، ولم أعد مضطراً لقضاء الوقت هناك للعمل على وصية موكلي. كنا نلتقي مرة في الاسبوع لنشاهد فيلماً، أو نرتاد حفلاً موسيقياً، أو نخرج في نزهة. كنت نقترب من بعضنا أكثر كلما التقينا. وكنت استمتع برفقتها، وإذا حدث أن لامسنا بعضنا، أشعر برفرفة في صدري. وكنت أجد صعوبة في العمل عند اقتراب نهاية الأسبوع. كنت متأكد أنها تستلطفني، وإلا لما التقت بي كل نهاية أسبوع.

مع ذلك لم أكن في عجلة لتعميق علاقتي بكوميكو. استشعرت نوعاً من التردد لديها، لم استطع معرفة كنهه تحديداً، لكنه كان يظهر من وقت لآخر في أقوالها أو

أفعالها. أسألها عن شيء، فتتردد للحظة وجيزة قبل أن تجيب، تردد طفيف للغاية. لكن في ذلك الكسر من الثانية، استشعرت وجوداً من نوع ما.

حل الشتاء، ثم السنة الجديدة. استمرينا في اللقاء كل اسبوع. لم أسألها عن ذلك الشيء قط، كما لم تتحدث عنه بكلمة. كنا نلتقي ونذهب إلى مكان ما ونأكل ونتحدث عن أشياء لا أهمية لها.

تجاسرت ذات يوم وقلت: «لا بد أن لديك صديقاً حميماً، أليس كذلك؟»

نظرت كوميكو إليَّ لحظة وسألت: «ما الذي يجعلك تعتقد هذا؟»

قلت: «مجرد حدس». كنا نسير عبر حدائق شينجوكو الإمبراطوية المهجورة عندئذٍ.

«أي نوع من الحدس؟»

«لا أدري. أشعر بأن ثمة ما تودين إخباري به. ينبغي لك أن تخبريني إن أمكنك ذلك».

ارتعشت تعابير وجهها ارتعاشة تكاد لا تلاحظ. مرت عليها لحظة من التردد، لكن لم يكن ثمة شك بشأن ما تعنيه.

قالت: «شكراً على سؤالك، لكن ليس لدي ما أوضحه بالحديث عنه».

«لم تجيبي عن سؤالي».

«بشأن ما إذا كان لدي صديق حميم؟»

«نعم».

صمتت كوميكو، ثم نزعت قفازيها ووضعتهما في جيب معطفها، وأمسكت بيدي العارية. كانت يدها دافئة وناعمة، وعندما ضغطتُ على يدها، بدا لي أن أنفاسها صارت أقصر وأكثر بياضاً.

سألتني: «أيمكننا الذهاب إلى شقتك الآن؟»

«بالطبع». قلت متفاجئاً قليلاً. «مع إنها ليست بالمكان الرائع».

كنت أعيش في أساغايا في ذلك الوقت، في شقة تتكون من غرفة واحدة ومطبخ صغير وحمام بحجم كشك هاتف. تقع على الطابق الثاني ناحية الجنوب، وتطل على ساحة تخزين شركة بناء. كانت تلك الواجهة الجنوبية هي حسنة الشقة الوحيدة. جلست بالقرب من كوميكو مدة طويلة، تحت فيض ضوء الشمس، متكئين على الجدار.

مارست معها الحب أول مرة في ذلك اليوم. وهو ما أرادته، كنت متأكداً من ذلك. بطريقة ما، كانت هي التي أغوتني. لم يكن الأمر أنها فعلت أو قالت أشياء مغوية، لكن عندما أحطت جسدها العاري بذراعي، عرفت على وجه التأكيد أنها أرادتحدوث ذلك. كان جسدها رقيقاً ومطاوعاً.

كانت تجربة كوميكو الجنسية الأولى. لم تقل شيئاً بعدما فرغنا لوقت طويل. حاولت التحدث معها عدة مرات، لكنها لم تتجاوب معي. استحمت وارتدت ملابسها، وجلست تحت ضوء الشمس مجدداً. لم تكن لدي أدنى فكرة عما ينبغي لي قوله لها. انضممت إليها تحت أشعة الشمس فحسب، دون أن أقول شيئاً. وعندما حل المساء، قالت كوميكو أنها تود المغادرة، فرافقتها إلى منزلها.

سألتها مجدداً على متن القطار:«هل أنت متأكدة أنه لا يوجد ما تريدين إخباري به؟»

هزت رأسها وغمغمت: «لا تشغل بالك بهذا».

لم أثر الموضوع مجدداً قط. اختارت كوميكو أن تنام معي برغبتها المحضة، أخيراً، وإذا كانت بالفعل تخفي عني شيئاً لم تكن قادرة على إخباري به، فسوف يُحَل الأمر بمرور الوقت على الأرجح.

واصلنا مواعيدنا الأسبوعية بعد ذلك، التي أصبح جزء منها غالباً ما يتضمن المرور بشقتي لنقيم علاقة، ومع عناقنا وملامستنا المستمرة لبعضنا، بدأت تتحدث عن نفسها أكثر فأكثر عن تجارب مرت بها، وعن الأفكار والمشاعر التي أثارتها هذه التجارب. وبدأت أفهم العالم كما تراه كوميكو. كما وجدت نفسي أكثر قدرةً على

الحديث مع كوميكو عن العالم كما أراه. أحببتها بشغف. وقالت إنها لن تتركني أبداً. انتظرنا حتى تخرجها في الجامعة، ثم تزوجنا.

كنا سعداء بحياتنا الزوجية، ولم تكن لدينا مشاكل تُذكر. ومع ذلك كانت هناك لحظات استشعر فيها أن ثمة جوانب في دواخل كوميكو غير قادر على سبر أغوارها.

أثناء أي حوار، سواء كان عادياً أو مشوقاً، كانت تغرق في الصمت، دون أي سابق إنذار. يحدث ذلك فجأة، ودون أي سبب إطلاقاً(أو على الأقل دون سبب يمكنني إدراكه). كان الأمر مثل السير في طريق والسقوط في حفرة فجأة. لم يكن صمتها يدوم طويلاً، لكن بعد ذلك، حتى يمر بعض الوقت، تكون كما لو أنها ليست معي حقاً.

عندما ولجت كوميكو أول مرة، استشعرت نوعاً غريباً من التردد، كان ينبغي ألا تشعر سوى بشيء من الألم في مرتها الأولى تلك، وفي الواقع كان جسدها متصلباً بسبب الألم الذي كان من الواضح أنها تشعر به، لكنني شعرت أن ذلك لم يكن سبب التردد الوحيد. كان ثمة شيء واضح علىنحو غريب، شعور بالانفصال، والبُعد، لم أعرف بمَ أسميه تحديداً. تملكتني فكرة غريبة وهي أن ذلك الجسد الذي كنت أحيطه بذراعيّ لم يكن جسد المرأة التي كانت بجواري قبل لحظات، كنا منخرطين في حوار حميم، ثم ضُغط على زر دون ملاحظتي فحلّ جسد امرأة أخرى محل جسدها. وأنا

احتضنها، تستمر يداي بمداعبة ظهرها. كان لملسظهرها الصغير تأثير أشبه بتأثير التنويم المغناطيسي عليّ. ومع ذلك، في الوقت ذاته، بدا لي ظهر كوميكو في مكان ما بعيد عني كل البعد. طوال الوقت الذي كانت فيه بين ذراعي، كدت أقسم أن كوميكو في مكان آخر، تفكر بشيء آخر، وأن الجسد الذي احتضنه لم يكن سوى بديل مؤقت.

ربما كان هذا هو سبب استغراقي وقتاً طويلاً لأصل إلى ذروتي، رغم أنني كنت في كامل استثارتي.

لم يراودني هذا الشعور سوى في المرة الأولى التي أقمنا فيها علاقة حميمة. وبعد ذلك، شعرت بأنها أقرب لي، وصار تجاوبها الجسدي أكثر حساسية، واقنعت نفسي بأن شعوري الأول ببُعدها عني مردّه إلى أنها كانت تجربتها الأولى.

*

كنت أمد يدي، بين الفينة والأخرى، وأنا أنقِّب في ذكرياتي، إلى مكان سلم الحبال المتدلي ملاصقاً للجدار وأجذبه لأتيقن من أنه لم ينحل. بدا أنني لم يكن بمستطاعي التخلص من الخوف من أنه سينحل ببساطة في أي لحظة. كانت الفكرة تثير أعصابي كلما داهمتني، وأنا في لُجّة الظلمات تلك. وكنت أسمع خفقات قلبي. وبعدما تحققت عدداً من المرات، ربما عشرون أو ثلاثون مرة، بدأت أستعيد شيئاً من الهدوء. ربطت السلم بالشجرة ربطاً محكماً، رغم كل شيء. ولن ينحل هكذا ببساطة.

نظرت إلى ساعتي، فكانت العقارب المضيئة تشير إلى أنها قبل الثالثة بقليل، الثالثة مساء. رفعت بصري. كانت شريحة الضوء التي على شكل نصف قمر ماتزال في مكانها. كان سطح الأرض مغموراً بضوء الصيف الباهر. تخيلت لنفسي مجرىً مائياً تلتمع مويجاته تحت ضوء الشمس، وأوراق شجر ترتعش مع النسيم. كان الضوء بالأعلى يغمر كل شيء. ومع ذلك،يسود الظلام أسفله مباشرة. كل ما على المرء فعله للوصول إلى ظلام بهذه الكثافة، هو أن يهبط قليلاً تحت الأرض على سلم من الحبال.

جذبت السلم مرة أخرى لأتأكد من إحكامه. ثم أسندت رأسي إلى الجدار وأغمضت عيني. وفي النهاية، ابتلعني النوم، كالمدّ الذي يرتفع تدريجياً.

7

ذكريات وحوار عن الحَمْل

*

تحقيق تجريبي عن الألم

*

عندما استيقظت، وجدت فوهة البئر التي على شكل نصف قمر قد اتخذت لون المساء الأزرق الغامق. وكانت عقارب ساعتي تشير إلى السابعة والنصف. مما يعني أنني كنت نائماً أربع ساعات ونصف.

شعرت ببرودة في هواء قاع البئر. ربما كنت أكثر استثارة من التفكير بدرجة حرارة الهواء عندما هبطت سابقاً. لكن عندها، كان جسدي يتفاعل مع برودة الهواء. أدركت، وأنا أفرك ذراعي المكشوفتين لتدفئتهما، أنه كان ينبغي أن أجلب شيئاً في حقيبتي لأرتديه فوق التيشيرت. لم يخطر ببالي قط أن درجة قاع البئر قد تكون مختلفة عن درجة حرارة السطح.

كنت غارقاً فيظلام تام. ولم تكن عيناي تريان شيئاً مهما جاهدت. لم أكن أعرف مكان يدي. تحسست الجدار حيث كان السلم وجذبته. فوجدته ما يزال مربوطاً

بالسطح ربطاً محكماً. بدا لي أن حركة يديّ تسبب تحرك الظلام، لكن من الممكن أن يكون هذا وهماً.

راودني شعور في غاية الغرابة بسبب عدم مقدرتي على رؤية جسدي بعينيّ، مع إنني أعرف أنه موجود. وأنا جالس بسكون في الظلام، بدأ اقتناعي بحقيقة وجودي في الواقع يتضاءل شيئاً فشيئاً.

وللتعامل مع ذلك، كنت أتنحنح بين الفينة والأخرى، أو أمرر يدي على وجهي. بهذه الطريقة، تتحقق أذناي من وجود صوتي، وتتحقق يدي من وجود وجهي، ويتحقق خدي من وجود يدي.

بدأ جسدي، بالرغم من هذه المجهودات، يفقد كثافته ووزنه، مثل رمال يجرفها تيار مائي تدريجياً. شعرت كما لو أن حرباً صامتة عنيفة تدور رحاها بداخلي. منافسة كان عقلي يحاول فيها أن يسحب جسدي ببطء إلى منطقته الخاصة. كان الظلام يربك التوازن الصحيح بين الاثنين. داهمتني فكرة أن جسدي مجرد قشرة مؤقتة أُعدت لعقلي بترتيب العلامات التي تعرف بالكروموسومات. وإذا أُعيد ترتيب العلامات مرة أخرى، لوجدت نفسي داخل جسد مختلف تماماً. «عاهرة ذهنية»، هذا ما أطلقته كريتا كانو على نفسها. لم تعد لدي مشكلة في تقبل العبارة. أجل، كان من الممكن لنا أن نقيم علاقة في ذهنينا وأن أقذف أنا في الواقع. في مثل ذلك الظلام العميق، جميع أنواع الأشياء الغريبة ممكنة.

هـززت رأسـي وجاهـدت لأعيـد عقلـي إلـى داخـل جسـدي. فـي ذلـك الظـلام، ضـغطت أطـراف أصـابع يـديّ مـع بعضـها، الإبهـام علـى الإبهـام، والسـبابة علـى السبابة. تحققت أصابع يدي اليمنى من وجود أصابع يدي اليسرى، وتحققت أصابع يسراي من وجود أصابع يمناي. ثم أخذت عدة أنفاس عميقة بطيئة. حسناً، دعك عن التفكير عن العقل، فكر في الواقع. قررت أن أفضل طريقة للتفكير في الواقع هي بالابتعاد عنه بقدر الإمكان، على سبيل المثال، إلى مكان مثل قاع بئر. قال السيد هونـدا: «عنـدما يفتـرض بـك أن تـهبط للأسـفل، جـد أعمـق بئـر وانـزل إلـى قاعهـا». أخذت أمتص الهواء الرطب إلى رئتي ببطء، متكئاً على الجدار.

*

لم نُقم مراسم زواج، لأننا لما استطعنا تحمل تكاليفها ابتداءً، ولم يرغب أي منا في أن يكون مديناً بالفضل لوالديه. كان بدء حياتنا معاً، بأي طريقة يمكننا تدبرها، أهم بالنسبة لنا من مراسم الزواج. ذهبنا إلى مكتب المقاطعة صباح يوم أحد، وأيقظنا الموظف المنـاوب، وسلمنا أوراق تسجيل زواجنـا. ولاحقاً، ذهبنـا إلـى مطعم فرنسـي فخيم لا يستطيع أي منا تحمل تكاليفه عادةً، وطلبنا قنينـة من النبيذ، وتناولنا وجبة عشاء كاملة، وكان ذلك كافياً لنا.

لم تكن لـدينا أي مـدخرات وقـت زواجنـا (تركـت أمـي لـي قليلاً من المال عندما ماتت، لكنني قررت ألا أقربه مطلقاً إلا في حالـة طارئـة)، أو أي أثاث، أو مستقبل

أيضاً. وأنا أعمل في شركة محاماة دون أن تكون لديّ أوراق محامي معتمدة، لم يكن أمامي ما أتطلع إليه. وكانت كوميكو تعمل لدى ناشر صغير ومغمور. كان بإمكانها الحصول على عمل أفضل بكثير بعد تخرجهاعن طريق والدها إذا رغبت، لكنها لم تحبذ فكرة اللجوء إليه،وفضلت العثور على عمل وحدها. رغم ذلك، لم يكن أياً منا ساخطاً. كنا سعيدين لمجرد تمكننا من تدبر أمرنا دون تدخل من أي أحد.

لم يكن سهلاً علينا الاثنين أن نبني حياتنا من العدم. كنت أميل للعزلة الشائعة بين الأطفال وحيدي أبويهم. عندما أحاول أن أنجز شيئاً جاداً، أود إنجازه وحدي. بدا لي أن استشارة الآخرين وحملهم على الفهم مضيعة للوقت والجهد. بينما من الأسهل بكثير أن أعمل وحدي في صمت. أما كوميكو، بعدما فقدت شقيقتها، أغلقت قلبها عن أسرتها ونشأت كأنها وحيدة. ولم تكن تقصدهم طلباً للنصح قط. من هذه الناحية، كنا متشابهين كثيراً.

مع ذلك تعلم كلانا، شيئاً فشيئاً، أن يكرس جسده وعقله لذلك الكيان الجديد الذي نسميه «منزلنا». كنا نتدرب على الشعور والتفكير بالأشياء معاً. سعينا للتعامل مع الأشياء التي حدثت لواحد منا باعتبارها شيئاً يخصنا نحن الاثنين.

كان الأمر ينجح أحياناً، ولا ينجح في أحيان أخرى. لكننا استمتعنا بتجربة المحاولة والخطأ الجديدة. وحتى الصدامات العنيفة كنا ننسى أمرها ونحن بين ذراعي بعضنا.

*

أصبحت كوميكو حبلى في السنة الثالثة من زواجنا. كانت صدمة بالغة لنا، أو لي أنا على الأقل، نظراً لعنايتنا المفرطة بوسائل منع الحمل. لا بد أن لحظة من الإهمال هي السبب. ليس وكأننا كنا قادرين على تحديد تلك اللحظة، لكن لم يكن ثمة تفسير آخر. مهما يكن، فنحن لم يكن بمقدورنا تحمل نفقات طفل. كانت كوميكو قد دخلت دوامة عملها في مجال النشر لتوها، وترغب في الحفاظ عليه إذا أمكن. الشركات الصغيرة التي مثل شركتها لا تقدم امتيازات كبيرة مثل إجازة أمومة. أي امرأة تعمل لديهم وتريد أن تنجب طفلاً ليس أمامها خيار سوى ترك العمل. وإن فعلت كوميكو ذلك، لكان علينا أن نعيش على راتبي وحده، لفترة على الأقل، وهو أمر مستحيل عملياً.

«أعتقد أننا علينا أن نفوّت هذه المرة». قالت لي كوميكو بصوت رتيب يوم أخبرنا الطبيب بالأمر.

كانت محقة على الأرجح. كيفما نظرت للأمر، كان ذلك هو القرار الأكثر عقلانية. كنا شابين وغير مستعدين إطلاقاً للأبوة. كلانا بحاجة إلى وقت لأنفسنا. كانت أولويتنا الأولى هي تأسيس حياتنا الخاصة بنا. وأمامنا فرص عديدة لإنجاب الأطفال في المستقبل.

*

بيد أنني في الواقع لم أكن أرغب في أن تجهض كوميكو. ذات مرة، في سنتي الثانية في الجامعة، جعلت فتاة حُبلى. كانت فتاة قابلتها حيث كنت أعمل بدوام جزئي. كانت لطيفة، تصغرني بعام، وكنا منسجمين. أعجب بعضنا ببعض، بطبيعة الحال، لكننا لم نكن جادين بشأن علاقتنا، ولم يكن هناك أي احتمال لذلك في المستقبل. كنا مجرد شابين وحيدين بحاجة إلى شخص لنحتضنه.

لم يكن ثمة شك بشأن سبب حملها. دائماً ما كنت استخدم واقياً، لكن في ذلك اليوم، نسيت أن أحضر واحداً معي. كانت قد نفدت مني. وعندما أخبرتها بذلك، ترددت بضع ثوان ثم قالت: «آه، حسناً، أعتقد أنه لا بأس بذلك اليوم». مرة واحدة هي كل ما تطلبه الأمر.

لم أستطع تصديق أنني قد ‘جعلت فتاة حبلى’. لكنني كنت أعرف أن الإجهاض هو المخرج الوحيد. جمعت كل ما لدي من نقود واصطحبتها إلى العيادة. استقللنا قطاراً إلى بلدة بعيدة في شيبا، حيث أوصتها إحدى صديقاتها بطبيب. غادرنا القطار في محطة لم أسمع بها من قبل، ورأيت آلاف المنازل الصغيرة، جميعها مشيدة على نفس الطراز، مكتظة معاً وتمتد فوق التلال إلى الأفق. كانت مشاريع جديدة كبيرة ازدهرت في السنوات الأخيرة من أجل موظفي الشركات الشباب الذين لا يستطيعون تحمل تكلفة السكن في طوكيو. المحطة نفسها جديدة وتقابلها حقول أرز شاسعة مغمورة بالمياه، أكبر من أي شيء رأيته. وكانت الشوارع تحفّها لافتات مكاتب العقارات.

وجدنا صالة انتظار العيادة تعج بنساء شابات ذوات بطون منتفخة، لا بد أن معظمهن في السنة الرابعة أو الخامسة من زواجهن ويستقرون أخيراً لإنجاب الأطفال في منازل الضواحي التي أخذوا رهنها العقاري حديثاً. كنت الشاب الوحيد في المكان. وكانت السيدات الحوامل ينظرن إليَّ شزراً. كان بإمكان أي شخص أن يعرف، بنظرة واحدة، أنني شاب جامعي جعل فتاته حبلى دون قصد وجاء معها للإجهاض.

بعد العملية، استقللنا القطار عائدين إلى طوكيو. دخلنا المدينة في العصر المتأخر، وكان القطار خالياً تقريباً. اعتذرت لها، وقلت إن اهمالي هو ما أوقعنا في هذه المتاعب. قالت: «لا تقسُ على نفسك، على الأقل رافقتني إلى العيادة، ودفعتَ تكاليف العملية».

سرعان ما توقفنا عن رؤية بعضنا بعد ذلك، لذا ليست لديّ أخبار عنها. لكن مشاعري اضطربت لمدة طويلة بعد الإجهاض، حتى بعد افتراقنا. في كل مرة أتذكر فيها ذلك اليوم، تبرق في ذهني صورة النساء الحوامل اللاتي كانت صالة الانتظار تضيق بهن، وأعينهن التي تفيض بالثقة، ويخطر لي أنني ما كان ينبغي أن أقترف ذلك الخطأ.

في طريق عودتنا على متن القطار، أخبرتني، محاولةً مواساتي – مواساتي أنا– بكل التفاصيل التي جعلت العملية سهلة للغاية. قالت: «الأمر ليس سيئاً كما تعتقد، لا يستغرق وقتاً طويلاً، ولا يؤلم. تنزع ملابسك فحسب، وتتمد. نعم، أعتقد أنه أمر

محرج نوعاً ما، لكن الطبيب كان لطيفاً، وكذلك الممرضات. ألقوا على محاضرة صغيرة، بطبيعة الحال، وقُلن إن علي أن أكون أكثر حذراً من الآن فصاعداً. لذلك لا تشعر بالذنب. إنني أيضاً شريكتك في الخطأ، أنا التي قلت إنه لا بأس. صحيح؟ ابتهج».

لكن طوال رحلة القطار الطويلة إلى البلدة الصغيرة في شيبا، وطوال رحلة العودة، شعرت بأنني غدوت شخصاً مختلفاً. بعدما أوصلتها إلى منزلها وعدت إلى غرفتي وتمددت على الفراش ناظراً إلى السقف، كان بإمكاني استشعار التغيير. كنت شخصاً جديداً، ولم يعد بمستطاعي العودة إلى الشخص الذي كنته. ما كان يزعجني هو وعيي بأنني لم أعد بريئاً. لم يكن هذا حساً أخلاقياً أو وخز ضمير. كنت أعرف أنني ارتكبت خطأً فادحاً، لكنني لم أكن أعاقب نفسي بسببه. كان حقيقة ملموسة عليّ مواجهتها بمنطق ورباطة جأش، بعيداً عن مسألة العقاب.

*

أول ما خطر لي عندما سمعت أن كوميكو حامل هو صورة أولئك النساء الشابات الحوامل اللاتي تغص بهن صالة انتظار العيادة. أو بالأحرى، الرائحة المميزة التي بدا أنها عالقة في الهواء هناك. لم تكن لدي فكرة عن ماهية تلك الرائحة، هذا إذا كانت رائحة شيء بالفعل. ربما كانت شيئاً *أشبه* برائحة. عندما نادت الممرضة اسمها، نهضت الفتاة ببطء من مقعد الفينيل الصلب، وسارت إلى الباب

مباشرة. وقبيل نهوضها، ألقت ناحيتي نظرة يرافقها شبح ابتسامة على شفتيها، أو ما تبقى من ابتسامة غيرت رأيها بشأنها.

كنت أعرف أن إنجابنا الطفل أمر غير واقعي، لكنني لم أرغب في أن تجهض كوميكو أيضاً. عندما قلت لها هذا، أجابت: «لقد خضنا في هذا الحديث من قبل. إذا أنجبت طفلاً الآن، فسيضع إنجابي حداً لعملي، وسيتعين عليك العثور على عمل براتب أفضل لإعالتنا. ولن يكون لدينا مال لأي شيء إضافي. ولن نتمكن من فعل أي شيء نود فعله. وسوف تتقلص الاحتمالات الواقعية أمامنا إلى لا شيء. أيمكنك التعايش مع هذا؟»

قلت: «نعم، أعتقد أنني يمكنني التعايش مع هذا».

«حقاً؟»

«إذا عقدت عزمي على الأمر، يمكنني أن أجد عملاً مع خالي على الأرجح، في حال حاجته إلى مساعدة. إنه يريد أن يفتتح مطعماً جديداً، لكنه لم يجد الشخص الذي يأتمنه على إدارته. أنا متأكد من أنني أستطيع أن أجني مالاً أكثر بكثير مما أجنيه الآن. إنها ليست شركة محاماة، لكن ماذا في ذلك؟ لست مولعاً بعملي الحالي».

«سوف تدير مطعماً إذاً؟»

«أنا واثق أنني يمكنني ذلك إذا حاولت. وإذا طرأ طارئ، فلديّ قليل من المال الذي تركته لي أمي. لن نتضور جوعاً حتى الموت».

ظلت كوميكو صامتة، تفكر، مدة طويلة، وظهرت التجاعيد الصغيرة عند زاويتي عينيها. كانت لديها هذ التعبيرات الصغيرة التي أحبها. ثم سألتني: «أيعني هذا أنك تريدنا أن ننجب طفلاً؟»

«لا أدري، أعرف أنك حامل، لكن لم يخطر لي أني قد أصبح أباً. ولا أعرف كيف ستتغير حياتك إذا أنجبنا طفلاً. إنك تحبين عملك، ويبدو من الخطأ حرمانك منه. من ناحية، أعتقد أن كلينا بحاجة إلى إمضاء المزيد من الوقت معاً، لكنني أعتقد أيضاً أن إنجاب طفل سوف يوسع عالمنا. لا أعرف ما هو الأمر الصحيح. كل ما في الأمر هو أنني لدي شعور بأنني لا أريدك أن تجهضي. لذلك لا أستطيع تقديم أي ضمانات. لست متأكداً بنسبة مئة بالمئة بشأن أياً من هذا. وليست لدي أي حلول سحرية. كل ما لدي هو هذا الشعور».

فكرت كوميكو قليلاً بما قلته وهي تمسح بطنها من حين لآخر. وقالت: «قل لي، لماذا تعتقد أنني حبلت؟ ألا يخطر ببالك شيء؟»

هززت رأسي «لا، لطالما كنا حذرين. هذه هي نوعية المتاعب التي كنت أسعى لتفاديها. لذلك ليست لدي أدني فكرة».

«أتعتقد أنني ربما أقمت علاقة مع أحدهم؟ ألم تفكر بهذا الاحتمال؟»

«مطلقاً».

«لم لا؟»

«لا أدري. لا أزعم أن لدي حاسة سادسة أو ماشابه لكني موقن من هذا».

كنا جالسين إلى طاولة المطبخ، نشرب النبيذ، في وقت متأخر من الليل وكل شيء غارق في الصمت. ضيقت كوميكو عينيها ونظرت إلى ثمالة النبيذ في قعر كأسها. لم تكن تشرب الكحول كثيراً، إلا أنها كانت تتناول كأساً من النبيذ عندما لا تتمكن من النوم، ودائماً ما كان ذلك ينجح معها. كنت أشرب للبقاء بصحبتها فحسب. لم يكن لدينا شيئاً متكلفاً مثل كؤوس نبيذ حقيقية، بل كنا نشرب من كؤوس جعة صغيرة حصلنا عليها مجاناً من متجر المشروبات الكحولية في الحي.

«هل أقمتِ علاقة مع أحدهم؟» سألتها شاعراً بالقلق فجأة.

ابتسمت كوميكو وهزت رأسها «لا تكن سخيفاً إنك تعرف إنني ما كنت لأفعل شيئاً كهذا. ذكرت الأمر باعتباره احتمالاً نظرياً».

ثم عَلَت أمارات الجد محيّاها وأسندت مرفقيها على الطاولة «لكن في بعض الأحيان، لا يمكنني الجزم بشأن أشياء معينة. لا يمكنني تمييز أيها حقيقي وأيها غير حقيقي.. ماهي الأشياء التي حدثت حقاً وما التي لم تحدث حقاً.. لكن في *بعضالأحيان* فحسب».

«هل هذه المرة إحدي تلك *الأحيان*؟»

«حسناً، إلى حدٍ ما. ألا تحدث لك مثل هذه الأشياء؟»

فكرت بذلك للحظة، وقلت: «لا، ليس ثمة ما يمكنني تذكره كمثال ملموس».

«كيف يمكنني أن أعبر عن هذا؟ ثمة فجوة من نوع ما بين ما أعتقد أنه حقيقي وما هو غير حقيقي. أشعر بأن هناك نوعاً من شيء أو آخر، في مكان ما بداخلي.. مثل لص في المنزل، مختبئ في الخزانة.. وهذا الشيء يخرج بين الفينة والأخرى، ويعبث بأي نظام أو منطق وضعته لنفسي بالطريقة التي يتسبب بها مغناطيس في فقدان آلة لصوابها».

قلت: «نوعاً من شيء آو لآخر؟ لص؟ عظيم، حدثيني عن الغموض ولا حرج!».

«ما أقوله غامض بالفعل». قالت كوميكو ثم شربت ثمالة كأسها.

نظرت إليها قليلاً: «وتعتقدين أن ثمة علاقة ما بين هذا الـ 'نوع من شيء أو آخر'، وحقيقة أنك حامل؟»

هزت رأسها «لا. لا أقول إن الأمرين متصلين أو غير متصلين. كل مافي الأمر إنني أحياناً لا أكون متأكدة من نظام الأشياء. هذا كل ما أحاول قوله».

كان ثمة شيء من نفاد صبر في كلماتها.وقد حان الوقت لإنهاء ذلك الحوار. وكانت الساعة الواحدة صباحاً.

مددت يدي عبر الطاولة وأمسكت يدها.

قالت: «أتعرف، أتمنى أن تتركني أقرر بشأن هذا الأمر بنفسي. أدرك أنها مشكلة كبيرة لنا الاثنان. أدرك هذا حقاً. لكنني أريدك أن تدعني أقرر هذه المرة. تضايقني عدم مقدرتي على تفسير ما أفكر وأشعر به تفسيراً واضحاً».

«أعتقد أنه من حقك اتخاذ القرار أساساً، وأنا أحترم هذا الحق».

«أظن أن أمامنا شهر أو نحوه لنقرر. كنا نتحدث عن هذا الأمر منذ مدة، وأعتقد أن لدي فكرة جيدة عن شعورك حياله. لذلك دعني أفكر الآن،ولنكف عن الحديث عن الموضوع بعض الوقت».

*

كنت في هوكايدو عندما أجرت كوميكو عملية الإجهاض. لا ترسل الشركة موظفيها في مهام عمل خارج المدينة مطلقاً، لكن لم يكن هناك أحد للقيام بتلك المهمة، لذلك انتهى بي المطاف في الشمال. كان المطلوب مني توصيل حقيبة مكدسة بالأوراق، وتقديمتفسير بسيط للطرف الآخر واستلام ما لديهم من أوراق والعودة مباشرة. كانت الأوراق أهم من أن تُرسل بالبريد أو ائتمان ساعي عليها.

اضطررت لقضاء ليلة في فندق بسابورو لعدم توفر رحلات طيران للعودة إلى طوكيو. ذهبت كوميكو للإجهاض في ذلك اليوم وحدها. اتصلت بي في الفندق بعد العاشرة. وقالت: «أجريت العملية عصر اليوم. آسفة لإخبارك هكذا بعدما تم كل شيء، لكن لم يكن أمامي متسع من الوقت، واعتقدت أنه سيكون أسهل علينا إذا اتخذت القرار وتوليت الأمر أثناء غيابك».

قلت: «لا تقلقي، أياً كان ما تعتقدين أنه هو الأفضل».

«أريد أن أخبرك المزيد، لكن ليس الآن. سأخبرك في وقت ما».

«يمكننا الحديث عندما أعود».

بعد المكالمة، ارتديت معطفي وخرجت متجولاً في شوارع سابورو. كان الوقت مايزال في بداية مارس، وتتراكم كثبان الثلج على جانبي الطريق. كان الهواء بارداً لدرجة تكاد تكون مؤلمة، وتخرج الأنفاس على شكل سحب بيضاء صغيرة وسرعان ما تتلاشى. والناس يرتدون معاطف ثقيلة وقفازات وأوشحة ويشقون طريقهم عبر الرصيف المغطى بالثلج بخطوات حذرة. وتهرع سيارات الأجرة جيئةً وذهاباً وهي تنهش الطريق بإطاراتها المزودة بسلاسل. عندما لم أستطع تحمل البرد، دلفت إلى حانة وتجرعت بضعة كؤوس سريعاً وخرجت لأواصل المشي.

ظللت أمشي مدة طويلة، وكان الثلج يتساقط من حين لآخر. لكنه كان ثلجاً واهياً، مثل ذكرى تتلاشى في الأفق. الحانة الثانية التي زرتها كانت تحت مستوى

الشارع. اتضح لي أنه مكان أكبر بكثير مما يوحي به المدخل. وبه مسرح صغير بالقرب من المشرب، يعتليه رجل نحيل يضع نظارات، يعزف على جيتار ويغني. يجلس على كرسي معدني مقاطعاً ساقيه، وحقيبة الجيتار عند قدميه.

جلست عند المشرب، أشرب، وأستمع إلى الموسيقى بنصف انتباه. وبين الأغاني، كان الرجل يوضح أن الأغاني كلها من تأليفه. كان في نهاية العشرينات من عمره، وليس لديه ملامح تميز وجهه، ويضع نظارة بإطار بلاستيكي أسود. ويرتدي سروال جينز، وحذاءً طويل العنق بأربطة، وقميص عليه نقش مربعات يتدلى حول خصره. لكن من الصعب تحديد نوع الموسيقى، ربما كان يُطلق عليها «شعبية» في الماضي، مع إنها كانت نسخة يابانية منها. نغمات بسيطة وألحان بسيطة، وكلمات عادية. ليست من النوع الذي أفعل كل ما بوسعي لأستمع إليه.

عادةً ما كنت لأولي أي اهتمام لموسيقى كتلك. كنت لأشرب الويسكي الذي أمامي، وأدفع الحساب، وأغادر المكان. لكن في تلك الليلة، كان البرد يتغلغل إلى عظامي، ولم تكن لدي نية الخروج مجدداً تحت أي ظرف حتى أشعر بالدفء التام. شربت كأساً وطلبت أخرى. لم أحاول نزع معطفي أو وشاحي. وعندما سألتني الساقية عما إذا كنت أود وجبة خفيفة، طلبت بعض الجبن، وتناولت شريحة واحدة. حاولت التفكير، لكنني لم أستطع حمل رأسي على أداء مهامه كما ينبغي. حتى إنني لم أكن أعرف ما أريد التفكير به. كنت عبارة عن غرفة خالية. ولم تترك الموسيقى بداخلي سوى صدىً جافاً.

عندما أنهى الرجل غناءه، كان ثمة تصفيق هنا وهناك. لم يكن تصفيقاً حاراً، كما لم يكن فاتراً تماماً. لم يكن هناك أكثر من عشرة أو خمسة عشر زبوناً. نهض الرجل وانحنى.وبدا أنه يبديبعض الملاحظات الطريفة التي جعلت بعض الزبائن يضحكون. استدعيت الساقية وطلبت كأس الويسكي الثالثة. ثم نزعت معطفي ووشاحي أخيراً.

أعلن المغني: «هذه نهاية عرض الليلة». ثم صمت وجال في المكان بناظريه «لكن لا بد أن بعضاً منكم لم تعجبهم الأغاني التي غنيتها. لذا أعددت لهؤلاء شيئاً إضافياً صغيراً. لا أفعل هذا دائماً، لذلك ينبغي أن تعتبروا أنفسكم محظوظين».

وضع جيتاره على الأرض وأخرج شمعة بيضاء سميكة من حقيبة الجيتار، وأشعلها بعود ثقاب. ثم أسال بعض الشمع على طبق، وثبت عليه الشمعة. ثم رفع الطبق، هو يبدو كفيلسوف يوناني، وقال: «أيمكنكم تخفيض الإضاءة من فضلكم؟» عتّم أحد الموظفين الإضاءة قليلاً. «أكثر قليلاً، إن لم تكن تمانع». فصار المكان أكثر عتمة، وظهرت شعلة الشمعة بوضوح. ثبّتُّ نظراتي على الرجل وشمعته، ممسكاً بكأس الويسكي براحتَي يدي لتدفئته.

«كما تدركون جميعاً». تابع الرجل بصوت ناعم لكن مسموع، «نختبر جميع أنواع الألم خلال حياتنا. آلام الجسد وآلام القلب. أعرف أنني اختبرت الألم بعدة ألوان في حياتي، ومما لاشك فيه أنكم اختبرتموه أيضاً. لكن في معظم الحالات، أنا

متأكد أنكم واجهتم صعوبات جمّة في إيصال حقيقة ذلك الألم لشخص آخر، أي أن تشرحوه بالكلمات. يقول الناس إن المرء وحده يمكنه فهم الألم الذي يشعر به. لكن هل هذا صحيح؟ أنا عن نفسي لا أعتقد أن هذا صحيح. إذا رأينا أحدهم يعاني أمام أعيننا، أحياناً نشعر بألمه ومعاناته كأنها آلامنا ومعاناتنا. هذه هي قوة التقمص العاطفي. هل أعبر عن نفسي تعبيراً واضحاً؟»

صمت ومسح المكان بعينيه مجدداً.

ثم تابع: «السبب الذي يغني الناس من أجله هو أنهم يريدون امتلاك المقدرة على إثارة التقمص العاطفي، لكسر قوقعة الذات الضيقة ومشاركة آلامهم وبهجتهم مع الآخرين. وهذا ليس بالأمر السهل بطبيعة الحال. لذلك أريدكم الليلة، على سبيل التجربة، أن تختبروا نوعاً جسدياً بسيطاً من التقمص العاطفي».

لزم الجميع الصمت، وتعلقت كل الأنظار بالمسرح. في ذلك الصمت، حدق الرجل ببصره في اللاشيء، كما لو أنه يريد أن يتأنى أو يبلغ حالة من التركيز العقلي. ومن ثم، دون أي كلمة، رفع يده اليسرى فوق الشمعة المشتعلة. وشيئاً فشيئاً، قرّب راحة يده من الشعلة. أصدر أحد الحضور صوتاً كتنهيدة أو تأوه. رأينا الشعلة تحرق راحة يد الرجل، وسمعنا هسيس اللحم وهو يحترق. أطلقت امرأة صرخة قوية معبرة. ظل الجميع يشاهدون وهم متسمّرين في أماكنهم من الرعب. تحمل الرجل الألم، وقد تقلص وجهه. ما كان ذلك بحق الجحيم؟ لماذا كان عليه أن يفعل شيئاً

غبياً كذلك؟ شعرت بفمي يجف. بعد خمس أو ست ثوان، أبعد يده عن الشعلة ببطء، ووضع الطبق وعليه الشمعة على الأرض. ثم شبك يديه معاً ضاغطاً إياهما بشدّة.

قال الرجل: «سيداتي.. سادتي، كما رأيتم الليلة، يمكن للنار أن تحرق لحم الشخص بالفعل». كان صوته مثلما كان في السابق تماماً، هادئ وثابت. ما من أثر للمعاناة على وجهه، وحلّت محلها ابتسامة باهتة. ولا بد أنكم شعرتم بالألم الذي كنت أشعر به كأنه ألمكم أنتم. هذه هي قوة التقمص العاطفي».

باعد الرجل بين يديه المشتبكتين ببطء. وسحب من بينهما وشاحاً أحمر رقيقاً، وبسطه لنا لنراه. ثم مدّ راحتي يديه ناحية الحضور، لم تكن بهما أي حروق. أعقبت ذلك لحظة من الصمت، ثم عبر الناس عن ارتياحهم بعاصفة من التصفيق. عادت الأضواء، وحلّت أصوات الثرثرة محل التوتر الذي كان يسود المكان. وضع الرجل جيتاره في الحقيبة، كأن شيئاً لم يحدث، ونزل من المسرح واختفى.

سألتُ الفتاة، عندما دفعت الحساب، عما إذا كان الرجل غالباً ما يغنّي هناك. وما إذا كان يؤدي هذه الخدعة دائماً.

قالت: «لست متأكدة. حسبما أعرف، هذه هي أول مرة يأتي إلى هنا، لم أسمع به قبل اليوم قط. ولم يقل لي أي أحد أنه يؤدي خدعاً سحرية. رغم ذلك، ألم يكن مذهلاً؟ أتساءل كيف يفعل ذلك. أراهن أنه سوف يكون نجماً على التلفاز».

قلت: «صحيح، بدا لي أنه كان يحرق نفسه حقاً».

سرت عائداً إلى الفندق، وحالما أويت إلى الفراش، داهمني النوم كما لو أنه كان ينتظرني طوال ذلك الوقت. فكرت بكوميكو والنعاس يمسك بتلابيبي، لكنها بدت لي بعيدة للغاية، وبعد ذلك كان يستحيل عليَّ أن أفكر بأي شيء. برق في ذهني وجه الرجل وهو يحرق راحة يده. قلت لنفسي، بدا أنه يحرق يده حقاً. ثم غرقت في النوم.

8

جذور الرغبة

*

في الغرفة رقم 208

*

العبور من خلال الجدار

*

وأنا في قاع البئر، رأيت حلماً قبل الفجر. لكنه لم يكن حلماً، إنما شيءٌ ما حدث متخذاً هيئة حلم.

كنت أسير وحدي، ووجه نوبورو واتايا يُعرض على شاشة تلفاز عملاق وسط ردهة واسعة، وقد بدأ حديثه للتو. يرتدي بدلة من قماش صوفي خشن، وقميصاً مخططاً، وربطة عنق كحلية. ويعقد ذراعيه على الطاولة أمامه، ويتحدث ناظراً إلى الكاميرا. تتدلى خلفه خريطة عالم عملاقة. لا بد أن أكثر من مئة شخص كانوا في الردهة، وكل واحد منهم ترك ما كان يفعله ووقف يستمع إليه، وتعابير الجد تكسو وجوههم. كان نوبورو واتايا على وشك إعلان شيء سيحدد مصير الناس.

توقفت أنا أيضاً لأنظر إلى شاشة التلفاز. كان نوبورو واتايا يخاطب ملايين الناس الذين لا يراهم بنبرة متمرسة لكنها صادقة. وعندئذٍ،اختفى ذلك الشيء الذي لا يُحتمل الذي دائماً ما أشعر به عندما أكون معه وجهاً لوجه، اختفى في مكان عميق غير مرئي. كان يتحدث بأسلوبه المقنع الفريد باختيار لحظات التوقف بعناية، وطبقات الصوت، وتعابير الوجه المختلفة. كل ذلك عزز لديّ إحساساً غريباً بالواقعية. بدا لي أن نوبورو واتايا يصقل مهاراته في الخطابة مع مرور كل يوم. مع كراهيتي لهذا، كان عليَّ أن أسلّم له بذلك.

كان يقول: «وكما ترون يا أصدقائي، كل شيء معقد وبسيط في آنٍ واحد. هذه هي القاعدة الجوهرية التي تحكم العالم. يجب ألّا ننساها أبداً. الأشياء التي تبدو معقدة- والأشياء المعقدة فعلاً- تكون بسيطة للغاية عندما يتعلق الأمر بالدوافع. الأمر يتعلق بما نبحث عنه. الدافع هو جذر الرغبة، إن جاز التعبير.والأهم هو البحث عن الجذور. احفروا تحت سطح الواقع المعقد، وواصلوا الحفر، ثم أحفروا المزيد حتى تصلوا إلى طرف الجذر. إذا فعلتم ذلك..» - وهنا أومأ ناحية الخريطة- «.. فسوف يتضح كل شيء في النهاية. هكذا يسير العالم. لا يستطيع الحمقى التحرر من التعقيد الظاهري. يتلمسون طريقهم في الظلام، بحثاً عن مخرج، ويموتون قبل أن يفهموا شيئاً واحداً عن العالم. وقد فقدوا كل حس بالاتجاهات، كما لو أنهم في أعماق غابة أو في قاع بئر. وسبب فقدانهم لحس الاتجاهات هو أنهم لا يفهمون المبادئ الجوهرية. ليس لديهم في رؤوسهم سوى القمامة والحجارة، ولا يفهمون شيئاً،

لا شيء على الإطلاق. لا يمكنهم تمييز الأمام من الخلف، ولا الأعلى من الأسفل، ولا الشمال من الجنوب. ولهذا لا يستطيعون التحرر من الظلام أبداً».

توقف نوبورو واتايا ليمنح كلماته الوقت لتستقر في أذهان مستمعيه.

ثم تابع: «دعونا ننسى أمثال أولئك الناس. إذا أراد بعض الناس أن يفقدوا حس الاتجاهات، فأفضل ما يمكنكم فعله هو تركهم وشأنهم. أمامنا أشياء أهم لنفعلها».

كلما طال وقت استماعي له ازداد غضبي، حتى كاد غضبي أن يخنقني. كان يتظاهر بالحديث إلى العالم بأسره، لكنه في الواقع كان يتحدث إليَّ وحدي. ولا بد أنه كان لديه دافع خبيث ومنحرف لفعل ذلك. لكن لم يدرك ذلك أحد آخر. وبهذا كان نوبورو واتايا قادراً على استغلال التلفاز ليرسل إليَّ رسائل سرية. شددت قبضة يديّ في جيبي، لكن لم تكن ثمة طريقة لأنفّس بها عن غضبي. وأثارت عدم مقدرتي على مشاركة هذا الغضب مع أي أحد بداخلي شعوراً عميقاً بالعزلة.

كان المكان مكتظاً بأناس يجاهدون لسماع كل كلمة يقولها نوبورو واتايا. عبرت الردهة واتجهت مباشرةً إلى الرواق الذي يصل بين غرف الضيوف. كان الرجل الذي بلا وجه يقف هناك. نظر إليَّ، وأنا أقترب منه، بوجهه غير الموجود، ثم تحرك ليعترض طريقي.

قال: «هذا وقت غير مناسب، لم تعد تنتمي إلى هذا المكان».

لكن الألم الممض الذي أشعر به بسبب نوبورو واتايا كان يثير غضبي، فدفعت الرجل الذي بلا وجه جانباً، فترنح مثل شبح وسقط بعيداً.

«إنني أقول هذا من أجل مصلحتك». قال من خلفي، وكانت جميع كلماته تنغرز في ظهري كشظايا لغم. «إذا ذهبت أبعد من هذا، فلن تتمكن من العودة. هل تفهم؟»

تجاهلته وتقدمت وأنا أغذ السير. لم أكن أخشى أي شيء في تلك اللحظة. كان يجب أن أعرف. فقدت إحساسي بالاتجاهات، لكن لا يمكنني أن أظل هكذا للأبد.

سرت في الرواق الذي بدا لي مألوفاً. افترضت أن الرجل الذي بلا وجه سيلحق بي ويحاول إيقافي، لكن عندما نظرت للخلف، لم أجد أحداً يتبعني. كان الرواق الطويل المتلوّي محاطاً بأبواب متطابقة. كل باب يحمل رقماً، لكنني لم أستطع تذكر رقم الغرفة التي دخلتها المرة السابقة. كنت متأكداً من أنني عرفت الرقم في المرة السابقة، لكن لم تفلح محاولاتي لتذكره. ولم يكن ثمة شك في إنني لن أفتح كل الأبواب. رحت أذرع الرواق جيئةً وذهاباً حتى مررت بنادل خدمة غرف يحمل صينية، وعليها قنينة كَتي سارك جديدة، ودلو ثلج، وكأسين. تركت النادل يمر، ثم سرت في أعقابه. كانت الصينية الصقيلة تعكس ضوء السقف الباهر بين الفينة والأخرى. لم ينظر النادل خلفه قط. بل سار بإيقاع منتظم رافعاً رأسه، كأنه يضع هدفاً محدداً نصب عينيه. أحياناً يصفّر بضع جمل موسيقية. وكانت استهلالية 'العقعق السارق'، البداية التي تدخل الطبول عندها، وكان بارعاً.

الرواق طويل، لكنني لم أصادف أي أحد آخر أثناء تعقبي للنادل. وأخيراً، توقف أمام باب وطرقه ثلاث طرقات خفيفات، وبعد مرور بضع ثوانٍ، فتح أحدهم الباب ودخل النادل حاملاً الصينية. التصقت بالجدار مختبئاً خلف مزهرية عملاقة صينية الطراز، وانتظرت خروج النادل. كان رقم الغرفة هو 208. بالطبع! لماذا لم أستطع تذكره حتى الآن؟

استغرق النادل وقتاً طويلاً. ألقيت نظرة على ساعتي، لكن بدا أن عقاربها توقفت عن الدوران في لحظة ما. تفحصت الزهور التي في المزهرية وتشممت كل عبير فيها، وبدا لي أنها قُطفت من حديقةٍ ما قبيل لحظات فحسب، كانت في غاية النداوة، وماتزال محتفظة بكامل عنفوان ألوانها وشذاها، وعلى الأرجح لم تلاحظ أنها قُطعت عن جذورها. ورأيت حشرة مجنّحة صغيرة تشق طريقها إلى قلب وردة حمراء ذات بتلات سميكة.

مرت خمس دقائق أو أكثر قبل خروج النادل من الغرفة خالي اليدين. وعاد من حيث أتى رافعاً رأسه كما في السابق. وحالما اختفى عند منعطف، سرت إلى الباب. حبست أنفاسي وأصغيت متوقعاً سماع شيء ما. لكن لم يكن ثمة صوت، ولا أي شيء يشير إلى أن أحدهم بالداخل. خاطرت وطرقت الباب، ثلاث مرات، برفق، كما طرقه النادل. لكن لم يجب أحد. تركت بضع ثوان تمر ثم طرقت ثلاث مرات مجدداً، هذه المرة بقوة أكبر من سابقتها. لم يجب أحد مع ذلك.

تالياً، حاولت أن أدير مقبض الباب، فتجاوب معي وفُتح إلى الداخل بصمت. بدت الغرفة حالكة الظلام في البداية، لكن بعض الضوء كان يشق طريقه خلال الستائر السميكة المعلقة على النافذة. تمكنت، ببعض المجهود، من رؤية النافذة نفسها وطاولة وأريكة. كانت الغرفة التي اقترنت فيها بكريتا كانو، جناح فندق، غرفة الجلوس حيث كنت أقف، وغرفة النوم بالخلف. رأيت على الطاولة الأشكال المعتمة لقنينة كتي سارك، والكأسين، ودلو الثلج. عندما فتحت الباب، عكس دلو الثلج الفولاذي الضوءَ القادم من الرواق ببريق حاد. دلفت إلى الظلام وأغلقت الباب خلفي بهدوء. كان هواء الغرفة دافئاً، ويعبق برائحة الزهور القوية. حبست أنفاسي وأرهفت سمعي، ممسكاً بمقبض الباب بيسراي حتى أتمكن من فتحه في أي لحظة. لا بد أن أحدهم كان هناك في مكان ما. طلب أحدهم الويسكي والثلج والكأسين من خدمة الغرف، وفتح الباب وسمح للنادل بالدخول.

*

«لا تضيء المصباح» قال صوت امرأة. كان قادماً من غرفة النوم. وتعرفت عليه على الفور، كانت تلك المرأة الغامضة التي تتصل بي عبر الهاتف تلك الاتصالات الغريبة. أفلتّ مقبض الباب وبدأت أتحسس طريقي باتجاه الصوت. ظلام الغرفة الداخلية أشد حلكةً من الغرفة الخارجية. وقفت في الممر الذي بين الغرفتين وجاهدت لأرى شيئاً في الظلام.

كنت أسمع صوت أغطية فراش، وتحرُّك شبح أسود في الظلام. «دع الغرفة مظلمة». قال صوت المرأة.

قلت: «لا تقلقي، لن أضيء المصباح».

شددت قبضتي على عضادة الباب.

«هل جئت إلى هنا وحدك؟» سألتني المرأة، بصوت يبدو مرهقاً على نحو غامض.

قلت: «بالطبع، ظننت أنني سأجدك هنا. أنت أو كريتا كانو. لا بد لي من معرفة مكان كوميكو. أعني، كل شيء بدأ بتلك المكالمة الأولى منك. أنتِ التي فتحت صندوق بَندورا[4]، ثم بدأت الأحداث الغريبة تتعاقب، حتى اختفت كوميكو أخيراً. لهذا أنا هنا، وحدي. لا أعرف من أنت. لكن لديك مفتاح ما، هل أنا محق؟»

«كريتا كانو؟» سألت المرأة بنبرة حذرة. «لم أسمع بها قط، أهي هنا أيضاً؟»

«لا أعرف مكانها، لكنني قابلتها هنا أكثر من مرة».

كل نفس كنت آخذه يحمل رائحة زهور قوية، وكان الهواء ثخيناً وثقيلاً. في مكان ما في تلك الغرفة، ثمة مزهرية أخرى مليئة بالزهور، في مكان ما في ذلك الظلام نفسه، كانت تتنفس، وتتمايل. في الظلام الذي يعبق برائحتها القوية، بدأت

[4] Pandora’s box صندوق في الميثولوجيا الإغريقية يحتوي على كل شرور البشرية. (المترجم)

أفقد صفتي المادية. شعرت كما لو أنني تحولت إلى حشرة صغيرة، تشق طريقها بين بتلات زهرة عملاقة. الرحيق الدبق، والطلع ، والشعيرات الناعمة في انتظاري، وبحاجة إلى غزوي وحضوري.

قلت للمرأة: «أتعرفين، أول ما أريد معرفته هو معرفتك أنتِ، إنك تقولين لي إنني أعرفكِ، وقد بذلت كل ما بوسعي لأتذكر لكن بلا جدوى. من أنتِ؟»

«من أنا؟» كررت المرأة كلماتي، لكن دون قصد السخرية. «أود شراباً. هلا أحضرت كأسين مع الثلج! ستشرب معي، أليس كذلك؟»

عدت إلى غرفة الجلوس، وفتحت قنينة الويسكي الجديدة ووضعت الثلج في الكأسين، وسكبت فيهما الشراب. استغرق الأمر وقتاً طويلاً في الظلام. حملت المشروبين إلى غرفة النوم. أمرتني المرأة بأن أضع كأساً على المنضدة المجاورة للفراش. «وأجلس على الكرسي الذي في نهاية الفراش». فعلت كما أُمِرت، وضعت كأساً على المنضدة التي بجوار الفراش، وجلست على كرسي وثير بعيداً قليلاً، حاملاً كأسي في يدي. ربما اعتادت عيناي على الظلام قليلاً، إذ تمكنت من رؤية ظلال تتحرك في المكان. بدا لي أن المرأة نهضت من الفراش، ثم سمعت صوت الثلج وهي تشرب. أخذت أنا أيضاً رشفة من الويسكي.

لبثتْ صامتة مدة طويلة. بدا لي أنه كلما استمر الصمت وقتاً أطول، ازدادت قوة رائحة الزهور.

«أتريد معرفة من أنا حقاً؟»

«لهذا أنا هنا». قلت، لكن كان لصوتي صدى غريب في الظلام.

«جئت إلى هنا تحديداً لتعرف اسمي، أليس كذلك؟»

بدلاً من الإجابة، تنحنحتُ، وقد كان لهذا أيضاً صدى غريباً.

حرّكت المرأة الثلج في كأسها عدة مرات «تريد معرفة اسمي، لكن لسوء الحظ، لا أستطيع إخبارك به. أنا أعرفك جيداً. وأنت تعرفني جيداً. *لكنني لا أعرفني*».

هززت رأسي في الظلام. «لا أفهم، وقد سئمت من الألغاز. أريد شيئاً ملموساً يمكنني الإمساك به . حقائق صلبة. شيء يمكنني استخدامه كعتلة لخلع الباب. هذا ما أريده».

بدا لي أن المرأة تعتصر تنهيدة من أعماق جسدها. «تورو أوكادا، أريدك أنت أن تكتشف اسمي. لكن لا، ليس عليك أن تكتشفه. *إنك تعرفه بالفعل*. كل ما عليك فعله هو تذكره. إذا تذكرت اسمي، عندها يمكنني أن أخرج من هنا. يمكنني حتى أن أساعدك على العثور على كوميكو أوكادا. إن كنت تريد العثور على زوجتك، أبذل ما بوسعك لتتذكر اسمي، هذه هي العتلة التي تريدها. ليس لديك وقت لتظل ضائعاً. كل يوم تفشل فيه في معرفته، تزداد كوميكو أوكادا بعداً عنك».

وضعت كأس الويسكي على الأرضية. وقلت: «أخبريني أين هذا المكان؟ منذ متى وأنت هنا؟ وما الذي تفعلينه هنا؟»

«عليك أن تغادر *الآن*». قالت المرأة، كما لو أنها تذكرت فجأة ما كانت تفعله. «ستكون هناك مشكلة. إنه أخطر مما تعتقد، وقد يقتلك حقاً. لا أستبعد هذا».

«من هو؟»

لم تجب المرأة، ولم أعرف ما أقوله. شعرت بالضياع. سكن كل شيء في الغرفة. كان الصمت عميقاً وثقيلاً خانقاً. وشعرت بحمّى في رأسي، ربما بسبب الطلع، كانت الحبيبات المختلطة بالهواء تخترق رأسي وتقود أعصابي للجنون.

«قل لي، يا تورو أوكادا» تغير صوتها فجأة، تغيرت نبرة صوتها خلال لحظة. وأصبح متماهياً مع هواء الغرفة الثخين الثقيل. «هل سبق وفكرت في أنك تود أن تحتضنني مجدداً؟ وأنك تود أن تلجني؟ وتقبلني في كل مكان؟ يمكنك أن تفعل بي ما يحلو لك، كما تعرف. وسأفعل كل ما تريده.. كل شيء .. أشياء لن تفعلها لك زوجتك.. كوميكو أوكادا.. أبداً. سأمنحك شعوراً لن تنساه ما حييت إذا أنت..».

سمعنا طرقاً مفاجئاً على الباب. كان أشبه بصوت مسمار يُدق في الظلام. انبثقت يد المرأة من الظلام وأخذت بيدي. وهمست: «تعال من هنا، أسرع». فقد صوتها نبرته الحالمة. عَنُف الطرق مجدداً، طرقتان بنفس القوة. وخطر لي فجأة أنني لم أوصد الباب.

«أسرع، عليك أن تخرج من هنا، هذا هو الطريق الوحيد».

تحركتُ في الظلام والمرأة تجذبني خلفها. سمعت صوت مقبض الباب وهو يُدار ببطء، فبعث رعشة في عمودي الفقري. في اللحظة عينها التي اخترق فيها ضوء الرواق الظلام، انزلقنا إلى داخل الجدار، كان أشبه بكتلة ضخمة من الجيلاتين البارد. أطبقت شفتيّ حتى لا يدخل إلى فمي. صعقتني الفكرة: *أنا أعبر من خلال الجدار!* كنت أعبر خلال جدارحتى انتقل من مكان لآخر. ومع ذلك، حتى أثناء حدوثه، بدا لي أمراً طبيعياً تماماً.

شعرت بلسان المرأة يدخل إلى فمي، دافئاً وليناً، تحسس كل تجويف، والتف حول لساني. لامست رائحة بتلات الزهور القوية جدران رئتيّ. وبالأسفل شعرت بحاجة إلى القذف، لكنني قاومتها مغمضاً عيني بشدة. بعدها بلحظة، شعرت بحرارة لاهبة على خدي الأيمن. كان شعوراً غريباً. لم أشعر بأي ألم، لا شيء سوى إدراكي لوجود حرارة. لم أتمكن من معرفة ما إذا كانت الحرارة مصدرها خارجي أم تغلي بداخلي. ثم سرعان ما اختفى كل شيء، لسان المرأة، ورائحة الزهور والحاجة إلى القذف، والحرارة على خدي. وعبرت خلال الجدار. عندما فتحت عيني، كنت على الجانب الآخر من الجدار، في قاع بئر عميقة.

9

البئر والنجوم

*

كيف اختفى السلم

*

كانت السماء مضيئة عند حوالي الخامسة صباحاً، لكن مع ذلك، كنت أرى الكثير من النجوم. تماماً كما قال لي الملازم ماميا: ‘من قاع بئر، يمكنك رؤية النجوم في ضوء النهار’. وفي شريحة السماء التي على شكل نصف قمر، كانت هناك نجوم باهتة مجتمعة بنظام، مثل عينات صخور نادرة.

ذات مرة في الماضي، عندما كنت أخيِّم على قمة جبل مع بعض الأصدقاء في الصف الخامس أو السادس، رأيت نجوماً بأرقام خرافية تملأ صفحة السماء. كان الأمر يبدو وكأن السماء ستتهاوى تحت ثقل كل تلك الأشياء. لم أرَ نجوماً تملأ السماء على ذلك النحو المذهل من قبل. لم أتمكن من النوم بعدما غط الآخرون في نومهم، فزحفت خارجاً من الخيمة، واستلقيت على الأرض، شاخصاً ببصري إلى السماء. بين الفينة والأخرى، كنت أرى شهاباً يعبر السماء راسماً قوساً. لكن كلما

طالت مشاهدتي، زاد قلقي. كانت هناك نجوم أكثر من اللازم، والسماء شاسعة وعميقة. أحاط بي شيء هائل، وتملكني، وأشعرني بالدوار. لطالما اعتقدت،حتى تلك اللحظة، أن الأرض التي نقف عليها جسم صلب سيدوم للأبد. أو بالأحرى، لم أفكر بشيء كهذا إطلاقاً. كنت أعتبر ذلك من المسلمات فحسب. لكن في الواقع، لم تكن الأرض سوى قطعة حجر تسبح في ركن صغير من الكون، موطئ قدم مؤقت في فراغ الفضاء المهول. ومن الممكن أن ينفجر أو يتلاشى غداً- ونحن معه- ببريق خاطف من شيء أو تغير ضئيل في طاقة الكون. تحت تلك النجوم التي تأخذ الأنفاس، داهمني شك عنيف في وجود ذاتي. كان اكتشافاً مذهلاً بالنسبة لصبي صغير.

كان النظر إلى نجوم الفجر من قاع بئر تجربة خاصة مختلفة تماماً عن النظر إلى سماء مليئة بالنجوم من على قمة جبل. كما لو أن عقلي- نفسي- وجودي ذاته- كان متصلاً من خلال نافذتي الضيقة بكل واحدة من تلك النجوم التي في السماء. شعرت نحوها بشعور عميق من الحميمية. كانت نجومي، غير مرئية لأي أحد سواي، وأنا قابع في قاع البئر المظلم. أحببتها كأنها لي، وبالمقابل أنعمت عليَّ بنوع من الطاقة والدفء.

بدأت السماء، مع مرور الوقت، تخضع لضوء شمس الصيف الباهر. وبدأت النجوم تتوارى عن مجال رؤيتي واحدة تلو الأخرى. وراقبت تواريها بعينين مفتوحتين على اتساعهما. أما ما بقي منها، مهما صعدت الشمس لأعلى، فقد اتخذت موقفاً

معانداً ورفضت الاختفاء. وقد أسعدني ذلك أيما سعادة. فعدا عن الغيوم العابرة، كانت النجوم هي الأشياء الوحيدة التي كنت أراها، وأنا قابع هناك بالأسفل.

تعرّقت خلال نومي، بدأ العرق يبرّد جسمي ويسبب لي الارتعاش. ذكّرني العرق بغرفة الفندق حالكة الظلام وامرأة الهاتف هناك، التي ماتزال كلماتها ترن في أذنيّ، كل كلمة، وكذلك صوت الطرْق. احتفظ منخراي برائحة الزهور القوية الغريبة. وكان نوبورو واتايا مايزال يتحدث على الجانب الآخر من شاشة التلفاز. ظلت ذاكرة هذه الانطباعات قوية غير متأثرة بمرور الوقت. وهذا لأن ما حدث *لم يكن حلماً*. ذاكرتي قالت لي ذلك.

ظللت أشعر، حتى بعدما استيقظت تماماً، بدفء على خدي الأيمن، وقد خالطه ألم خفيف، كما لو أن الجلد فُرك بورق سنفرة خشن. وضعت راحة يدي في مكان الألم فوق شعر ذقني الذي بعمر يوم. لكن ذلك لم يخفف الحرارة ولا الألم. كان من المستحيل، هناك في قاع بئر مظلمة، ودون مرآة، أن أكتشف ما يحدث لخدي.

مددت يدي ولمست الجدار، ممرراً أطراف أصابعي على سطحه، ثم ضغطت راحة يدي عليه بعض الوقت، لكنني لم أجد شيئاً غير عادياً. كان مجرد جدار خرساني عادي. ضربت عليه بقبضتي بضع مرات. كان الجدار صلباً، وخالي من التعابير، ورطباً قليلاً. كنت ما أزال أتذكر بوضوح الإحساس الغريب الزلق الذي منحني إياه عندما عبرت خلاله– إحساس العبور خلال كتلة من الجيلاتين.

تلمّست حقيبة ظهري بحثاً عن قارورة الماء. شربت قليلاً. أمضيت يوماً كاملاً دون طعام. فأشعرتني الفكرة بوخزات جوع عنيفة، لكنها سرعان ما تلاشت بمثل ما يشبه الخدر. لامست وجهي بيدي مجدداً محاولاً قياس نمو ذقني. اكتسى فكي بشعر قصير عمره يوم واحد. لا شك في الأمر، لقد انقضى يوم كامل. لكن يوم غيابي لم يكن له تأثير على أي أحد على الأرجح. لم يلاحظ إنسان واحد أنني غِبت. من الممكن أن أختفي من سطح الأرض، وسيواصل العالم مسيره دون أن يطرف له جفن. كانت الأحوال في غاية التعقيد، لا شك في ذلك، لكن ثمة شيء واحد كان واضحاً: لا أحد يحتاج إليَّ.

رفعت رأسي مجدداً ونظرت إلى النجوم. هدّأ منظرها من وجيب قلبي تدريجياً. ثم خطر لي أن أتلمّس الجدار بحثاً عن السلم، حيث كان ينبغي أن يكون، لكن يدي لم تعثر على شيء. تلمست منطقة أوسع بعناية قصوى، لكن لم يكن هناك سلم. لم يعد موجوداً في مكانه. أخذت نفساً عميقاً، وأخرجت المصباح اليدوي من الحقيبة، وأضئته. لكن لم يكن ثمة أثر للسلم. سلطت الضوء على الأرض،واقفاً في مكاني، ثم على الجدار فوقي، إلى أبعد حد يمكن أن يبلغه الضوء. لم يكن السلم هناك. زحف عرق بارد نازلاً على جانبيّ كمخلوق ما. انزلق المصباح من يدي وسقط على الأرض، وانطفأ بسبب الارتطام. كانت إشارة ما. في تلك اللحظة، خطر لي فجأة: *إنني حبة رمل، تائهة في الظلام المحيط*. توقف جسدي عن العمل، كأن قابسه الذي يمدّه بالطاقة قد نُزع. واجتاحتني حالة من العدم التام.

لبثت على ذلك الحال بضع ثوانٍ، قبل أن أستعيد نفسي. وعادت وظائفي الجسدية للعمل شيئاً فشيئاً. انحنيت والتقطت المصباح المُلقى عند قدمي، ضربته بضع ضربات خفيفة، وأضئته مجدداً. كنت بحاجة إلى تهدئة نفسي وترتيب أفكاري. الخوف والذعر لن يحلان شيئاً. متى كانت المرة الأخيرة التي تفقدت فيها السلم. قبل نومي بالأمس، في وقت متأخر من الليل. تيقنت من وجوده، وعندها فقط سمحت لنفسي بالنوم. ما من خطأ. اختفى السلم أثناء نومي. رُفع للأعلى، وأُخذ بعيداً. أطفأت المصباح واتكأت على الجدار. ثم أغمضت عيني. أول ما شعرت به هو الجوع، اكتسحني من بعيد كموجة عاتية، غمرني دون أي صوت، ثم انزلق مبتعداً. وحالما اختفى، لبثت واقفاً في مكاني، أجوفاً، خاوياً كحيوان أُنتزعت أحشاؤه. لم أعد أشعر بالرعب أو اليأس بعد مرور موجة الذعر الأولى. أغرب ما في الأمر هو أن كل ما شعرت به في تلك اللحظة هو التسليم.

*

عندما عدت من سابورو، احتضنت كوميكو وواسيتها. كانت تشعر بالضياع والتشوش، ولم تذهب إلى العمل. قالت: «لم يغمض لي جفن الليلة الماضية. وجدت فرصة في العيادة في وقت مناسب، لذلك قررت بنفسي». بكت قليلاً بعدما قالت ذلك.

قلت: «انتهى الأمر الآن، فما من داع للتفكير به بعد الآن. تحدثنا عنه كثيراً، وهذا ما آلت إليه الأمور. إن كان ثمة ما تريدين الحديث عنه، من الأفضل أن تتحدثي الآن، حتى ننسى أمره. قلتِ عبر الهاتف إن لديك ما تريدين إخباري به».

هزت كوميكو رأسها «دعك عنه. إنك محق، لننس أمره».

واصلنا حياتنا زمناً بعد ذلك، متجنبين أي ذكر للإجهاض. لكن ذلك لم يكن سهلاً. أحياناً ونحن نتحدث عن شيء مختلف تماماً، يصمت كلانا فجأة. كنا نذهب إلى السينما في نهايات الأسبوع، وفي العتمة، نكون منتبهين لأحداث الفيلم، لكنا في الواقع نفكر بأشياء ليست لها علاقة بالفيلم، أوربما نريح أدمغتنا بعدم التفكير بأي شيء إطلاقاً. كنت أعرف أن كوميكو الجالسة إلى جانبي، تفكر بشيء آخر، كنت أستشعر ذلك.

بعد الفيلم، نذهب إلى مكان ما لنتناول جعة أو وجبة خفيفة. أحياناً لا نعرف ما نتحدث عنه. استمرت هذه الحالة ستة أسابيع، ستة أسابيع طويلة للغاية، وفي نهايتها قالت كوميكو لي: «ما رأيك في الذهاب في رحلة غداً، نذهب بعيداً في إجازة قصيرة، نحن الاثنين فحسب. غداً الجمعة، يمكننا العودة يوم الأحد. الناس بحاجة إلى شيء كهذا من حين لآخر».

«اعتذري متعللة بالمرض إذاً، نزلة برد أو ما شابه. وسأفعل الأمر نفسه».

استقللنا القطار إلى كارويزاوا. اخترت ذلك المكان لأن كوميكو قالت إنها تريد مكاناً هادئاً بين الجبال، حيث يمكننا السير كما نشاء. عادةً ما يكون الناس قليلون هناك في أبريل. وكان الفندق هادئاً، ومعظم المحلات مغلقة، لكن ذلك هو ما كنا نريده تماماً. لم نفعل شيئاً سوى الخروج في نزهات كل يوم، من الصباح إلى المساء.

*

استغرقت كوميكو يوماً ونصف يوم حتى تطلق العنان لمشاعرها، وعندها جلست في غرفة الفندق تبكي ساعتين تقريباً. لم أقل شيئاً طوال الوقت، احتضنتها وتركتها تبكي فحسب.

ثم بدأت تخبرني بعض الأشياء بجرعات قليلة، عن الإجهاض، وعن مشاعرها عندئذٍ، وعن إحساسها بالفقد، وعن مدى شعورها بالوحدة عندما كنتُ في هوكايدو، وكيف أنها ما كانت لتستطيع أن تفعل ما فعلته إذا لم تكن تشعر بالوحدة.

قالت أخيراً: «ولا تفهمني بشكل خاطئ، لست نادمة على ما فعلت. كان هو السبيل الوحيد أمامنا. إنني متأكدة تماماً من هذا. لكن ما يؤلمني حقاً، هو إنني أريد أن أخبرك بكل شيء، وأعني كل شيء، لكنني لا أستطيع، لا أستطيع أن أخبرك بما أشعر به تماماً».

رفعت كوميكو شعرها، كاشفة عن أذن صغيرة جميلة الشكل، وهزت رأسها «إنني لا أخبئ عنك شيئاً، أخطط لإخبارك في وقت ما. أنت الوحيد الذي يمكنني إخباره. لكن ليس الآن. ليس بمقدوري صياغة ما أشعر به في شكل كلمات».

«أهو شيء من الماضي؟»

«لا، ليس هذا».

«خذي كل الوقت الذي تحتاجين إليه، حتى تشعري أنك مستعدة. ليس لدينا سوى الوقت. سأكون هنا معك، لا داعي للعجلة. أريد منك أن تضعي شيئاً واحداً في اعتبارك. كل ما يخصك، كل شيء دون استثناء، سأتقبله باعتباره يخصني. لن يكون عليك القلق بشأن هذا أبداً».

«شكراً لك، إنني سعيدة بالزواج منك».

لكن لم يكن لدينا ذلك الوقت الطويل الذي كنا نظن أنه متاح أمامنا. ما الذي لم تكن كوميكو قادرة على التعبير عنه؟ هل للأمر علاقة باختفائها؟ ربما. إذا حاولت أن أنتزع ما لديها، لربما تجنبت خسارتها الآن. لكن لا. بعدما فكرت في الأمر، استخلصت إنني ما كنت لأستطيع إرغامها. قالت إنها لا تستطيع أن تعبر عما بداخلها بالكلمات. أياً كان، فقد كان فوق طاقتها.

«أنت، هناك بالأسفل! طائر الزنبرك!». هتفت ماي كاساهارا، كنت بين النوم واليقظة، واعتقدت أني أسمع الصوت في حلم، لكنه لم يكن حلماً. عندما نظرت للأعلى، رأيت وجه ماي كاساهارا، صغيراً وبعيداً. «أعرف أنكَ بالأسفل! هيا يا طائر الزنبرك! أجبني!».

قلت: «أنا هنا».

«لماذا بحق السماء؟ ما الذي تفعله هنا؟»

«أفكر».

«لا أفهم، لماذا عليك أن تهبط إلى قاع بئر لتفكر؟ لا بد أنه أمر مزعج!»

«يمكنني أن أركز هكذا. المكان مظلم وبارد وهادئ».

«أتفعل هذا كثيراً؟»

«لا، ليس كثيراً. هذه هي أول مرة أهبط إلى قاع بئر هكذا».

«هل الأمر ناجح؟ هل يساعدك على التفكير؟»

«لا أعرف هذا بعد. ما زلت أجرّب».

تنحنحتْ. كان للصوت صدى عالياً في البئر.

«على أي حال يا طائر الزنبرك، هل لاحظت اختفاء السلم؟»

«بالطبع، قبل قليل».

«هل اعتقدت أنني من رفعته؟»

«لا، لم أعتقد ذلك».

«حسناً، من الذي كنت تعتقد أنه رفعه؟»

قلت صادقاً: «لم أكن أعرف. لا أعرف كيف أعبر عن هذا، لكن فكرة أن يكون أحدهم قد رفعه لم تخطر على بالي قط. لأكون صادقاً معك، اعتقدت أنه اختفى فحسب».

صمتت ماي كاساهارا قليلاً، ثم قالت بنبرة توجس في صوتها، كما لو أنها تعتقد أن كلماتي تنطوي على فخ ما: «اختفى فحسب، أمم. ما الذي تعنيه بـ 'اختفى فحسب'؟ أنه اختفى فحسب.. من تلقاء.. نفسه؟»

«ربما».

«أتعرف يا طائر الزنبرك، من الغريب أن أذكر هذا الأمر الآن، لكنك غريب الأطوار. لا يوجد كثيرون بمثل غرابتك. أتعرف هذا؟»

«لستُ غريباً بالنسبة إليَّ».

«إذاً ما الذي يجعلك تعتقد أن السلالم تختفي ببساطة؟».

فركت وجهي بيدي الاثنين وحاولت حشد تركيزي في المحادثة مع ماي كاساهارا.

«أنتِ التي رفعته، أليس كذلك؟»

«بالطبع، ليس بالضرورة أن تكون عبقرياً لتكتشف هذا، *أنا* رفعته. تسللت في الليل ورفعته».

«لكن لماذا؟»

«لمَ لا؟ أتعرف كم مرة ذهبت إلى منزلك بالأمس؟ أردت منك أن تذهب معي إلى العمل مجدداً. ولم تكن بالمنزل، بالطبع. ثم وجدت تلك الملاحظة التي تركتها في المطبخ، لذلك انتظرت مدة طويلة للغاية، لكنك لم تعد. فظننت أنك ربما تكون عند المنزل المهجور مجدداً. وجدت غطاء البئر نصف مفتوح والسلم متدلي. مع ذلك، لم يخطر لي أنك قد تكون بالأسفل. اعتقدت أن عامل ما أو أحدهم كان هنا وترك سلمه. أعني، كم عدد الذين يجلسون في قاع بئر عندما يريدون التفكير؟»

«معكِ حق في هذا».

«مهما يكن، تسللت إلى منزلك ليلاً، لكنك لم تكن هناك بالطبع. عندها قفزت الفكرة في رأسي، أنك ربما تكون في البئر. لم تكن لديّ أي فكرة عما قد تكون تفعله هنا بالأسفل، لكن كما تعرف، كما قلت لك، إنك غريب الأطوار نوعاً ما. جئت إلى البئر ورفعت السلم. أراهن أنك فقدت صوابك».

«أجل، إنك محقة».

«ألديكَ شيئاً تأكله أو تشربه؟»

«قليل من الماء. لم أحضر أي طعام، لكن لدي ثلاث قطع من حلوى الليمون».

«منذ متى أنتَ هنا؟»

«منذ قبل ظهر الأمس».

«لا بد أنك جائع».

«أظن هذا».

«أليس عليك أن تتبول أو ما شابه؟»

بما أنها ذكرت الأمر، أدركت أنني لم أتبول ولا مرة منذ هبوطي إلى البئر.

«ليس تماماً، لا آكل أو أشرب الكثير».

«أتعرف، يا طائر الزنبرك؟ ربما تموت هنا. يتوقف الأمر على مزاجي،فأنا الوحيدة التي تعرف أنك هنا، وأنا التي خبأت سلم الحبال. هل تدرك هذا؟ إذا سرت مبتعدة عن هنا فحسب، فسوف تموت. يمكنك الصراخ، لكن لن يسمعك أحد. لن يخطر لأحد أنك في قاع بئر. وأراهن أن لا أحد سيلاحظ اختفاءك. إنك لا تعمل

لدى أي شركة، وزوجتك هربت. أفترض أن أحدهم سيلاحظ اختفاءك في النهاية، ويبلغ الشرطة، لكنك ستكون ميتاً بحلول ذلك الوقت، ولن يعثروا على جثتك أبداً».

«إنك محقة بلا شك، من الممكن أن أموت هنا، وفقاً لمزاجك».

«كيف تشعر حيال هذا؟»

«بالخوف».

«لا تبدو خائفاً».

كنت ما أزال أفرك خدي. لم أكن أستطيع رؤية يديَّ على خدي في الظلام. لكنهما كانتا موجودتان. كان جسدي ما يزال موجوداً.

قلت: «هذا لأنني لم أدرك الأمر بكل تبعاته».

قالت: «حسناً، *أنا* أدركته. أراهن أن قتل شخص أسهل بكثير مما يعتقد الناس».

«ربما يعتمد ذلك على المزاج».

«سيكون سهلاً! ما عليَّ سوى ترْكك هنا. ليس عليَّ أن أفعل شيئاً. فكر بالأمر يا طائر الزنبرك. تخيّل مدى معاناتك، تموت شيئاً فشيئاً، من الجوع والعطش، في الظلام. لن يكون سهلاً».

«إنكِ محقة بلا شك».

«لا تصدقني حقاً، أليس كذلك يا طائر الزنبرك؟ تعتقد أنني لا يمكن أن أكون بهذه القسوة».

«لا أعرف حقاً، ليس الأمر أنني أعتقد أنك يمكنك فعلها أو لا يمكنك. كل شيء ممكن الحدوث. الاحتمال موجود. هذا ما أعتقده».

«إنني لا أتحدث عن *احتمال*». قالت بنبرة في غاية البرودة. «اسمع، لدي فكرة، خطرت لي للتو. إنك تجشمت عناء التسلق هبوطاً إلى هناك حتى تتمكن من التفكير. لمَ لا أصلح لك الأمر حتى تتمكن من التركيز على أفكارك على نحو أفضل؟»

«كيف يمكنك فعل هذا؟»

«كيف؟ هكذا». قالت وهي تغطي نصف فوهة البئر المفتوحة. فصرت في ظلام تام.

10

ماي كاساهارا تتحدث عن الموت والتطور

*

الشيء الذي خُلق في مكان آخر

*

كنت رابضاً في الظلام التام، وكل ما أراه هو العدم. وغدوت جزءاً من ذلك العدم. أغمضت عيني وأصغيت لصوت قلبي، وصوت الدم وهو يتدفق في عروقي، وتقلصات رئتيّ، وتموجات أحشائي التي تتضور. كانت كل حركة، في ذلك الظلام الكثيف، وكل نبضة تتضخم تضخماً هائلاً. كان هو جسدي، ولحمي. لكن في الظلام، كان شيئاً مادياً فحسب.

سرعان ما بدأ عقلي الواعي ينزلق بعيداً عن جسدي المادي. رأيت نفسي طائر الزنبرك، أحلق عبر سماء الصيف، وأحط على غصن شجرة ضخمة في مكان ما، أُدير زنبرك العالم. إن لم يعد هناك طائر زنبرك حقاً، فيجب أن يقوم أحدهم بواجباته. إذ سيتعين على أحدهم إدارة زنبرك العالم بدلاً منه. وإلا سوف يتوقف النظام الدقيق عن العمل. لكن يبدو أنني الوحيد الذي لاحظ اختفاء طائر الزنبرك.

بذلت ما بوسعي لتقليد صيحة طائر الزنبرك مصدراً صوتاً من أسفل حلقي، لكنني لم أنجح. كل ما صدر عني كان صوتاً قبيحاً بلا معنى مثل احتكاك شيئين قبيحين لا معنى لهما. طائر الزنبرك الحقيقي وحده هو من يستطيع إصدار الصوت، طائر الزنبرك وحده هو من يستطيع إدارة زنبرك العالم كما تنبغي إدارته.

مع ذلك، بما أنني طائر زنبرك غير قادر على إدارة نابض العالم، قررت أن أحلق عبر سماء الصيف، وهو ما اتضح أنه سهل نسبياً. حالما ارتفعت، كل ما كان عليّ فعله هو الخفقان بجناحيّ بالزاوية الصحيحة، لكي أعدل اتجاهي وارتفاعي. أتقن جسدي هذه المهارة في لحظة، وحلقت بلا جهد حيثما أردت. نظرت إلى العالم من وجهة نظر طائر الزنبرك. ومتى ما نلت كفايتي من التحليق، كنت أحط على غصن شجرة وأحدق خلال أوراق الأشجار الخضراء إلى أسطح المنازل والطرق، وشاهدت الناس يتحركون على الأرض، يزاولون مهام حياتهم. لكن للأسف، لم أكن قادراً على رؤية جسدي. وهذا مردّه إلى أنني لم أرَ طائر الزنبرك من قبل قط، وليست لدي فكرة عن شكله.

لوقت طويل، لا أدري مقدار طوله، كنت طائر الزنبرك. لكن كوني طائر زنبرك لم يفضِ بي إلى أي نتيجة. كان الطيران ممتعاً، بطبيعة الحال، لكن لم يكن بوسعي مواصلة الاستمتاع للأبد. ثمة شيء عليَّ إنجازه بالأسفل في ظلام قاع البئر. توقفت عن كوني طائر الزنبرك وعدت إلى نفسي.

*

زارتني ماي كاساهارا مرة ثانية بعد الثالثة بقليل، الثالثة بعد الظهر. عندما رفعت نصف غطاء البئر، غمرتني أشعة شمس النهار الباهرة. ولأحمي عيني، اللتان أعتادتا الظلام التام، أغمضتهما وأحنيت رأسي بعض الوقت. مجرد فكرة وجود الضوء بالأعلى تسبب في سيلان خيط رفيع من الدموع من عيني.

«مرحباً، يا طائر الزنبرك. أما زلت حياً يا طائر الزنبرك؟ أجبني إن كنت ما تزال حياً».

«ما أزال حياً».

«لا بد أنك جائع».

«أظن هذا».

«ما زالت إجابتك ‘أظن هذا’ فحسب؟ إذاً سوف يمضي وقت طويل قبل أن تموت من الجوع. الذين يتضورون جوعاً يموتون بسهولة ما دام لديهم الماء».

قلت: «هذا صحيح على الأرجح». كان عدم اليقين في صوتي يتردد في أرجاء البئر. الصدى يضخّم أي سمة في الصوت على الأرجح.

قالت ماي كاساهارا: «أعلم أنه صحيح. أجريت بحثاً صغيراً في المكتبة صباح اليوم عن كل ما يتعلق بالجوع والعطش. هل كنت تعرف، يا طائر الزنبرك، أن أحدهم عاش تحت الأرض اثنان وعشرون يوماً في أيام الثورة الروسية؟».

قلت: «بلا مزاح».

«لا بد أنه عانى كثيراً».

«أجل، بالفعل».

«لقد نجا، لكن تساقط شعره وجميع أسنانه، كل شيء. حتى إذا عاش، فلا بد أن ذلك كان مروعاً».

«أجل، بالفعل».

«لكن حتى إذا فقدتَ أسنانك وشعرك، أعتقد أنك يمكنك العيش حياة عادية إلى حدٍ كبير إذا حصلت على باروكة لائقة وزرعت أسناناً صناعية».

«أجل، تطورت الباروكات والأسنان الصناعية تطوراً كبيراً منذ أيام الثورة الروسية. قد يسهل هذا الامور قليلاً».

«أتعرف، يا طائر الزنبرك...» قالت ماي كاساهارا وهي تتنحنح.

«ماذا؟»

«إذا كان الناس يعيشون للأبد. إن كانوا لا يشيخون أبداً، ويستمرون في العيش في هذا العالم، ولا يموتون، وفي تمام الصحة دائماً. أتعتقد أنهم سيكلفون أنفسهم عناء التفكير بالأشياء بعمق، كما تفكر الآن؟ أعني، نحن نفكر بكل شيء تقريباً، الفلسفة، وعلم النفس، والمنطق، والدين، والأدب. أعتقد أنه إن لم يكن ثمة شيء اسمه الموت، لما وُجِدت مثل تلك الأفكار المعقدة في العالم. أعني...»

صمتت ماي كاساهارا هنيهة، تعلقت خلالها كلمة «أعني» في ظلام البئر كشظية من فكرة. ربما فقدت الرغبة في قول المزيد. أو ربما كانت بحاجة إلى وقت لتفكر بما ستقوله. انتظرتها في الظلام لتكمل حديثها، ناظراً للأسفل طوال الوقت.

خطر لي أنه إذا أرادت ماي كاساهارا أن تقتلني في الحال، فلن يشكل لها ذلك مشكلة إطلاقاً. يمكنها ببساطة أن تلقي بصخرة كبيرة في البئر. إذا حاولت بضع مرات، فسوف تسقط واحدة على رأسي حتماً.

«أعني... هذا ما أعتقده، لكن... يضطر الناس للتفكير بجدية بشأن ما تعنيه حياتنا هنا الآن *لأنهم يعلمون* أنهم سوف يموتون في وقتٍ ما، صحيح؟ من قد يفكر في معنى أن تكون حياً إذا كنا نحيا ونحيا للأبد؟ لماذا قد يكلفون أنفسهم؟ أو حتى إن كان *ينبغي* لهم أن يكلفوا أنفسهم، فإنهم على الأرجح سيقولون لأنفسهم 'آه، حسناً، أمامي متسع من الوقت لذلك، سأفكر به لاحقاً'، لكننا لا نستطيع الانتظار حتى وقت لاحق. علينا أن نفكر بكل شيء في هذه اللحظة. ربما سوف تدهسني

شاحنة عصر الغد. وأنت، يا طائر الزنبرك، ربما تموت جوعاً، ذات صباح بعد قرابة ثلاثة أيام من الآن، من الممكن أن تكون ميتاً في قعر بئر. أرأيت؟ لا أحد يعلم ما سيحدث. لذلك نحن بحاجة إلى الموت ليجعلنا نتطور. هذا ما أعتقده. الموت هو شيء ساطع وضخم ، وكلما إزداد سطوعاً وضخامة، صار علينا أن نفكر بالأشياء على نحو أكثر جدية».

صمتت ماي كاساهارا قليلاً.

«قل لي، يا طائر الزنبرك...»

«ماذا؟»

«وأنت هناك بالأسفل في الظلام، هل كنت تفكر بموتك؟ بكيفية موتك هنا؟»

تمهلت لأفكر بسؤالها، وقلت: «لا، لم أكن أفكر بهذا».

«لمَ لا؟». سألتني ماي كاساهارا بنبرة اشمئزاز، كما لو كانت تتحدث إلى حيوان ممسوخ. «لماذا لم تكن تفكر بالموت؟ إنك تواجه الموت –حرفياً– الآن. إنني لا أعبث معك. قلت لك من قبل إن مسألة حياتك أو موتك تتوقف عليَّ».

قلت: «يمكنك أن تلقي صخرة».

«صخرة؟ ما الذي تتحدث عنه؟»

«يمكنكِ أن تبحثي عن صخرة كبيرة وتلقيها عليّ».

«حسناً، يمكنني فعل هذا بالطبع».

لكن بدا أنها لم تحبذ الفكرة.

«على أي حال، يا طائر الزنبرك، لا بد أنك تتضور جوعاً، وتسير حالتك من سيئ إلى أسوأ. وسوف ينفد الماء منك. لذلك كيف يمكنك أن *لا* تفكر بالموت؟ ألا تعتقد أن هذا غريب؟».

«بلى، أظن أنه غريب نوعاً ما، لكنني كنت أفكر بأشياء أخرى طوال الوقت. وعلى الأرجح سأفكر بالموت أيضاً، عندما أبدأ أشعر بالجوع حقاً. مازالت أمامي ثلاثة أسابيع قبل أن أموت، صحيح؟».

«هذا *إذا* كان لديك ماء.فهذا ما حدث مع ذلك الروسي. كان من كبار ملاك الأراضي أو ما شابه. ألقاه الحرس الثوري في مدخل منجم، لكن كانت ثمة مياه تتسرب من الجدار، وكان يلعقها فأبقى نفسه حياً. كان في ظلام تام، مثلك تماماً. قلت ليس لديك كثير من الماء، أليس كذلك؟».

قلت بصدق: «لا، بقي القليل».

«إذاً عليك أن تكون حذراً، ارتشف رشفات صغيرة، وخذ وقتك للتفكير بالموت، وعن الكيفية التي ستموت بها. ما يزال أمامك متسع من الوقت».

«لماذا أنتِ عاقدة العزم على حملي على التفكير بالموت. ما مصلحتك في هذا؟»

أجابت ماي كاساهارا بحدة: «ليست لي مصلحة في هذا. ما الذي يجعلك تعتقد أن من مصلحتي أن أحملك على التفكير بموتك؟ إنها حياتك أنت، ليس للأمر علاقة بي. إنني... مهتمة فحسب».

«بدافع الفضول؟»

«نعم، الفضول. حيال كيفية موت الناس. وكيف هو شعور الموت. الفضول».

صمتت ماي كاساهارا. عندما انقطعت محادثتنا، ملأ صمت عميق الفراغ من حولي، كأنه كان ينتظر الفرصة. أردت أن أرفع وجهي وأنظر للأعلى، لأرى ما إذا كان يمكنني رؤية ماي كاساهارا. لكن الضوء كان قوياً جداً. كنت متأكداً أنه سيحرق عينيَّ.

قلت: «ثمة شيء أريد أن أخبرك به».

«حسناً، أخبرني».

«اتخذت زوجتي عشيقاً، إنني متأكد إلى درجة ما على الأقل. لم أدرك ذلك، لكن لشهور، عندما كانت ماتزال تعيش معي، كانت تنام مع ذلك الرجل. لم أستطع تصديق هذا في بادئ الأمر، لكن كلما فكرت، ازددت اقتناعاً. والآن عندما أنظر

للماضي، أرى جميع أنواع التلميحات الصغيرة. كانت تعود إلى المنزل في أوقات غريبة، أو تجفل عندما ألمسها. لكنني لم أستطع فهم الإشارات. وثقت بها. ولم يخطر لي أنها قد تقيم علاقة مع أحدهم قط. لم يخطر لي ذلك فحسب».

قالت ماي كاساهارا: «عجباً».

«وذات يوم، غادرتْ المنزل ولم تعد قط. تناولنا الإفطار معاً في ذلك الصباح. وغادرت إلى العمل مرتدية ملابسها المعتادة. كل ما كانت تحمله معها هو حقيبة يدها، وأخذت بلوزة وتنورة من المغسلة. هذا كل شيء. لا وداع، لا رسالة، لا شيء. ذهبت كوميكو، تاركة خلفها جميع أغراضها، الملابس وكل شيء. وعلى الأرجح لن تعود إلى هنا، إليَّ. ليس برغبتها على الأقل. هذا ما أعرفه».

«أتعتقد أن كوميكو مع الرجل الآخر الآن».

«لا أدري». قلت وأنا أهز رأسي. شعرت بالهواء الذي يتحرك فيه رأسي كأنه ماء ثقيل من نوع ما، دون أن أشعر بسائل. «إنهما معاً على الأرجح».

«إذاً أنت مفجوع الآن يا طائر الزنبرك، ولهذا هبطت إلى البئر».

«إنني مفجوع بالطبع، لإداركي ما كان يحدث. لكنني لست هنا لهذا السبب. إنني لا أختبئ من الواقع. فكما قلت سابقاً، إنني بحاجة إلى مكان يمكنني أن أكون فيه وحدي وأركز على تفكيري. كيف ساءت علاقتي بكوميكو؟ ومتى؟هذا ما لا

أستطيع فهمه. لا أقول إن كل شيء كان مثالياً حتى لحظة اختفائها. رجل وامرأة في العشرينات من عمرهما، لكل منهما شخصية مختلفة تماماً، حدث والتقيا في مكان ما وقررا أن يعيشا معاً. ليس هناك زوجين في أي مكان ليس لديهما حصتهما من المشكلات. لكنني كنت أعتقد أن حياتنا لا بأس بها، وأن أي مشكلة صغيرة سوف تُحل من تلقاء نفسها بمرور الوقت. لكنني كنت مخطئاً. خفي عني شيء مهم. وأفترض أنني ارتكبت خطأً جوهرياً. هذا ما جئت هنا لأفكر به».

لم تقل ماي كاساهارا شيئاً. ازدردت ريقي.

«أتساءل إن كان هذا سيبدو منطقياً لك: عندما تزوجنا قبل ست سنوات، كنا نحاول أن نبني عالماً جديداً لنا، أن نبني منزلاً في قطعة أرض خالية. كانت لدينا صورة واضحة لما كنا نريده. لم نكن بحاجة إلى منزل فخيم أو ما شابه، مجرد مبنى يقينا من تقلبات الطقس، ما دمنا بإمكاننا أن نكون معاً. لم نكن بحاجة إلى أشياء إضافية. التي لن تفعل لنا شيئاً سوى اعتراض طريقنا. بدا لنا كل شيء في غاية البساطة. هل سبق أن شعرتِ بأنكِ ترغبين في الذهاب إلى مكان مختلف تماماً وتصيرين شخصاً مختلفاً تماماً؟».

«بالطبع. أشعر بهذا طوال الوقت».

«حسناً، هذا ما كنا نحاول فعله عندما تزوجنا. أردت الخروج من نفسي، ذاتي التي كانت موجودة حتذاك. وكذلك كوميكو. في عالمنا الجديد ذاك، كنا نحاول

الوصول إلى ذوات جديدة أكثر ملاءمةً لما نحن عليه في أعماقنا. كنا نعتقد أننا يمكننا عيش حياة مثالية تناسب ما كنا عليه».

بدا لي أن ماي كاساهارا غيرت وضعية جلوسها، كنت أستشعر حركتها. وبدت أنها تنتظرني لأواصل حديثي، لكن لم يعد لدي ما أقوله عندها. لم يخطر لي شيء. شعرت بالتعب من صوتي الذي يتردد بين جدران البئر الخرسانية.

«أيبدو لكِ هذا منطقياً؟»

«بالطبع».

«ما رأيكِ في الأمر؟»

«يا هذا، إنني مازلت طفلة، كما تعرف. ولا أعرف شيئاً عن الزواج. ولا أعرف شيئاً عما كان يدور في ذهن زوجتك عندما بدأت تعبث مع رجل آخر أو عندما هجرتك. لكن مما أخبرتني به للتو، أعتقد أن فكرتك خاطئة منذ البداية. أتعرف ما أعنيه يا طائر الزنبرك؟ ما تحدثتَ عنه...، لا أدري، يستحيل على أي شخص فعل شيئاً كهذا. 'حسناً، الآن سأبني عالماً جديداً تماماً'، أو 'حسناً، الآن سأعيد خلق ذاتي'. هذا ما أعتقده. ربما *تعتقد* أنك بنيت عالماً جديداً أو أعدت خلق ذاتك، لكن ذاتك القديمة ستكون موجودة دائماً، متربصة تحت السطح، وعندما يحدث شيء، ستطل برأسها وتقول 'هاي'. يبدو أنك لا تدرك هذا. إنك خُلقت في مكان آخر. وحتى *فكرة* إعادة خلق ذاتك، حتى هذه خُلقت في مكان آخر. حتى أنا أعرف هذا

القدر يا طائر الزنبرك. إنك رجل بالغ، أليس كذلك؟ كيف لا تفهم هذا؟ هذه مشكلة كبيرة في رأيي. ولهذا تتعرض للعقاب على يد جميع أنواع الأشياء. على يد العالم الذي حاولت التخلص منه، وذاتك التي حاولت التخلص منها. أتفهم ما أقوله؟»

ظللت صامتاً أحدق في الظلام الذي يغلف قدميّ. لم أكن أعرف ما عليّ أقوله.

قالت برقّة: «حسناً، يا طائر الزنبرك، تابع تفكيرك. فكر، وفكر، وفكر».

ألقت بالغطاء في مكانه، وأغلقت فوهة البئر مجدداً.

*

أخرجت قارورة الماء من الحقيبة وهززتها، فأصدرت صوتاً خفيفاً، تردد صداه في الظلام. ربما تبقى منها الربع. أسندت رأسي إلى الجدار وأغمضت عيني. ماي كاساهارا محقة على الأرجح. هذا الشخص، هذه الذات، هذه الأنا، خُلقت في مكان آخر. كل شيء جاء من مكان آخر، وسوف يذهب إلى مكان آخر. لم أكن سوى معبر للشخص الذي يعرف بـ أنا.

حتى أنا أعرف هذا يا طائر الزنبرك. كيف لا تفهم هذا؟

11

الجوع باعتباره ألماً

*

رسالة كوميكو الطويلة

*

الطائر نبياً

*

غفوت واستيقظت بضع مرات. كانت فترات قصيرة ومقلقة من النوم، كما يحدث للمرء عندما يكون على متن طائرة. كلما أوشك على الاستغراق في نوم عميق، أجفل واستيقظ. وكلما أوشك على الاستيقاظ التام، أنزلق إلى النوم. وهكذا في حلقة مفرغة لا نهاية لها. مع عدم وجود تغيير في الضوء، كان الزمن يترنّح مثل عربة ذات محور عجلة متقلقل. كان جسدي منهكاً بسبب وضعية جلوسي الغريبة. وفي كل مرة أستيقظ، أنظر إلى ساعتي، التي كان إيقاعها ثقيلاً ومضطرباً.

بما أنني لم يكن لدي شيئاً أفضل لأفعله، كنت أحمل المصباح اليدوي وأصوب أشعته في اتجاهات عشوائية، إلى الأرض والجدران، وغطاء البئر. ودائماً ما كنت أجد الأرض نفسها، والجدران نفسها، وغطاء البئر نفسه. وكانت الظلال التي يكوّنها الضوء المتحرك تتراقص، وتتمدد وتتقلص، وتنتفخ وتتكمش. وعندما أسأم من هذا، أمضي الوقت متحسساً وجهي، متلمساً كل انحناءاته وتجاويفه، مدققاً في

قسماتي مجدداً لأحفظ شكلها. لم أكن مهتماً جدياً بشكل أذني من قبل. إذا طلب أحدهم مني أن أرسم صورة لأذنيّ – حتى ولو مجرد شكل تقريبي– لكنت في حيرة من أمري. لكن الآن، لتمكنت من تصوير كل انحناءة وتجويف بتفاصيل دقيقة. استغربت من مدى اختلاف أذنيّ عن بعضهما. لم تكن لدي فكرة عن سبب الاختلافات أو عن أثر عدم التناظر هذا. (لديه أثر ما على الأرجح).

أشارت عقارب ساعتي إلى السابعة وثمانية وعشرين دقيقة. لا بد أنني نظرت إلى ساعتي قرابة ألفي مرة منذ نزولي إلى البئر. كانت السابعة وثمانية وعشرين دقيقة مساءً، هذا مؤكد. في مباراة بيسبول، ستكون نهاية الربع الثالث أو بداية الربع الرابع.كنت أحب الجلوس، عندما كنت طفلاً، في مكان عال في مدرجات أقصى الملعب وأشاهد نهار الصيف وهو يحاول ألا يزول. الشمس تغوص في الأفق الغربي، لكن الشفق ما يزال متألقاً وجميلاً. تلقي أضواء الملعب بظلال طويلة، كما لو أنها تلمّح إلى شيء ما. كانت تضاء واحدة تلو الأخرى. مع ذلك كان ثمة ضوء كاف في السماء يمكّن من قراءة صحيفة. ظلت ذاكرة وحجم النهار الطويل تحرس الباب لتمنع ليل الصيف من الدخول.

لكن الإضاءة الصناعية كانت تكسب معركتها مع ضوء الشمس، بصبر ومثابرة، جالبة معها فيضاً من الألوان البهيجة. خضرة أرضية الملعب اليانعة، والتراب الأسود الجميل، والخطوط البيضاء المستقيمة التي رُسمت حديثاً، ولمعان مضارب اللاعبين، ودخان السجائر الذي يسبح في فيض الضوء (الذي يبدو في

الأيام التي يكون هواؤها ساكناً مثل أرواح تبحث عن شخص لتحل فيه). كل هذا يبدأ بالظهور بجلاء تام. يرفع باعة الجعة الصغار أياديهم، ويلوحون بالنقود التي بين أصابعهم. ينهض الجمهور من مقاعدهم ليتابعوا مسار كرة تحلق عالياً، وترتفع أصواتهم مع القوس الذي تتخذه، أو تذوب في تنهيدة. أسراب صغيرة من الطيور تطير بارتفاع منخفض ناحية البحر عائدة إلى أوكارها. كان هذا هو الملعب في المساء عند السابعة والنصف.

تذكرت مباريات البيسبول التي شاهدتها على مر الأعوام. جاء فريق سانت لويس كاردينالز إلى اليابان مرة، عندما كنت صغيراً، ليلعب مباراة ودية. شاهدت تلك المباراة مع والدي من معقد قريب من أرضية الملعب. قبل المباراة نفسها، وقف لاعبو كاردينالز حول حدود الملعب ومعهم سلال مليئة بكرات تنس تحمل توقيعاتهم، وراحوا يلقونها نحو المدرجات بأسرع ما يمكنهم. فقد الناس صوابهم وكل منهم يحاول أن يلتقط كرة لنفسه، لكنني ظللت جالساً في مقعدي دون حراك، وقبل أن أعي ما يحدث، سقطت كرة في حجري. كان حدثاً سحرياً، غريباً ومفاجئاً.

نظرت إلى ساعتي مجدداً. السابعة وست وثلاثون دقيقة. انقضت ثمانية دقائق منذ آخر مرة نظرت إليها. ثمانية دقائق فحسب. نزعت الساعة وقربتها من أذني، فأوحى لي صوتها بأنها على ما يرام. هززت كتفي في الظلام. شيء غريب كان يحدث لإحساسي بالزمن. قررت ألا أنظر إلى الساعة بعض الوقت. ربما لم يكن لدي أي شيء آخر لأفعله، لكن النظر إلى الساعة على ذلك النحو المتكرر لم يكن

صحيّاً. مع ذلك، بذلت مجهوداً خارقاً حتى أمنع نفسي من النظر إليها. كان الألم شبيهاً بذلك الذي شعرت به عندما أقعلت عن التدخين. منذ اللحظة التي قررت فيهاالتوقف عن التفكير بالوقت، لم يستطع عقلي التفكير بأي شيء آخر. كان نوعاً من التناقض الفصامي. كلما حاولت نسيان أمر الوقت، وجدتني مرغماً على التفكير به. دون أن أعي ما يحدث، تبحث عيناي عن الساعة على معصمي الأيسر. ومتى ما حدث هذا، كنت أشيح بوجهي، وأغمض عيني، وأجاهد لكي لا أنظر. انتهي بي المطاف وأنا أنزع الساعة وأقحمها في حقيبة الظهر. ومع ذلك، واصل عقلي تحسس الساعة داخل الحقيبة، حيث كانت تتابع دقاتها الصغيرة معلنةً مرور الوقت.

وهكذا تدفق الوقت في الظلام، محروماً من تقدم عقارب الساعة، وقت بلا تقسيم أو مقياس. وحالما فقد نقاط ترسيم حدوده، توقف الزمن عن كونه خطاً مستقيماً مستمراً، وصار، بدلاً من ذلك، نوعاً من أنواع السوائل، لاشكل له، يتمدد ويتقلص وفقاً لإرادته. خلال هذا النوع من الوقت، نمت واستيقظت،ثم نمت واستيقظت. واعتدت تدريجياً وعلى نحو متزايد على الحياة بدون ساعة. دربت جسدي ليدرك أنني لم أعد بحاجة إلى الوقت. لكن سرعان ما شعرت بقلق هائل. صحيح إنني حررت نفسي من عادة النظر إلى ساعتي كل خمس دقائق المثيرة للأعصاب، لكن ما إن تلاشى الإطار المرجعي للزمن تماماً. بدأت أشعر كما لو أنني أُلقيت في المحيط ليلاً من سطح سفينة متحركة. لم يلاحظ أحد صرخاتي، وواصلت السفينة طريقها، مبتعدة أكثر فأكثر حتى أوشكت على التواري عن نظري.

أخرجت الساعة من الحقيبة، متخلياً عن مجهوداتي، وأعدتها إلى معصمي. كانت عقاربها تشير إلى السادسة والربع، السادسة والربع صباحاً على الأرجح. آخر مرة نظرت فيها إلى الساعة كانت عند السابعة وست وثلاثين دقيقة مساءً. بدا لي أنه من المعقول أن تكون إحدى عشرة ساعة قد انقضت منذ ذلك الوقت. ومن المستبعد أن تكون ثلاثاً وعشرين ساعة. لكن لم يكن بوسعي الجزم. ما الفرق الجوهري بين إحدى عشر ساعة وثلاث وعشرين ساعة؟ أياً كانت –إحدى عشرة أو ثلاث وعشرين– فإن جوعي أصبح لا يطاق. لم يكن إحساس الجوع الشديد مثلماً تخيلته. كنت قد أفترضت أن الجوع سيكون شعوراً بغياب شيء. بدلاً من ذلك، كان أقرب إلى ألم جسدي محض، مادي ومباشر، مثل التعرض للطعن أو الخنق. كما كان الألم متفاوتاً، ويفتقر للاتساق. كان يرتفع مثل مد متضخم حتى أبلغ حافة الإغماء، ثم ينحسر تدريجياً.

لأشتت انتباهي عن وخزات الجوع المؤلمة تلك، حاولت تركيز أفكاري على شيء آخر. لكن كان يستحيل علي أن أفكر تفكيراً جاداً. تنبثق شظاياً الأفكار في عقلي، ثم تتلاشي بنفس سرعة انبثاقها. كلما حاولت الإمساك بواحدة، تنزلق من بين أصابعي مثل حيوان لزج لا شكل له.

نهضت وتمددت وأخذت نفساً عميقاً. آلمتني جميع أجزاء جسدي. كل عضلة وكل مفصل كان يصرخ من الألم بسبب جلوسي بوضعية خرقاء مدة طويلة. تمطيت للأعلى ببطء، ثم ثنيت ركبتيّ عدة مرات، لكن بعد عشرة مرات،شعرت بالدوار.

فتهالكت على الأرضية مجدداً، وأغمضت عينيّ. كانت أذناي تطنّان، والعرق ينحدر على وجهي. أردت الإمساك بشيء ما. لكن لم يكن هناك شيء لأمسك به. شعرت برغبة في التقيؤ، لكن لم يكن في جوفي شيء يمكنني تقيؤه. وحاولت التنفس بعمق، آملاً أن أنعش ذهني بتبديل الهواء الذي بداخل جسدي، وتعزيز دورتي الدموية، لكن الغيوم التي في ذهني لم تنقشع. قلت لنفسي، *إن جسدي في غاية الضعف الآن*. وفي الواقع، حاولت أن أقول الكلمات بصوت عالٍ: 'جسدي في غاية الضعف الآن'. لكن فمي واجه صعوبة في تشكيل الكلمات. قلت لنفسي، *ليتني أستطيع رؤية النجوم*، لكن لم أكن أستطيع رؤية النجوم. أغلقت ماي كاساهارا فوهة البئر.

افترضت أن ماي كاساهارا سوف تعود إلى البئر مجدداً في وقت ما خلال الصباح، لكنها لم تأت. أمضيت الوقت في انتظار وصولها، متكئاً على الجدار. لازمني شعور الغثيان طوال الصباح، وفقد عقلي المقدرة على تركيز نفسه على أي أفكار، ولو لبرهة وجيزة. ظلت وخزات الجوع تعاودني من وقت لآخر، والظلام من حولي يتكاثف ويخف. ومع كل موجة جوع، تقل مقدرتي على التركيز.

مرت فترة الظهر، ولم تظهر ماي كاساهارا. أغمضت عيني وحاولت أن آخذ قسطاً من النوم، آملاً آن أحلم بكريتا كانو. لكنني لم أنم نوماً عميقاً بحيث أحلم فيه. بعدما تخليت عن مجهوداتي في التركيز على التفكير، بدأت جميع أنواع أجزاء الذكريات تزورني، حَضَرتْ في صمت، مثل ماء يملأ كهفاً تحت الأرض ببطء. أماكن زرتها، وأناس قابلتهم، جروح أصبت بها، وحوارات خضتها، وأشياء اشتريتها،

وأشياء فقدتها: كنت قادراً على تذكرها جميعها بجلاء وتفاصيل مذهلة. تذكرت منازل وشقق عشت فيها، بنوافذها وخزاناتها وإضاءتها. تذكرت أساتذتي الذين درسوني، من المدرسة الإبتدائية حتي الجامعة. قلة من هذه الذكريات كانت متصلة ببعضها، وكانت تافهة لا معنى لها، تتداعي دون ترتيب زمني. ومن حين لآخر، تقاطع نوبة من وخزات الجوع المؤلمة تدفق ذكرياتي، لكن كل ذكرى كانت جلية على نحو مذهل، وهزّتني بقوة إعصار.

لبثت جالساً أشاهد عقلي يسعى خلف تلك الذكريات، حتى تذكرت حادثة وقعت في المكتب قبل ثلاثة أو أربعة أعوام. كانت مشكلة عبثية تافهة، لكن كلما تذكرت تفاصيلها الغريبة، تزايد شعوري بالضيق، حتى تحول الضيق إلى غضب عارم. الغضب الذي تملكني كان مستعراً لدرجة أنه حجب كل شيء آخر – إنهاكي، وجوعي، ومخاوفي– وسبّب لي الارتعاش وصار تنفسي لاهثاً. خفق قلبي بصوت مسموع، وضخ الغضب دمي المشبع بالأدرينالين. كان جدالاً بدأ من سوء تفاهم بسيط. قذفني الرجل الآخر ببعض العبارات المسيئة، وتمكنت من قول ما لدي أيضاً. لكن كلينا أدرك مدى تفاهة المسألة برمّتها واعتذر بعضنا لبعض، واضعين حداً للموضوع دون إضمار أي ضغائن. هذه الأشياء تحدث: تكون مشغولاً، ومرهقاً، ويفلت منك تعليق لم تفكر به ملياً. نسيت المسألة برمتها. لكن في ظلام البئر الحالك، بعيداً جداً عن الواقع، عادت تلك الذكرى إلى الحياة بوضوح تام. كنت أشعر بحرارتها عليّ، وأسمعها تشوي جلدي. لماذا كان ردي على مثل ذلك التعليق الشائن

بمثل ذلك الضعف؟ الآن خطرت لي الأشياء التي كان ينبغي لي أن أقولها للرجل. صقلتها وشحذتها. وكلما ازدادت حدة، ازددت غضباً.

ومن ثم، ودون أي مقدمات، حلّعني الشيطان الذي كان يتلبسني، ولم يعد أي من هذا يهم. لماذا كان عليّ بعث مثل هذه الذكريات الميتة؟ ما الفائدة من ذلك؟ على الأرجح نسي ذلك الرجل ذلك الجدال منذ وقت طويل. أنا أيضاً نسيته، حتى هذه اللحظة. أخذت نفساً عميقاً، وأرخيت كتفي وغصت بجسدي في الظلام. حاولت ملاحقة ذكرى أخرى، لكن حالما زال الجوع الرهيب، نفدت مني الذكريات. وصار رأسي خاوياً مثل معدتي.

بعد ذلك، ودون أن أعي ما يحدث، وجدتني أتحدث إلى نفسي، أهمهم بأفكار لم أكن أعرف أنني أمتلكها. ولم أستطع إيقاف نفسي. سمعت فمي وهو يصوغ كلمات، لكنني لم أكن أفهم شيئاً مما كنت أقوله. كان فمي يتحرك من تلقاء نفسه، آلياً، ويحيك سلاسل طويلة من الكلمات في الظلام، كلمات لم أتمكن من استيعاب معناها، تخرج من ظُلمة، وتُمتص في ظلمة أخرى. لم يكن جسدي سوى نفق خالي، قناة لنقل الكلمات من هناك إلى هنا. كانت أجزاء أفكار قطعاً، لكنها أفكار تشكلت خارج وعيي.

ما الذي يحدث هنا؟ هل بدأت أفقد أعصابي؟ نظرت إلى ساعتي. فوجدت عقاربها تشير إلى الثالثة واثنين وأربعين دقيقة. الثالثة واثنين وأربعين دقيقة بعد

الظهر على الأرجح. تصورت منظر الضوء عند الثالثة واثنين وأربعين دقيقة في عصر أحد أيام الصيف. تخيلت نفسي في ذلك الضوء،وحاولت الإصغاء إلى كل صوت قد تلتقطه أذناي، لكن لم يكن ثمة صوت: لا صيحات طيور، أو زيز حصاد، أو أصوات أطفال. أثناء وجودي في البئر، ربما لم يُدِر طائر الزنبرك الزنبرك، أو ربما توقف العالم عن الحركة. فقد الزنبرك قوته الدافعة شيئاً فشيئاً. وفي مرحلة ما، توقفت كل الحركات. انسياب الأنهار، وارتعاش أوراق الأشجار، وتحليق الطيور عبر السماء.

ما الذي كانت ماي كاساهارا تفعله؟ لماذا لم تأتِ؟ لم تظهر منذ مدة طويلة. صعقتني فكرة أن شيئاً مروعاً ربما حدث لها. فلنقل حادث حركة. وفي هذه الحالة، لم يعد هناك أحد آخر في العالم يعرف أنني هنا بالأسفل. وإنني حقاً سأموت موتاً بطيئاً في قاع البئر. قررت أن أنظر للأمر من ناحية مختلفة. ماي كاساهارا ليست مهملة إلى هذا الحد، ولن تدع سيارة تصدمها بسهولة. كانت في غرفتها على الأرجح، تمسح الباحة بمنظارها بين الفنية والأخرى، وتتخيلني هنا أسفل البئر. كانت تفعل هذا عن عمد. تدع وقتاً طويلاً يمر حتى تشعرني بالخوف وبأنني تم التخلي عني. كان هذا هو تخميني. وإذا كانت تدع الوقت يمر عن عمد، فإن خطتها كانت ناجحة على نحو مثير للإعجاب. كنت خائفاً حقاً. وشعرت بأنني هُجرت. كلما خطرت لي فكرة أنني قد أتعفن هنا في الظلام فترة طويلة، أتنفس بالكاد بسبب الخوف الذي يُحكم خناقه عليّ. كلما مر الوقت، أزداد ضعفاً، حتى تصير وخزات

جوعي عنيفة بما يكفي لتقتلني. لكن قبل حدوث ذلك، ربما أفقد المقدرة على تحريك جسدي بإرادتي. حتى إذا أنزل أحدهم لي سلم الحبال، فربما لا أتمكن من تسلقه. وسوف يتساقط شعري وجميع أسناني.

ثم خطر لي أن أقلق بشأن الهواء، ظللت في قاع هذه الأسطوانة الخرسانية الضيقة أكثر من يومين، ومما زاد الطين بلة، أُغلقت الفوهة. لم تكن ثمة حركة هواء تُذكر. فجأة بدأت أشعر بالهواء من حولي ثقيلاً وخانقاً. لم أستطع الجزم ما إذا كانت مخيلتي تتلاعب بي أم أن الهواء فعلاً كان ثقيلاً بسبب نقص الأكسجين. لأعرف ذلك، قمت بعمليات شهيق وزفير عميقة. لكن كلما تنفست ازدادت حالتي سوءاً. وجعلني الخوف أتصبب عرقاً. حالماً بدأت في التفكير بالهواء، غزا الموت عقلي باعتباره واقعاً وشيكاً. انبجس مثل مياه سوداء صامته، متسللاً إلى كل ركن من أركان وعيي. كنت أفكر، حتى تلك اللحظة، باحتمال موتي جوعاً. وفي هذه الحالة سيكون أمامي مستع من الوقت. سيحدث كل شيء سريعاً إذا نفد الأكسجين.

كيف هو شعور الموت اختناقاً؟ ما المدة التي يستغرقها؟ هل ستكون عملية بطيئة ومؤلمة، أم سأفقد وعيي تدريجياً وأموت كما لو كنت أنام؟ تخيلت ماي كاساهارا وهي تأتي إلى البئر وتجدني ميتاً. ستناديني عدة مرات، وعندما لا أجيبها، ستلقى ببعض الحصى في البئر ظناً منها أنني نائم. لكنني لن أستيقظ. عندها ستدرك أنني ميت.

أردت أن أصيح منادياً أحدهم. أردت أن أصرخ بأنني حبيس هنا، وأنني جائع، وأن الهواء لم يعد صالحاً. شعرت بأنني عدت طفلاً صغيراً بائساً. هربت بسبب نزوة ولن أجد طريق العودة إلى المنزل أبداً. نسيت الطريق. كان حلماً رأيتة عدة مرات. كان كابوس صباي. أضِل، وأفقد طريق العودة. كنت قد نسيت كل تلك الكوابيس منذ سنوات. لكن عندئذٍ، في قاع تلك البئر العميقة، عادت للحياة مجدداً بجلاء رهيب. عاد الزمن للوراء في الظلام، ليبتلعه نوع مختلف من الزمن.

أخرجت قارورة الماء من حقيبة الظهر، وفتحت غطاءها بعناية شديدة، حتى لا أفقد نقطة واحدة، تركت كمية قليلة من الماء تجد طريقها إلى فمي.واحتفظت بها في فمي مدة طويلة، ثم ابتلعتها بأبطأ ما يمكن. صدر صوت عال من حلقي. كما لو أن شيئاً ثقيلاً صلباً سقط على الأرضية، لكنه كان مجرد صوت ازدراد بضع قطرات ماء.

*

«سيد أوكادا!»

كان أحدهم يناديني. سمعت الصوت أثناء نومي.

«سيد أوكادا! سيد أوكادا! استيقظ من فضلك!»

بدا لي كصوت كريتا كانو. تمكنت من فتح عيني، لكن ذلك لم يغير في الأمر شيئاً، فقد كنت ما أزال محاطاً بالظلام ولا أستطيع رؤية شيء. لم تكن ثمة حدود واضحة بين النوم واليقظة. حاولت الاعتدال في جلستي، لكن لم تكن لدي قوة كافية في أصابعي. شعرت بجسدي بارداً وذابلاً، مثل قطعة خيار منسية في الجزء الخلفي من ثلاجة. وكان عقلي مكبّلاً بالإرهاق والوهن. قلت، لا أكترث، افعلي ما يحلو لك، إن كان هذا ما تريدينه. في وعيي الضبابي، انتظرت يديها لتنزع حزامي، لكن صوت كريتا كانو كان يأتيني من مكان بعيد فوقي «سيد أوكادا! سيد أوكادا!» كانت تناديني. نظرت للأعلى. لأجد نصف غطاء البئر مفتوحاً وفوقها سماء جميلة مليئة بالنجوم. سماء على شكل نصف قمر.

«أنا هنا!».

اعتدلت وتمكنت من الوقوف. ونظرت للأعلى وهتفت مجدداً: «أنا هنا!»

قالت كريتا كانو *الحقيقية:* «سيد أوكادا! هل أنت هناك بالأسفل؟»

«نعم، أنا هنا!»

«كيف حدث هذا؟»

«إنها قصة طويلة».

«المعذرة. لا أستطيع سماعك بوضوح. أيمكنك التحدث بصوت أعلى قليلاً؟»

هتفت: «إنها قصة طويلة! سأخبرك عنها عندما أخرج من هنا. لا أستطيع الحديث بصوت عال الآن».

«هل هذا هو سلم الحبال الخاص بك هنا بالأعلى؟»

«نعم ، إنه هو».

« كيف رفعته إلى هنا؟ هل ألقيته؟»

«لا بالطبع!» لمَ عساي قد أفعل شيئاً كهذا؟ كيف يمكنني فعل شيء كهذا؟ «بالطبع لا! رفعه أحدهم دون علمي».

«لكن هذا سيجعل خروجك من البئر مستحيلاً».

«بالتأكيد». قلت متحلياً بالصبر قدر الإمكان.«هذا ما حدث. لا أستطيع الخروج من هنا. لذلك أيمكنك أن تسديني معروفاً وتُنزلي السلم؟ هكذا يمكنني الخروج».

«نعم. بالطبع. سأنزله».

«مهلاً لحظة! قبل أن تنزليه، أيمكنك أن تتاكدي من أنه مربوط بأحكام إلىجذع الشجرة؟ وإلّا...»

لكنها لم تكن تجيب. بدا لي أن لا أحد هناك. ركزت بصري على فوهة البئر بقدر ما استطعت، لكنني لم أتمكن من رؤية أي أحد. أخرجت المصباح اليدوي من

الحقيبة وصوبت أشعته للأعلى، لكن الضوء لم يسقط على أي شكل بشري.وما كشف عنه هو سلم الحبال، متدلياً حيث يجب أن يكون، كما لو أنه كان في مكانه طوال الوقت. تنفست الصعداء، وشعرت، مع تنهيدتي، بعقدة صلبة في مركز جسدي ترتخي وتذوب.

«أنت هناك ! كريتا كانو!» هتفت، لكن ما من مجيب.

أشارت عقارب ساعتي إلى الواحدة وسبع دقائق. الواحدة وسبع دقائق ليلاً بالطبع. بريق النجوم فوقي هو ما دلني على ذلك. علقت الحقيبة على ظهري، وأخذت نفساً عميقاً، ثم شرعت في الصعود. كان سلم الحبال المتأرجح صعب التسلق. مع كل مجهود أبذله، تئن جميع عضلاتي ومفاصلي وعظامي. صعدت درجة تلو الأخرى بحذر شديد. وسرعان ما استشعرت شيئاً من الدفء في الهواء المحيط بي، ثم رائحة العشب المميزة، ثم بلغ صرير الحشرات مسامعي. وضعت يدي على حافة حاجز البئر، وبمجهود أخير، رفعت نفسي فوقه، وتدحرجت على سطح الأرض. صرت فوق سطح الأرض مجدداً. ولبعض الوقت، ظللت ممداً على ظهري فحسب، لا أفكر بأي شيء. نظرت إلى السماء وتنفست بعمق، مرة تلو الأخرى، هواء أمسية صيفية دافئة، تعبق برائحة الحياة المنعشة. كنت أشم رائحة التراب، ورائحة العشب. الرائحة وحدها كانت كافية لتمنح يديَّ إحساس ملامسة التراب والعشب، وأردت أن آخذ منها حفنه بيديّ وألتهمها. لم تعد هناك أي نجوم

يمكن رؤيتها في السماء، ولا واحدة. تلك النجوم لم يكن من الممكن رؤيتها إلا من قاع بئر. ولم يكن في السماء سوى قمر بدين شبه مكتمل.

ليست لدي فكرة عن الوقت الذي أمضيته مستلقياً بجانب البئر. ولوقت طويل، كل ما كنت أسمعه هو نبض قلبي. شعرت بأنني يمكنني العيش للأبد، لا أفعل شيئاً سوى الاستماع إلى نبض قلبي. وفي النهاية، نهضت من الأرض ونظرت فيما حولي. لم يكن هناك أحد. تتمدد أطراف الحديقة وتذوب في الليل، وتمثال الطائر يحدق إلى السماء كعهدي به. وما من أضواء في منزل ماي كاساهارا. ولم يكن هناك سوى مصباح زئبقي في باحتها، يلقي ضوءه الشاحب إلى حدود الزقاق المهجور. أين من الممكن أن تختفي كريتا كانو؟

على أي حال، أول ما كان علي فعله هو الذهاب إلى المنزل. أذهب إلى المنزل، أشرب شيئاً، وأتناول شيئاً، وآخذ حماماً طويلاً. كانت رائحتي كريهة على الأرجح. وعلي التخلص من الرائحة قبل كل شيء، ثم أملأ معدتي الخاوية. وكل ما عدا ذلك سيأتي وقته لاحقاً.

اتبعت طريقي المعتاد عائداً إلى المنزل، لكن الزقاق بدا لي مختلفاً، وغير مألوفاً، ربما بسبب ضوء القمر الغريب. وبرزت لي علامات الركود والخراب بروزاً واضحاً غير معتاد، وكنت أشم رائحة حيوانات ميتة، وعفونة البراز والبول. كان الناس مايزالون مستيقظين في عدد من المنازل، يتحدثون أو يأكلون أثناء مشاهدة

التلفاز.تسللت رائحة طعام دسم عبر إحدى النوافذ، متحرشةً بدماغي ومعدتي. ومررت جوار مكيف هواء فغمرني بهواء دافيء. وسمعت صوتاً صادراً من حمام، ورأيت ظلاً ضبابياً لأحدهم عبر نافذة الحمام.

تمكنت من تسلق الجدار المحاذي لمنزلي وهبطت في الباحة. من مكاني، بدا المنزل غارقاً في ظلام كثيف كأنه يحبس أنفاسه. ولم يوحِ لي بأي شيء من الدفء والحميمية. كان من المفترض أن يكون المنزل الذي كنت أعيش فيه حياتي يوماً بعد يوم، لكنه عندئذٍ كان مجرد مبنى خال دون أثر لأي إنسان مرّ به. لكن إن كان لدي منزل أعود إليه، فهو ذلك.

خطوت إلى الشرفة وسحبت الباب الزجاجي. كان الهواء راكداً وثقيلاً، نظراً لأن المنزل كان مغلقاً مدة طويلة. وكانت تنبعث منه رائحة خليط من فاكهة مفرطة النضج ومبيد حشرات. وجدت الرسالة القصيرة التي تركتها على طاولة المطبخ ماتزال في مكانها. والأطباق التي غسلتها ظلت في مكانها بنفس الترتيب الذي تركتها عليه على لوح التجفيف. أخذت كأساً وملأته بماء الصنبور وشربت عدة كؤوس. لم يكن في الثلاجة شيئاً يذكر. بقايا أطعمة تجمعت كيفما اتفق، ومكونات أُستخدم منها القليل: بيض، ولحم خنزير، وسلطة بطاطس، وباذنجان، وخس، وطماطم، وتوفو، وجبنة سائلة، وحليب. سكبت بعضاً من الحليب في وعاء من رقائق الذرة وأكلت. من المفترض أنني أتضوّر جوعاً، لكن بعدما رأيت طعاماً حقيقياً في الثلاجة، كدت ألا أشعر بأي جوع، بل كنت أشعر – إن كان لدي شعور– بغثيان خفيف. مع ذلك،

حتى أخفف ألم معدتي الخاوية، أتْبعت رقائق الذرة ببعض البسكويت، وبهذا لم أرغب في أكل المزيد.

ذهبت إلى الحمام، ونزعت جميع ملابسي، وألقيتها في المغسلة. وقفت تحت الدش وفركت كل بوصة في جسدي وغسلت شعري. كان غطاء الشعر البلاستيكي الخاص بكوميكو ما يزال معلقاً في الحمام، وكذلك الشامبو الخاص بها، والفرشاة البلاستكية، وفرشاة الأسنان، وخيط تنظيف الاسنان. بدا كل شيء كما تركَته قبل مغادرتها. التغيير الوحيد الذي جلبه غيابها كان حقيقة واحدة بسيطة: كوميكو لم تعد هنا.

وقفت إزاء المرآة وتفحصت وجهي، كان مغطى بلحية سوداء قصيرة. بعد لحظة من التردد، قررت أن أحلق. قلت لنفسي، إذا حلقت الآن، فسأجرح نفسي على الأرجح، صباح الغد سيكون أفضل. لم تكن علي مقابلة أي أحد. نظفت أسناني، وتمضمضت عدة مرات، وغادرت الحمام. ثم فتحت علبة جعة، وأخرجت الطماطم والخس من الثلاجة، وأعددت سلطة. وحالما أكلتها، بدأت أشعر ببعض الرغبة في الأكل، لذلك أخرجت بعضاً من سلطة البطاطس، ووضعتها بين شريحتين من الخبز، وأكلت. لم أنظر إلى الساعة سوى مرة واحدة. كم ساعة أمضيتها في البئر؟ لكن مجرد التفكير بالزمن جعل رأسي ينبض. لا، لا أريد التفكير بالزمن. هذا أكثر ما أرغب في تجنب التفكير بشأنه.

ذهبت إلى دورة المياه وتبولت وقتاً طويلاً، مغمضاً عيني. لم أكد أصدق المدة التي استغرقتها. شعرت بأنني قد يغمى عليّ وأنا أقف في الحمام. ومن ثم اتجهت إلى صالة الجلوس، وتمددت على الأريكة، وحدقت إلى السقف. كان أغرب شعور أختبرته: كان جسدي مرهقاً، لكن عقلي كان مستيقظاً تماماً. ولم أشعر بأقل قدر من النعاس.

*

خطر لي فجأة أن أتحقق من صندوق البريد. ربما يكون أحدهم قد راسلني أثناء وجودي في البئر. ذهبت إلى المدخل ووجدت أن رسالة واحدة وصلتني. لم يحمل الظرف عنوان المرسل لكن الكتابة على الوجه الأمامي كانت بخط كوميكو. كُتبت كل الرموز الصغيرة بدقة متناهية، كأنما رُسمت رسماً. كان أسلوب كتابة يستغرق وقتاً، لكنها الطريقة الوحيدة التي كانت تعرفها. انتقلت عيناي إلى خاتم البريد على الفور. كان ملطخاً ومقروءاً بالكاد، لكنني تبيّنت بصعوبة الرمز 'تاكا'، وربما 'موتسو'. تاكاماتسو التي في مقاطعة كاغاوا؟ لم تكن كوميكو تعرف أحداً في تاكاماتسو على حد علمي. لم يذهب كلانا إلى هناك قط، ولم تقل شيئاً عن ركوب العبّارة إلى شيكوكو أو عبور الجسر الجديد. الاسم تاكاماتسو، ببساطة، لم يدخل أياً من حواراتنا قط. ربما لم تكن الكلمة تاكاماتسو.

مهما يكن، حملت الرسالة إلى المطبخ. وجلست إلى الطاولة، واستخدمت مقصاً لفتح الظرف، محاذراً ألّا أقطع الورق بداخله. شربت جرعة من جعتي المتبقية،لأهدئ نفسي.

كتبت كوميكو بحبر مون بلان الأزرق الداكن الذي تستخدمه دائماً. وكان الورق هو ورق الرسائل العادي الخفيف الذي يباع في كل مكان:

«لا بد أنك صُدِمتَ وقلقت عندما اختفيت فجأة دون أي كلمة. كنت أنوي الكتابة لك في وقت أبكر وأفسر كل شيء كما ينبغي، لكن الوقت أفلت مني وأنا أطيل التفكير في الكيفية التي يمكنني أن أعبر بها عن مشاعري بدقة أو أوضح موقفي الحالي حتى تستطيع أن تفهمني. أشعر بالذنب حيال هذا.

ربما بدأت تشك، بحلول هذا الوقت، أنني ارتبطت برجل. كنت أقيم معه علاقة جنسية لما يقارب ثلاثة أشهر. كان رجلاً قابلته في العمل، لا تعرفه إطلاقاً، ولا يهم كثيراً من هو. لن أراه مجدداً أبداً. انتهت العلاقة، بالنسبة لي على الأقل. ربما تجد في هذا شيئاً من العزاء، وربما لا تجد.

هل كنت أحبه؟ لا توجد طريقة يمكنني الإجابة بها عن هذا السؤال. السؤال نفسه يبدو غير ذي صلة. هل كنت أحبك؟ يمكنني الإجابة عن هذا دون أدنى تردد: نعم، لطالما كنت في غاية السعادة لأنني تزوجتك، وما يزال هذا هو شعوري. لماذا إذاً، ربما تتساءل، كان عليّ أن أقيم علاقة مع أحدهم، ولأكمل المهمة، تركت

المنزل؟ سألت نفسي هذا السؤال مراراً وتكراراً وأنا أقيم معه علاقة: لماذا عليّ أن أفعل هذا؟

ليست ثمة طريقة يمكنني أن أفسر بها الأمر. لم تكن لدي أدنى رغبة في اتخاذ عشيق أو إقامة علاقة غير شرعية. مثل هذه الأفكار كانت أبعد ما تكون عن عقلي عندما بدأت مواعدته. التقينا بضع مرات لأسباب متصلة بالعمل، ورغم أننا وجدنا سهولة في الحديث مع بعضنا، معظم ما حدث بعد ذلك كان تعليقات عابرة على الهاتف تجاوزت حدود العمل. كان أكبر مني بكثير، ولديه زوجة وأطفال، ولم يكن جذاباً على نحو خاص بالنسبة لي بوصفه رجلاً. لم يخطر لي قط أنني قد أرتبط به ارتباطاً جاداً.

لا أعني بهذا القول أن فكرة الانتقام منك لم تدر بخلدي. ما تزال تعتمل في صدري حقيقة أنك أمضيت ليلة مع امرأة ما ذات مرة. صدقتك عندما قلت إنك لم تفعل شيئاً معها، لكن مجرد حقيقة أنك لم تفعل معها شيئاً لا تزيل الغبار عن فعلتك. هذا ما شعرت به فحسب. لكن مع ذلك، لم أقم علاقة مع ذلك الرجل لأنتقم منك. أتذكر قولي إنني سأفعل، لكن ذلك لم يكن سوى تهديد. نمت معه لأنني أردت أن أنام معه، لأنني لم أستطع تحمل عدم النوم معه. لأنني عجزت عن كبح رغبتي الجنسية.

التقينا بداعي العمل ذات مرة، لم نكن قد التقينا قبلها منذ مدة، وبعد الفراغ من العمل، تناولنا العشاء معاً ثم ذهبنا إلى مكان ما لنتناول مشروباً سريعاً. وبما أنني لا أستطيع الشراب، بالطبع، فإن كل ما تناولته، للمجاملة فحسب، كان كاساً من عصير البرتقال دون أي قطرة من الكحول. لذلك لم يكن للكحول علاقة بما حدث. كنا نتحدث ونأكل فحسب بطريقة عادية للغاية. لكن خلال لحظة، لمسنا بعضنا عَرَضياً، وكل ما استطعت التفكير به هو أنني أريد أن أكون بين ذراعيه. في لحظة ملامستنا، عرفت أنه يرغب في جسدي، وبدا لي أنه استشعر أنني أرغب في جسده. كأنما مرت بنا شحنة كهربائية غامرة وطائشة. شعرت كما لو أن السماء تهاوت علي. التهب خدّاي، وخفق قلبي بعنف. واعتراني شعور ثقيل أسفل خصري كأنني أذوب. كنت أجلس بالكاد على مقعد الحانة، كان شعوراً طاغياً. لم أدرك ما كان يحدث بداخلي في بادئ الأمر، لكن سرعان ما أدركت أنها الشهوة. شعرت برغبة عارمة تجاهه لدرجة أنني كنت أتنفس بالكاد. سرنا إلى فندق مجاور، دون أن يكون أي منا هو المبادر بالاقتراح، وأقمنا علاقة جامحة.

كتابة ما حدث صراحة هكذا سوف تؤلمك على الأرجح، لكنني أعتقد، على المدى الطويل، أن سرداً مفصلاً صادقاً سيكون من الأفضل لكلينا. قد يكون صعباً. لكنني أريد منك أن تحتمل الألم وتواصل القراءة.

ما فعلته معه لم يكن له أي علاقة بـ «الحب». كل ما أردته هو أن يحتضنني ويَلِجني. لم أختبر في حياتي مثل تلك الحاجة الخانقة إلى جسد رجل. كنت قد قرأت

عن ’الرغبة التي لاتحتمل‘ في الكتب. لكن حتى ذلك اليوم، لما استطعت تخيل ما تعنيه هذه العبارة.

ليست لدي فكرة عن سبب تفجّر هذه الحاجة فجأة، وعدم حدوثها معك بل مع رجل آخر. لكن الرغبة التي شعرت بها عندئذٍ كان من المستحيل إخمادها، ولم أحاول. أرجو أن تفهم: لم يخطر لي للحظة إنني كنت أخونك بأي طريقة. الجنس الذي مارسته معه في فراش ذلك الفندق كان أمراً أقرب إلى الجنون. ولأكون صريحة تماماً، لم يراودني شعور بتلك الروعة في حياتي قط. لا، الأمر لم يكن بهذه البساطة. لم يكن شعوراً رائعاً فحسب. كان جسدي يتمرغ في طين دافئ. تشبّع عقلي بالمتعة الخالصة لدرجة الانفجار، ثم انفجر. كان أمراً إعجازياً. وأحد أروع الأشياء التي حدثت لي.

ومن ثم، كما تعرف، أخفيت الأمر طوال الوقت. ولم تدرك أنني كنت أقيم علاقة. لم تساورك أي شكوك تجاهي، حتى عندما بدأت أعود إلى المنزل في وقت متأخر. كلي يقين بأنك كنت تثق بي ثقة مطلقة. كنت تعتقد أنني لايمكن أن أخونك أبداً. لم أكن أشعر بأي ذنب جراء خيانتي لثقتك. كنت أتصل بك من غرفة الفندق وأقول إن العمل سوف يبقيني بالخارج لوقت متأخر. كدّست الأكاذيب فوق بعضها، لكنها لم تسبب لي ألماً، وبدت لي أمراً طبيعياً للغاية. كان قلبي بحاجة إلى أن أعيش حياتي معك. المنزل الذي كنت أشاركه معك هو المكان الذي أنتمي إليه، عالمي. لكن جسدي اجتاحته تلك الرغبة العارمة تجاهه. كان نصفي هنا، ونصفي الآخر

هناك. كنت أعلم، إن عاجلاً أم آجلاً، أنني ساقطع علاقتي به، لكن في ذلك الوقت، شعرت بأن تلك الحياة المزدوجة سوف تستمر للأبد. هنا كنت أعيش معك حياة هادئة مسالمة، وهناك كنت أمارس معه الحب الجامح.

أريدك أن تفهم شيئاً واحداً، على الأقل. لم يكن الأمر أنك أقل منه من الناحية الجنسية أو أنك تفتقر للجاذبية الجنسية، أو إنني سئمت من الجنس معك. كل ما في الأمر، في ذلك الوقت، إن جسدي أحس بذلك الجوع العنيف الذي لا يقاوم. لم يكن بوسعي فعل أي شيء لمقاومته. ليست لديّ فكرة عن سبب حدوث أشياء كهذه. كل ما يمكنني قوله هو إن ذلك حدث. فكرت عدة مرات، خلال الاسابيع التي كنت أنام فيها معه، بشأن ممارسة الجنس معك أيضاً. بدا لي أنه ليس من العدل أن أنام معه وليس معك. لكنني لم أشعر بأي شيء إطلاقاً بين ذراعيك. لا بد أنك لاحظت، لما يقارب الشهرين، أنني كنت أختلق كل أنواع الأعذار لأتجنب إقامة علاقة جنسية معك.

لكن ذات يوم، طلب مني أن أهجرك من أجله. قال إننا مثاليان لبعضنا وأنه ليس ثمة سبب يمنعنا من أن نكون معاً. وقال إنه سيهجر أسرته. طلبت منه أن يمنحني وقتاً لأفكر بالأمر. لكن في طريق عودتي على متن القطار بعدما تركته تلك الليلة، أدركت أنني لم أعد أشعر نحوه بأي شيء. أنا نفسي لا أفهم هذا. لكن حالما طلب مني أن أكون معه، اختفى ذلك الشيء الخاص الذي كان بداخلي كما لو أن ريحاً عاتية هبّت وعَصَفَت به، واختفت رغبتي تجاهه دون أي أثر.

وعندئذٍ بدأت أشعر بالذنب. كما كتبت سابقاً، لم أشعر بأي ذنب طوال الفترة التي كانت تتملكني فيها الرغبة العفوية تجاهه. كل ما كنت أشعر به هو مدى ارتياحي لأنك لم تلاحظ شيئاً. اعتقدت أنني يمكنني النجاة بفعلتي ما دمتَ غافلاً. كانت صلتي به تنتمى إلى عالم مختلف عن العالم الذي تنتمي إليه صلتى بك. لكن بعد تبخّر رغبتي تجاهه، أحسست بالضياع.

لطالما اعتقدت أنني شخص صادق. صحيح إن لدي عيوبي، لكن فيما يتعلق بالأشياء المهمة، لم أكذب على أي أحد قط، ولم أخدع نفسي. ولم أخفِ عنك شيئاً قط. وقد كان هذا مصدر فخر صغير بالنسبة لي. لكن من ثم، ولعدة شهور، صرت أكذب عليك باستمرار دون أن يطرف لي جفن.

هذه الحقيقة عينها هي ما بدأت تعذبني. جعلتني أشعر كما لو أنني شخص فارغ وتافه لايساوى شيئاً. وفي الواقع هذا ما أنا عليه على الأرجح. لكن ثمه شيء آخر يضايقني علاوة على ذلك، وهو هذا السؤال: كيف صرت أشعر بتلك الرغبة الجنسية المِلحاحة تجاه رجل لا أحبه؟ هذا ما لا أستطيع استيعابه. لولا تلك الرغبة، لما زلت أستمتع بحياتي السعيدة معك. ولظل ذلك الرجل صديقاً لطيفاً أحادثه من حين لآخر. لكن ذلك الشعور، تلك الشهوة الغامرة، هدمت كل ما بنيناه خلال السنوات الماضية. وحرمتني من كل ما كنت أملكه. حرمتني منك، ومن المنزل الذي أسسناه معاً، ومن عملي. لماذا يجب أن يحدث شيء كهذا؟

قلت لك، بعدما أجهضت قبل ثلاث سنوات، إن ثمة ما أود أن إخبارك به. أتذكر؟ ربما كان ينبغي لي إخبارك. ربما كان ينبغي لي إخبارك بكل ما كان في قلبي قبل أن تؤول الأمور إلى هذا. ربما ما كان هذا ليحدث أبداً إذا أخبرتك. لكن الآن وقد حدث –حتى الآن– لا أعتقد أن بمستطاعي إخبارك بما كنت أشعر به عندئذٍ. لأن ما يبدو لي هو أنني حالما أعبّر عما بداخلي بالكلمات، سوف يسوء الوضع أكثر مما هو سيئ الآن. ولذلك شعرت أنه من الأفضل أن أتجرّع المرارة وحدي وأختفي.

آسفة لأن عليّ إخبارك بهذا. لكن الحقيقة هي أنني لم أستمتع معك جنسياً، سواء قبل زواجنا أو بعده. كنت أحب احتواءك لي بين ذراعيك. لكن كل ما كنت أشعر به هو إحساس غامض بعيد يكاد يبدو لي كأنه إحساس شخص آخر. هذا ليس خطأك بأي طريقة. عدم قدرتي على الشعور كانت مسؤوليتي أنا فحسب. كان ثمة انسداد ما بداخلي، وهو ما كان يحجب أي مشاعر جنسية لدي، وعندما انجرف ذلك الانسداد – لأسباب لا أستطيع استيعابها – بممارستي الجنس معه ، لم تعد لديّ فكرة عما ينبغي لي فعله.

لطالما كان هناك شيء حميمي رقيق بيننا، أنت وأنا. كان موجوداً منذ البداية. لكنه الآن ضاع للأبد. تعشّق التروس المثالي، ذلك الشيء السحري، دُمرَ الآن لأنني دمرته. أو لأتحرى الدقة، شيء ما جعلني أدمره. إنني آسفة للغاية لحدوث ذلك. ليس كل أحد محظوظ بما يكفي لينال الفرصة التي نلتها معك. أكره الشيء الذي تسبب

بحدوث كل هذا. ليست لديك فكرة عن مدى كراهيتي له. أريد أن أعرف ماهيته تحديداً. علي أن أعرف ما هو تحديداً. علي أن أتقصى جذوره وأحاكمه وأعاقبه.

لست موقنة مما إذا كانت لدي القوة لفعل هذا. لكن شيء واحد مؤكد، وهو أن هذه مشكلتي وحدي وليس للأمر علاقة بك.

أريد أن أطلب منك شيئاً واحداً، رجاءً لا تشغل نفسك بي بعد الآن. ورجاءً لا تحاول العثور على. انسَ أمري فحسب. وفكر في بدء حياة جديدة. أما فيما يتعلق بعائلتي، فسوف أفعل الواجب اللائق. سأكتب لهم موضحة أن كل هذا خطئي، وأنك غير مسؤول بأي طريقة. لن يسببوا لك أي متاعب، وسوف تبدأ إجراءات الطلاق الرسمية قريباً على ما أعتقد. سيكون ذلك أفضل لكلينا. لذلك رجاءً لا تعترض. جارِهم فحسب. أما ملابسي وأغراضي الأخرى التي تركتها خلفي، آسفة، لكن رجاءً تخلص منها أو تبرع بها لجهة ما. صار كل شيء من الماضي الآن. كل شيء استخدمته في حياتي معك، ليس لدي الحق في استخدامه الآن.

وداعاً.

قرأت الرسالة مرة ثانية من بدايتها إلى نهايتها، وأعدتها إلى الظرف. ثم أخذت علبة جعة أخرى من الثلاجة وتجرعتها. إذا كانت كوميكو تخطط للشروع في إجراءات الطلاق. فهذا يعني أنها ليست لديها النية في الانتحار على الفور. أشعرني هذا الخاطر بشيء من الراحة. ثم ارتطمت بحقيقة أنني لم أمارس الجنس مع أي

أحد قرابة شهرين. كما قالت كوميكو في رسالتها، فقد كانت تتملص من النوم معي طوال ذلك الوقت. قالت إن لديها أعراض التهاب خفيف في المثانة، وأن الطبيب أمرها بالامتناع عن الجنس بعض الوقت. وصدقتها بطبيعة الحال. لم يكن لديّ سبب لعدم تصديقها.

خلال هذين الشهرين، أقمت علاقات مع نساء في أحلامي – أو في عالمٍ مالا يمكنني أن اسميه، ضمن حدود مفرداتي، سوى بحلم– مع كريتا كانو وامرأة الهاتف. لكن عندئذٍ عندما فكرت بالأمر، انقضى شهران منذ آخر مرة نمت مع امرأة حقيقية في العالم الحقيقي. تذكرت المرة الأخيرة التي رأيت فيها جسد كوميكو،مضجعاً على الأريكة، محدقاً إلى يديّ اللتان على صدري. تذكرت انحناءة ظهرها الناعم عندما رفعت سحاب فستانها، ورائحة العطر خلف أذنيها. لكن إن كان ما قالته في الرسالة هو الحقيقة التي لا يمكن دحضها، فعلى الأرجح لن أنام مع كوميكو مجدداً. كتبَتْ كل شيء بحزم وبوضوح تام. ماذا من الممكن أن يكون سوى الحقيقة التي لا يمكن دحضها؟

كلما فكرت بشأن احتمال أن علاقتي بكوميكو قد أصبحت شيئاً من الماضي، ازداد شوقي لدفء جسدها الناعم الذي كان ينتمي لي ذات يوم. استمتعت بالنوم معها. وبالطبع، استمتعت به قبل زواجنا، لكن حتى بعدما مضت بعض السنوات وخَبَتْ حماسة البداية إلى درجة ما، كنت استمتعبالجنس مع كوميكو. ظهرها الرشيق،

ومؤخرة عنقها، وساقيها، ونهديها. تذكرت بجلاء ملمس جميع أجزاء جسدها كأنني أراها الآن. وتذكرت كل الأشياء التي كنا نفعلها.

لكن كوميكو أسلَمَت جسدها لشخص آخر لم أكن أعرفه، وبشغف يمكنني تخيله بالكاد. وقد اكتشفتْ متعة لم تكن قادرة على الشعور بها معي. ذهبتُ وفتحت الثلاجة، وأخرجت علبة جعة، وشربتها. ثم تناولت قليلاً من سلطة البطاطس. أدرت راديو إف إم، راغباً في سماع الموسيقى. وضبطته على محطة موسيقى كلاسيكية بصوت منخفض. كانت كوميكو تقول: «*إنني مرهقة للغاية اليوم. لست في المزاج المناسب. آسفة، حقاً*».

كنت أجيبها: «*لا بأس، ليس بالأمر الجلل*».

عندما انتهت 'سيريناد الأوتار'[5] لتشايكوفسكي، بدأت مقطوعة بيانو قصيرة بدت كأنها لشومان. كانت مألوفة، لكنني لم أستطع تذكر اسمها. وعندما انتهت، قالت المذيعة إنها كانت المشهد السابع من 'مشاهد الغابة'[6] لشومان بعنوان 'الطائر نبياً'[7]. تخيّلت كوميكو تتلوّى بوركيها تحت ذلك الرجل، وترفع ساقيها، وتغرز أظافرها في ظهره، ويسيل لعابها على أغطية الفراش. أوضحت المذيعة أن شومان ألّف مشهداً فانتازياً، وفيه يعيش طائر غامض، يتنبأ بالمستقبل.

[5] Serenade For Strings - Tchaikovsky
[6] Forest Scenes
[7] Bird As a Prophet

ما الذي كنت أعرفه عن كوميكو؟ اعتصرت علبة الجعة الفارغة، دون صوت، وألقيتها في سلة المهملات. أمِن الممكن أن يكون صحيحاً أن كوميكو التي اعتقدت أنني أفهمها، كوميكو التي احتضنتها زوجةً لي طوال تلك السنوات – أمِن الممكن أن كوميكو تلك لم تكن سوى طبقة سطحية لشخص كوميكو نفسها، تماماً كما أن الجزء الأكبر من هذا العالم يتبع في الحقيقة لعالم قناديل البحر؟ إن كان الامر كذلك، فماذا عن تلك السنوات الست التي أمضيناها معا؟ ماذا كانت؟ وما الذي تعنيه؟

*

كنت أقرأ رسالة كوميكو مجدداً عندما رنّ الهاتف، فقذفني صوته من الأريكة. مَن مِن الممكن أن يتصل عند الثانية صباحاً؟ كوميكو؟ لا، لن تتصل هنا أبداً. ماي كاساهارا على الأرجح. كانت قد رأتني أغادر المنزل المهجور وقررت أن تتصل بي. أو من الممكن أن تكون كريتا كانو، تريد أن توضح لي سبب اختفائها. وقد تكون امرأة الهاتف، تحاول أن توصل إليّ رسالة ما. كانت ماي كاساهارا محقة. ثمة العديد من النساء حولي. مسحت العرق عن وجهي بمنشفة كانت بجواري. وعندما صرت مستعداً، رفعت السماعة. قلت: «مرحباً».

«مرحباً». جاءني صوت. لم يكن صوت ماي كاساهارا، كما لم يكن صوت المرأة المُلْغِزة. كانت مالطا كانو. قالت: «مرحباً، هل هذا السيد أوكادا؟ اسمي مالطا كانو. أتساءل ما إذا كنت تتذكرني».

«بالطبع، أتذكرك جيداً» قلت محاولاً تهدئة خفقان قلبي. كيف لا يمكنني تذكرها؟

«لا بد أن أعتذر لاتصالي بك في هذا الوقت المتأخر من الليل. لكنه أمر طارئ. إنني مدركة تماماً لمدى وقاحتي ومدى غضبك. لكنني شعرت بأنني مضطرة لإجراء المكالمة رغماً عن ذلك. إنني في غاية الأسف».

طمأنتها بأنه لا داعي للقلق، فقد كنت مستيقظاً على أي حال، ولم أشعر بأي انزعاج.

12

اكتشاف أثناء الحلاقة

*

اكتشاف عند الاستيقاظ

*

«سبب اتصالي بك في هذا الوقت المتأخر ياسيد أوكادا هو أنني شعرت بضرورة الاتصال بك في أسرع فرصة ممكنة». أثناء استماعي إليها، تولد لدي انطباع بأنها تختار كل كلمة وترتبها في جمل منظمة وفقاً لمبادئ منطقية صارمة كما تفعل دوماً. «إن لم يكن لديك اعتراض، فإن لديّ عدداً من الأسئلة أتمنى أن تسمح لي بطرحها عليك ياسيد أوكادا. أيمكنني المتابعة؟»

قعدت على الأريكة ممسكاً بالسماعة: «تفضلي على الفور، اسألي عن كل ما تودين معرفته».

«هل حدث أن ابتعدت عن المنزل خلال اليومين الماضيين يا سيد أوكادا؟ حاولت مهاتفتك عدة مرات، لكن بدا لي أنك كنت خارج المنزل».

«حسناً، نعم، كنت بالخارج. أردت الابتعاد عن المنزل بعض الوقت. كنت بحاجة للانفراد بنفسي لأفكر قليلاً. لدي كثيراً من الأشياء التي يجب أن أفكر بها».

«أجل يا سيد أوكادا. إنني أعي هذا تماماً. أتفهّم ماتشعر به. تغيير المكان من الممكن أن يكون مفيداً عندما يرغب المرء في التفكير ملياً بشأن شيء ما. في هذه الحالة يا سيد اوكادا– وأعلم أنني أبدو كأنني أتطفل– لم تكن في مكان بعيد جداً. أليس كذلك؟»

«حسنا، ليس بعيداً *جداً*». قلت متعمداً الغموض. ونقلت السماعة من يدي اليسرى إلى اليمنى. «كيف يمكنني أن أعبر عن هذا؟ كنت في مكان منعزل نوعاً ما. لكنني لا أستطيع أن أخوض في ذلك بالتفصيل. لدي أسبابي. وقد عدت قبيل قليل. إنني مرهق للغاية ولا أستطيع تقديم تفسيرات مطوّلة».

«بالطبع، يا سيد أوكادا. أتفهّم هذا. جميع الناس لديهم أسبابهم. لن أُلِح عليك لتفسر لي. لا بد أنك مرهق بالفعل. يمكنني معرفة هذا من صوتك. رجاءً لا تشغل نفسك بي. يجدر بي ألا ازعجك بأسئلة كثيرة في مثل هذا الوقت. إنني آسفة للغاية. يمكنك دوماً مناقشة هذه المسألة في وقت ملائم. أعرف إنها وقاحة مني أن أسالك مثل هذا السؤال الشخصي، لكنني سألتك لأنني كنت أخشى أن شيئاً سيئاً جداً قد حدث لك خلال الأيام الماضية».

حاولت أن أرد رداً ملائماً. لكن الحشرجة التي صدرت من حلقي بدت أقرب إلى شهقة حيوان مائي مختنق. قلت لنفسي، *شيئاً سيئاً* جداً. *من بين كل الأشياء*

التي كانت تحدث لي، أيها كان سيئاً وأيها لم يكن سيئاً؟ أيها كان لا بأس به وأيها لم يكن؟

«شكراً على قلقك عليّ». قلت بعدما تمكنت من إخراج صوتي كما ينبغي.«لكنني بخير حالياً. ليس بوسعي القول بأن شيئاً جيداً حدث لي، لكن لم يكن ثمة شيء سيئ على نحو خاص أيضاً».

«إنني سعيدة بسماع هذا».

أضفت: «إنني مرهق فحسب، هذا كل ما في الأمر».

أصدرت مالطا كانو صوت نحنحة خفيف.«بالمناسبة يا سيد أوكادا، أتساءل ما إذا كنت قد لاحظت تغييراً جسدياً كبيراً خلال الأيام القليلة الماضية».

«تغيير جسدي؟ فيّ أنا؟»

«نعم يا سيد أوكادا. تغيير ما في جسدك».

رفعت وجهي ونظرت إلى انعكاسي على باب الفناء الزجاجي، لكنني لم أتبين أي شيء يمكن تسميته بتغيير جسدي. كنت قد فركت جميع أجزاء جسدي في الحمام لكنني لم ألاحظ شيئاً.

«أى نوع من التغيير تقصدين؟»

«ليست لدي فكرة عما قد يكون، لكنه ينبغي أن يكون واضحاً لكل من ينظر إليك».

بسطت يدي اليسرى على المنضدة وحدقت إلى راحه يدي، لكنها كانت راحة يدي المعتادة، ولم تتغير بأى شكل يمكنني ملاحظته. لم تكتسِ بطبقة من الذهب، ولم تتكون شبكة بين أصابعي. لم تكن جميلة أو قبيحة. «عندما تقولين إنه ينبغي أن يكون واضحاً لكل من ينظر إلي، ما الذي تعنينه؟ شيء مثل جناحين ينبتان على ظهري؟»

«من الممكن أن يكون شيئاً كهذا». قالت مالطا كانو بنبرة صوتها المسطحة المعتادة.«أعني أن هذا *أحد الاحتمالات*، بطبيعة الحال».

«بالطبع».

«إذاً، هل لاحظتَ تغييراً كهذا؟»

«لا، ليس حتى الآن على الأقل. أعني، إذا نبت جناحان على ظهري، فعلى الأرجح لن يسعني سوى الملاحظة، ألا تعتقدين هذا؟»

«لا على الأرجح. لكن كن حذراً يا سيد أوكادا. معرفة المرء بحالته ليست مسألة بسيطة. لا يستطيع المرء أن ينظر إلى وجهه مباشرة بعينيه، على سبيل

المثال. ليس أمامه خيار سوى أن ينظر إلى انعكاسه في المرآة. بسبب الرؤية المتكررة، *نعتقد* أن الصورة صحيحة، لكن هذا كل شيء».

«سأكون حذراً».

«لدي شيء واحد بعد أود أن سألك عنه يا سيد أوكادا. منذ بعض الوقت، لم أتمكن من إنشاء اتصال بشقيقتي، تماماً كما فقدت الاتصال بك. ربما تكون صدفة، لكنني أجده أمراً غريباً للغاية. كنت أتساءل، ربما تكون لديك معرفة بالظروف الكامنة وراء هذا الأمر».

«كريتا كانو؟!».

«نعم، هل يخطر لك شيء بهذا الخصوص؟»

أجبت بأن لاشيء يخطر لي. لم تكن لدي أسس واضحة لأقول لها ذلك بناءً عليها، لكنني شعرت في ذلك الوقت أنه من الأفضل ألّا أقول شيئاً لمالطا كانو عن حقيقة أنني تحدثت مؤخراً مع كريتا كانو شخصياً، وأنها اختفت بعد ذلك مباشرة. كان مجرد شعور.

«كنتُ قلقة حيال فقدان الاتصال بك يا سيد أوكادا. خرجتْ مساء الأمس، قائلة إنها تخطط لزيارة منزلك لترى ما يمكنها أن تعثر عليه، لكنها لم تعد حتى هذه الساعة المتأخرة. ولسبب ما، لم أعد استشعر وجودها».

«فهمت. حسناً، إذا حدث أن جاءت هنا،فسأخبرها بأن تتصل بك على الفور».

ظلت مالطا كانو صامتة قليلاً. «لأقول لك الحقيقة، يا سيد أوكادا، إنني قلقة عليها. فكما تعرف، العمل الذي نزاوله أنا وهي ليس عادياً. لكنها ليست ضليعة مثلي بمسائل ذلك العالم. لا أعني التلميح إلى أنها ليست موهوبة. إنها موهوبة جداً في الواقع. لكنها لم تتكيف تماماً مع موهبتها بعد».

«فهمت».

صمتت مالطا كانو ثانية، لمدة أطول من المرة السابقة. استشعرت لديها نوعاً من التردد.

«مرحباً. أما زلتِ هناك؟»

«نعم يا سيد أوكادا، ما زلت هنا».

قلت مجدداً: «إذا رأيتها، فسوف أحرص على إخبارها بضرورة التواصل معك».

قالت: «شكراً جزيلاً». وبعدما اعتذرت لاتصالها في وقت متآخر، أنهت المكالمة. ووضعت السماعة أيضاً، ونظرت إلى إنعكاسي على المرآة مرة أخرى. ثم صعقتني فكرة أنني قد لا أتحدث مع مالطا كانو مجدداً. قد يكون هذا آخر اتصال

لي معها. من الممكن أن تختفى من حياتي للأبد. لم يكن لدي سبب معين يدعوني لهذا الاعتقاد، بل كان مجرد شعور داهمني.

*

تذكرت سلم الحبال فجأة. كنت قد تركته متدلياً في البئر. سيكون من الأفضل أن أستعيده في أسرع وقت ممكن على الأرجح. من الممكن أن تنشب مشكلات إذا وجده أحدهم هناك. ثم هناك مسألة اختفاء كريتا كانو المفاجئ. رأيتها آخر مرة عند البئر.

أقحمت المصباح اليدوي في جيبي، وانتعلت حذائي، وسرت إلى الحديقة وتسلقت الجدار مجدداً. ثم مررت عبر الزقاق إلى المنزل المهجور. كان منزل ماي كاساهارا غارقاً في الظلام. وعقارب ساعتي تدنو من الثالثة صباحاً. دخلت إلى باحة المنزل المهجور وقصدت البئر مباشرة. كان سلم الحبال ما يزال مربوطاً إلى جذع الشجرة ومتدلياً في البئر، التي كانت ما تزال نصف مفتوحة.

دفعني شيء ما لأنظر إلى داخل البئر وأنادي اسم كريتا كانو بنوع من الهتاف الهامس. لم يجب أحد. أخرجت مصباحي وصوبته إلى أسفل البئر. لم يصل الضوء إلى القاع، لكنني سمعت صوت تأوه منخفض. حاولت مناداتها مجدداً.

«لا بأس، إنني هنا». قالت كريتا كانو.

سألتها بصوت منخفض: «ما الذي *تفعلينه* في مكان كهذا؟»

قالت بغموض: «ما الذي *أفعله*؟ أفعل الأمر نفسه الذي كنت تفعله *أنت* يا سيد أوكادا.إنني أفكر. هذا مكان مثالي حقاً للتفكير. أليس كذلك؟»

«حسناً، نعم، أظنه كذلك. لكن شقيقتك اتصلت بي في المنزل قبيل قليل. إنها قلقه للغاية بسبب اختفائك. نحن في منتصف الليل ولم تعودي إلى المنزل، وتقول إنها لا تستطيع أن تستشعر وجودك، وأرادت مني إخبارك بأن تتصلى بها فوراً إذا رأيتك أو سمعت منك».

«فهمت. حسناً، شكراً لتكبدك العناء».

«لا تهتمي بذلك يا كريتا كانو. هلا أسديتني معروفاً وخرجت. علي أن أتحدث معك».

لم تجب.

أطفأت المصباح وأعدته إلى جيبي.

«لِمَ لا تنزل إلى هنا يا سيد أوكادا؟ يمكننا أن نجلس هنا ونتحدث».

قلت لنفسي، ربما لا تكون فكرة سيئة، أن أتسلق هبوطاً إلى قاع البئر مجدداً وأتحدث مع كريتا كانو، لكن تذكرت الظلام الرطب في القاع واجتاحني شعور ثقيل في معدتي.

«لا، آسف. لن أنزل إلى هناك مجدداً. ويجب عليك أن تخرجي أيضاً. ربما يرفع أحدهم السلم مجدداً. كما أن الهواء راكد».

«أعرف هذا. لكنني أريد المكوث هنا بالأسفل وقتاً أطول قليلاً. لا تُقلِق نفسك بشأني».

لم يكن بوسعي فعل شيء بما أن كريتا كانو لم تكن لديها النية في الخروج من البئر.

«عندما تحدثت مع شقيقتك على الهاتف، لم أخبرها أنني رأتيك هنا. آمل أنني فعلت الأمر الصحيح».

قالت: «أحسنت صنعاً. رجاءً لا تخبر شقيقتي بأنني هنا».

ثم أضافت بعد لحظة: «لا أريد أن أثير قلقها. لكنني بحاجة إلى فرصة للتفكير أحياناً أيضاً. سأخرج حالما أنتهي. أود أن أكون وحدي الآن، إذا تلطفت. لن أسبب لك أي متاعب».

قررت أن أتركها وأعود إلى المنزل في الوقت الراهن. يمكنني أن أعود في الصباح لأتفقدها. إذا رفعت ماي كاساهارا السلم ثانية أثناء الليل، يمكنني أن أتعامل مع الوضع عندها وأتمكن من مساعدة كريتا كانو على الخروج من البئر بطريقة أو بأخرى. ذهبت إلى المنزل، ونزعت ملابسي، وتمددت على الفراش. حملت الكتاب

الذي كنت أقرأه، وفتحت الصفحة التي كنت أقراها. شعرت بأنني في غاية التوتر ولن أستطيع أن أنام على الفور. لكن قبل أن أقرأ صفحتين كاملتين، تملكني النعاس. فأغلقت الكتاب، وأطفأت المصباح، وفي اللحظة التالية كنت أغط في النوم.

*

كانت التاسعة والنصف صباحاً عندما استيقظت. ارتديت ملابسي، قلقاً بشأن كريتا كانو، دون أن أكلّف نفسي عناء غسل وجهي، وهرعت عبر الزقاق إلى المنزل المهجور. كانت الغيوم تتدلى منخفضة في السماء، وبدا أن هواء الصباح الرطب يهدد بسقوط أمطار في أي لحظة. كان سلم الحبال قد اختفى من البئر. لا بد أن أحدهم حلّه من جذع الشجرة وحمله إلى مكان ما. وكان نصفا غطاء البئر في مكانهما وعلى كل منهما حجر. فتحت جانباً واحداً ونظرت إلى الاسفل. وناديت كريتا كانو. لم تكن ثمة إجابة. حاولت بضع مرات أخرى، منتظراً بعد كل مرة. ألقيت بعض الحصى، ظناً مني أنها نائمة. لكن بدا لي أنه لم يعد هناك أحد في قاع البئر. على الأرجح تسلقت كريتا كانو خارجة من البئر عند حلول الصباح، وأخذت معها السلم إلى مكان ما. أعدت الغطاء إلى مكانه وابتعدت عن البئر.

عدت إلى الزقاق، واتكأت على سياج المنزل المهجور، ورحت أراقب منزل ماي كاساهارا. اعتقدت أنها ربما تلاحظ وجودي، كالعادة، وتخرج. لكن لم يكن لها أي أثر. كان المكان في غاية السكون، ما من ناس، وما من ضجيج من أي نوع.

ولا حتى صرير حشرة زيز حصاد. أمضيت الوقت وأنا أنبش الأرض بمقدمة حذائي. استشعرت شيئاً غريباً في الحي، وغير مألوف. ثمة شيء تغير خلال الأيام التي كنت فيها في البئر، كما لو أن واقعَ المكان القديم أزاحه واقعٌ جديد، استقر وبسط سلطانه. كنت أشعر بهذا في مكان ما في أعماقي منذ خروجي من البئر وذهابي إلى المنزل.

سرت عائداً عبر الزقاق إلى المنزل، واتجهت إلى الحمام ونظفت أسناني. كانت لحية سوداء قصيرة بعمر عدة أيام تغطي وجهي. بدوتكشخص أُنتُشل للتو من حطام سفينة. كانت تلك أول مرة في حياتي أترك فيها ذقني تنمو بهذا الطول. داعبتني فكرة إطلاق لحيتي، لكن بعد تفكير دام للحظة قررت أن أحلقها. لسبب ما، بدا لي من الأفضل أن أحتفظ بوجهي كما كان عندما غادرت كوميكو.

بللت ذقني بمنشفة رطبة، وغطيت وجهي بطبقة سميكة من معجون الحلاقة، ثم شرعت في الحلاقة، ببطء وحذر، حتى أتجنب جرح نفسي: أسفل الفك أولاً، ثم الخد الأيسر، ثم الخد الأيمن. وأنا على وشك الفراغ من خدي الأيمن، رأيت في المرآة ما خطف أنفاسي، كانت بقعة زرقاء مسودّة من نوع ما. ظننت، في بادئ الأمر، أنني لطخت نفسي بشيء دون قصد. مسحت بقية معجون الحلاقة وغسلت وجهي جيداً بالصابون والماء، وفركت البقعة بإسفنجة، لكن البقعة ظلت في مكانها. بدا أنها تغلغلت عميقاً في جلدي. تحسستها بإصبعي، فشعرت بأن تلك البقعة أدفأ من بقية وجهي، لكن عدا عن ذلك، لم يكن ثمة ما يميزها. كانت علامة. كانت لديّ

علامة على خدي تماماً على الموضع الذي شعرت فيه بالحرارة عندما عبرت خلال الجدار.

قرّبت وجهي من المرآة وتفحصت العلامة بعناية قصوى. كانت تقع خلف عظمة الخد مباشرة، وبحجم راحة يد رضيع. ولونها الضارب للزرقة أقرب للأسود، مثل حبر مون بلان الأزرق الداكن الذي استخدمته كوميكو.

أحد التفسيرات الممكنة أن تلك العلامة كانت ردة فعل حساسية، ربما لامست شيئاً في قاع البئر تسبب في طفح جلدي، كالحساسية التي يسببها الورنيش. لكن ما الذي يمكن أن يكون هناك، في قاع البئر، ليسبب شيئاً كهذا؟ تفحصت كل شيء في المكان بمصباحي اليدوي، ولم أعثر على شيء سوى الأرضية الترابية والجدار الخرساني. إلى جانب ذلك، هل تترك الحساسية أو الطفح الجلدي مثل هذه العلامة المحددة بوضوح؟

اجتاحني شيء من الذعر. وفقدت الحس بالإتجاهات بضع لحظات، مثل عندما ترتطم بك موجة عملاقة عند الشاطيء وتسحبك إلى داخلها. سقطت الإسفنجة من يدي. نظرت إلى سلة المهملات، ودُست بقدمي على شيء، مهمهماً بعبارات لا معنى لها طوال الوقت. ثم تمكنت من استعادة رباطة جأشي، واتكأت على المغسلة، وبدأت أفكر بهدوء بكيفية التعامل مع هذا الواقع.

أفضل ما كان يمكنني فعله آنذاك هو الانتظار ورؤية ما يحدث. يمكنني دوماً الذهاب إلى الطبيب بعد ذلك. ربما تكون حالة مؤقتة، أو شيء سيشفى من تلقاء نفسه مثل طفح الورنيش. تشكّلت خلال أيام قليلة، لذلك ربما تختفي بنفس السهولة. ذهبت إلى المطبخ وأعددت لنفسي قهوة. كنت جائعاً. لكن متى ما حاولت أكل أي شيء، تتلاشي شهيتي مثل سراب.

تمددت على الأريكة ورحت أشاهد المطر الذي بدأ يهطل. من حين لآخر، كنت أذهب إلى الحمام وأنظر في المرآة، لكنني لم أرَ تغييراً على العلامة. كانت قد صبغت خدي بلون أزرق داكن يكاد يكون جميلاً.

لم يخطر لي سوى أمر واحد ربما يكون قد سبّب هذا. وهو مروري عبر الجدار في حلمي الذي يشبه الهلوسة عندما كنت في البئر، وامرأة الهاتف تقودني من يدي. جذبتني عبر الجدار حتى نتمكن من الهروب من شخص خطير كان قد فتح الباب قادماً إلى الغرفة. في اللحظة التي عبرت فيها الجدار، أحسست بحرارة على خدي، في نفس مكان العلامة الآن. بطبيعة الحال، أياً كانت الصلة التي ربما تكون موجودة بين عبوري الجدار وظهور العلامة على وجهي، فإنها تبقى من غير تفسير.

تحدث إليّ الرجل الذي بلا وجه في ردهة الفندق. حذرني: «هذا وقت غير مناسب، إنك لم تعد تنتمي إلى هذا المكان». لكنني ضربت بتحذيره عرض الحائط

وواصلت طريقي. كنت غاضباً من نوبورو واتايا، وغاضباً من ارتباكي. ونتيجة لذلك، ربما، انطبعت على وجهي هذه العلامة.

ربما كانت العلامة دمغة طبعها عليّ ذلك الحلم أو الوهم الغريب أو أياً كان. هذا ما كانوا يخبرونني به من خلال العلامة: *لم يكن ذلك حلماً بل حدث بالفعل، وفي كل مرة تنظر إلى المرآة، لن يسعك سوى تذكره.*

هززت رأسي. توجد أشياء كثيرة بلا تفسير. الشيء الوحيد الذي كنت أفهمه على وجه التأكيد هو أنني لم أكن أفهم شيئاً. بدأ رأسي ينبض نبضاً خفيفاً. لم أعد أستطيع التفكير. ولم أشعر برغبة ملحة لفعل أي شيء.أخذت رشفة من القهوة الفاترة وتابعت مشاهدة المطر.

*

بعد الظهر، اتصلت بخالي لأحادثه قليلاً. كنت بحاجة إلى التحدث مع شخص ما – لم يكن يهم كثيراً من هو– لأفعل شيئاً حيال ذلك الشعور بأنني كنت أُقذف بعيداً عن عالم الواقع.

عندما سألني عن حال كوميكو، قلت إنها بخير فحسب. وأضفت، إنها في رحلة عمل قصيرة حالياً. كان يمكنني إخباره بصدق بما كان يحدث، لكن ترتيب الأحداث الأخيرة في نظامٍ ما يبدو منطقياً لطرف ثالث سيكون مستحيلاً. لم تكن تبدو

ـي منطقية، فكيف يمكنني شرحها لشخص آخر؟ قررت إخفاء الحقيقة عن خالي في الوقت الراهن.

سألته: «كنتَ تعيش في هذا المنزل، أليس كذلك؟»

«بالطبع، ست أو سبع سنوات بأكملها. مهلاً لحظة... اشتريت المنزل عندما كنت في الخامسة والثلاثين وعشت فيه حتى بلغت الثانية والأربعين. سبع سنوات. عشت هناك وحدي طوال ذلك الوقت. ثم انتقلت إلى هذه الشقة عندما تزوجت».

«كنت أتساءل فحسب. هل حدث لك شيء سيئ عندما كنت هنا؟»

«شيء سيئ؟ مثل ماذا؟»

«مثل المرض أو الانفصال عن امرأة أو ما شابه ذلك».

أطلق خالي ضحكة من أعماق قلبه. «انفصلت عن أكثر من امرأة، هذا أمر مؤكد. لكن ليس أثناء إقامتي في المنزل. لا، لا يمكنني اعتبار ذلك شيئاً سيئاً على نحو خاص. ما من أحد كنت أخشي فقدانه، لأكون صادقاً معك. أما فيما يتعلق بالمرض... أمم، لا، لا أظن ذلك. نما لديّ ورم صغير في مؤخرة عنقي، لكن هذا كل ما أتذكره. وجده الحلاق، وقال إنني يجب أن أزيله تحسباً. لذلك ذهبت إلى الطبيب، وأتضح إنه ليس بالأمر الخطير. كانت تلك أول وآخر مرة أقابل طبيباً أثناء إقامتي في المنزل. يجب أن أحصل على تخفيض في تأميني الصحي!»

«إذاً، ما من ذكريات سيئة مرتبطة بهذا المكان؟»

قال خالي بعدما فكر للحظة: «لا، لا توجد. لكن فيمَ كل هذا، فجأة هكذا؟»

كذبت:«ليس أمراً مهماً. قابلت كوميكو عرّافاً ذات يوم وجاءت إلى المنزل بأخبار القيل والقال عن هذا المنزل، وأنه منحوس وما إلى ذلك. أعتقدُ أن هذا هراء، لكنني وعدتها بأنني سوف أستفسر منك عن الأمر».

«أممم، ما الذي يسمونه؟ فِراسة المنازل؟ لا أعرف شيئاً عن هذه الأمور. لكنني عشت في ذلك المنزل، وانطباعي عنه أنه لا بأس به، وليست فيه أي مشكلة. أما منزل مياواكي فهو أمر آخر، بالطبع، لكنك بعيد عنه».

«كيف كان الناس الذين عاشوا هنا بعدما انتقلت منه؟»

«دعني أرى: جاء بعدي أستاذ مدرسة ثانوية وأسرته وعاشوا ثلاث سنوات. ثم زوجين شابين خمس سنوات، كان الرجل يدير عملاً ما لكنني لا أتذكره. لا أستطيع الجزم بأن الجميع عاشوا حياة سعيدة في المنزل. كان لديّ وكيل عقارات يتولى شؤون المنزل نيابة عني، لذا لم أقابل المستأجرين قط. ولا أعرف سبب انتقالهم إلى مكان آخر. لكنني لم أسمع بأي شيء سيئ حدث لأي واحد منهم. افترضت أن المكان أصبح صغيراً بالنسبة لهم أو أرادوا تشييد منازلهم الخاصة بهم، أو شيء من هذا القبيل».

«أخبرني أحدهم ذات مرة أن انسياب هذا المكان قد أُعيق. هل يعني لك هذا شيئاً؟»

«انسياب المنزل قد أُعيق؟»

قلت: «أنا أيضاً لا أدري ما يعنيه هذا. هذا ما أخبروني به فحسب».

فكر خالي بذلك برهة.«لا، لا يخطر لي شيء. لكن ربما كان إغلاق نهايتي الزقاق فكرة سيئة. عندما تفكر بالأمر، إن شارعاً بلا مدخل أو مخرج لهو أمر غريب. المبدأ الأساسي للأشياء مثل الشوارع و الأنهار هو أنها تنساب، وإذا أعيقت حركتها، فسوف تركد».

«أفهم ما تعنيه. والآن، ثمة شيء أخير أود أن أسالك عنه. هل سبق أن سمعت صوت طائر الزنبرك في هذا الحي؟»

«طائر الزنبرك؟ وما هذا؟»

أوضحت له أمر طائر الزنبرك، وكيف أنه يحط على شجرة على مقربة منا ويطلق صوتاً أشبه بصوت زنبرك يتم لفّه.

قال:«هذا أمر جديد بالنسبة لي، لم أسمع أو أرَ واحداً قط. إنني أحب الطيور، ولطالما كنت مهتماً بسماع أصواتها، لكن هذه هي أول مرة أسمع شيئاً كهذا. أتعني أن لهذا الطائر علاقة بالمنزل؟»

«لا، ليس تماماً. كنت أتساءل ما إذا كنت قد سمعته فحسب».

«أتعرف، إن كنت تريد معرفة خبايا مثل هذه الأشياء، عن الذين سكنوا في المنزل بعدي وما شابه، فعليك أن تتحدث إلى السيد إشيكاوا العجوز، وكيل العقارات المقابل للمحطة. وكالة سيتاغايا داي إيتشى للعقارات. أخبره أنني أرسلتك. هو من تولى إدارة المنزل سنوات، ويعيش في الحي منذ الأزل. ربما سيخبرك بكل ما تريد معرفته. وهو الذي أخبرني بشأن منزل مياواكي. إنه أحد أولئك العجائز الذين يحبون الحديث. ينبغي لك الذهاب لمقابلته».

قلت: «شكراً ، سأذهب إليه».

«على أي حال، ما هي أخبار البحث عن العمل؟»

«لا شيء بعد. لأصدقك القول، لم أكن أبحث بجد. كوميكو تعمل، وأنا أعتني بشؤون المنزل. إننا نتدبر أمرنا في الوقت الراهن».

بدا لي أن خالي يفكر في شيء ما بضع لحظات، ثم قال: «أخبرني إذا سُدّت كل الطرق أمامك، ربما أتمكن من مد يد العون لك».

«شكراً، سأخبرك». وهكذا انتهت محادثتنا.

فكرت بالاتصال بسمسار العقارات العجوز وسؤاله عن خلفية الذين كانوا يعيشون في هذا المنزل قبلي. لكن بدا لي من السُخْف مجرد التفكير بمثل هذه الترّهات. فقررت نسيان الأمر.

ظل المطر يهطل هطولاً لطيفاً حتى العصر، مبللاً أسقف المنازل، والأشجارفي الباحات، والأرض. تناولت خبزاً محمصاً وحساءً على الغداء، وأمضيت بقية العصر مستلقياً على الأريكة. أردت أن أخرج للتسوق، لكن العلامة التي على وجهي جعلتني أتردد وأحجم. كنت نادماً على عدم ترك لحيتي تنمو. كانت ما تزال لدي بعض الخضروات في الثلاجة، وبعض المعلبات في الخزانة، ولدي الأرز، ولدي البيض. يمكنني إطعام نفسي يومين أو ثلاثة أيام على الأقل.

لم أفكر بأي شيء إطلاقاً. مستلقياً على الأريكة، قرأت كتاباً، واستمعت إلى شريط موسيقى كلاسيكية، ورحت أحدق إلى المطر المتساقط على الحديقة. بدا لي أن مقدراتي الإدراكية وصلت إلى أدني مستوياتها. ربما يُعزى هذا الى فترة التفكير بتركيز الطويلة في قاع البئر المظلم.

كلما حاولت التفكير جدياً بشأن أي شيء، أشعر بألم خفيف في رأسي كما لو أنه يُعصر بين فكي مِلْزَمة مبطنة. وإذا حاولت تذكر أي شيء، يبدو لي أن جميع

عضلات وأعصاب جسدي تتشنج مع المجهود الذي أبذله. شعرت بأنني تحولت إلى ‘رجل الصفيح’ في فيلم ‘ساحر أوز’[8]. صدئت مفاصلي وصارت بحاجة إلى تزييت.

كنت أذهب إلى المغسلة من حين لآخر لأتفحص حالة العلامة على وجهي، لكنها ظلت كما هي. لم تتمدد أو تتقلص، ولم يتغير لونها. وفي لحظة ما، لاحظت أنني تركت بعض الشعيرات فوق شفتي العليا.نسيت إنهاء الحلاقة في غمرة ارتباكي عندما اكتشفت العلامة على خدي الأيمن. غسلت وجهي مجدداً. ووضعت قليلاً من معجون الحلاقة، وأزلت الشعر المتبقي. خلال رحلاتي المكوكية منوإلى المرآة، فكرت بما قالته مالطا كانو على الهاتف: *يجب عليك توخي الحذر، وأننا بسبب النظر المتكرر نعتقد أن الصورة التي نراها في المرآة صحيحة.* وللتأكد، ذهبت إلى غرفة النوم ونظرت إلى وجهي في المرآة الطويلة التي كانت كوميكو تستخدمها كلما ارتدت ملابسها. لكن العلامة ظلت موجودة. لم تكن مجرد شيء في المرآة.

لم أشعر بأي شذوذ في جسدي عدا عن العلامة. قست درجة حرارتي، لكنها كانت عادية. عدا عن حقيقة أنني شعرت بجوع خفيف، بالنسبة لشخص لم يأكل خلال ثلاثة أيام تقريباً، وأنني كنت أشعر بغثيان خفيف من وقت لآخر (الذي ربما كان استمراراً لما كنت أشعر به في قاع البئر) كان جسدي عادياً تماماً.

كانت فترة العصر هادئة. لم يرن الهاتف. وما من رسالة وصلت. وما من أحد أتى عبر الزقاق. وما من أصوات جيران تعكر الهدوء. وما من قطط تعبر الحديقة.

[8] The Wizard Of Oz

وما من طيور تأتي وتصيح. تطلق حشرة زيز حصاد صريراً من حين لآخر، لكن ليس بالحدة المعتادة.

بدأت أشعر بشيء من الجوع قبيل السابعة، لذلك أعددت لنفسي عشاءً مكوناً من أطعمة معلبة وخضروات. استمعت إلى الأخبار المسائية على الراديو لأول مرة منذ دهور، لكن ما من شيء مميز كان يحدث في العالم. قُتل بعض المراهقين في حادث على الطريق السريع عندما فشل سائق سيارتهم في تخطي سيارة أخرى وارتطم بجدار. موظفو فرع مصرف كبير ومديره يخضعون التحقيق في قضية تتعلق بقرض غير قانوني. ربة منزل في السادسة وثلاثين من ماشيدا، انهال شابٌ ضرباً عليها بمطرقة حتى الموت في الشارع. لكن هذه أحداث من عالم آخر نائي. كان الشيء الوحيد الذي يحدث في عالمي هو سقوط المطر على باحتي، بصمت، ورفق. عندما أشارت الساعة إلى التاسعة، انتقلت من الأريكة إلى الفراش. وبعدما أنهيت فصلاً من كتاب كنت قد بدأته، أطفات المصباح وخلدت إلى النوم. أجفلت مستيقظاً في منتصف حلم ما. لم أستطيع تذكر ما كان يحدث في الحلم، لكن من البديهي أنه كان مليئاً بالتوتر، لأن قلبي كان يخفق بشدة. كانت الغرفة غارقة في ظلام حالك. لبعض الوقت بعدما استيقظت، لم أقدر على تذكر مكاني. مرت فترة قبل أن أدرك أنني في منزلي، وفي فراشي.كانت عقارب ساعة المنبة تشير إلى بعد الثانية صباحاً بقليل. ساعات نومي غير المنتظمة في البئر على الأرجح هي المسؤولة عن دورات النوم واليقظة غير المتوقعة تلك. وحالما زال تشوشي، شعرت بحاجة إلى التبول.

كانت الجعة التي شربتها على الأرجح. كنت أفضل العودة إلى النوم، لكن لم يكن لي خيار في الأمر. وعندما رضخت للأمر الواقع وجلست على الفراش، لامست يدي جلد شخص نائم إلى جواري. لم يفاجئني ذلك، فقد كانت كوميكو دائماً ما تنام هناك. كنت معتاداً على نوم شخص ما بجواري. ثم أدركت أن كوميكو لم تعد معي، وأنها تركت المنزل. شخص آخر كان ينام إلى جانبي.

حبست أنفاسي وأضئت المصباح الذي إلى جوار الفراش. كانت كريتا كانو.

13

بقية قصة كريتا كانو

*

وجدت كريتا كانو عارية تماماً، نائمة مستلقية إلى جانبي في مواجهتي. لا ترتدي شيئاً، أو تضع غطاءً، كاشفة عن نهدين مكورين، وحلمتين صغيرتين ورديتين، وأسفلهما بطن مسطحة تماماً، ومثلث أسود من شعر العانة، يبدو كمنطقة مظللة في رسم. وجلدها ناصع البياض متوهج قليلاً. مع إنني كنت حائراً في تفسير وجودها، إلا أنني واصلت التحديق إلى جسدها الجميل. كانت تلصق ركبتيها ببعضهما بإحكام وتثنيهما قليلاً، وتضم قدميها. شعرها يغطي نصف وجهها، الأمر الذي جعل رؤيتي لعينيها مستحيلاً. لكن من الواضح أنها كانت تغط في نوم عميق. ولم تشعر بأي شيء عندما أضئت المصباح، وكان تنفسها هادئاً ومنتظماً. وبالمقابل كنت مستيقظاً تماماً. أخرجت لحافاً خفيفاً من الخزانة وغطيتها به، ثم أطفأت المصباح. قصدت المطبخ، وأنا ما أزال مرتدياً بيجامتي، لأجلس إلى الطاولة قليلاً.

تذكرت العلامة. كانت البقعة على خدّي ما تزال دافئة قليلاً. ما تزال موجودة. حسناً، لم أكن بحاجة إلى النظر إلى المرآة. لم تكن شيئاً بسيطاً سيختفي من تلقاء نفسه بين ليلة وضحاها. فكرت بالبحث عن طبيب متخصص في الأمراض الجلدية في دفتر الهاتف عندما تشرق الشمس، لكن بمَ أجيبه إذا سألني عما أعتقد أنه السبب؟ *‘كنت في بئر يومين أو ثلاثة.. لا، الأمر لا يمت للعمل بصلة، كنت هناك لأفكر قليلاً.. ظننت أن قاع البئر سيكون مكاناً جيداً.. لا، لم آخذ معي طعاماً.. لا، لم تكن البئر في منزلي، تقع في منزل شخص آخر، منزل مهجور في الحي.. دخلت دون إذن’.*

تنهدتُ. لا يمكنني قول هذه الأشياء لأي أحد بالطبع.

أسندت مرفقي إلى الطاولة. ودون أن أشعر، وجدت نفسي أتذكر جسد كريتا كانو العاري بتفاصيل جليّة. كانت نائمة في فراشي نوماً عميقاً. تذكرت ذلك الحلم عندما ضممنا جسدينا وكانت ترتدي فستان كوميكو. كنت ما أزال أتذكر ملمس بشرتها، وثقل جسدها. إذا لم أتتبّع ذلك الحدث، خطوة بخطوة، متقصياً تفاصيله، فلن أتمكن من تمييز الحد الذي ينتهي عنده ما هو حقيقي، والذي يبدأ عنده ما هو غير حقيقي. بدأ الجدار الذي يفصل بين العالمين يذوب. وفي ذاكرتي على الأقل، بدا لي أن الحقيقي وغير الحقيقي يقيمان معاً بنفس الوزن والوضوح. كنت قد أوصلت جسدي بجسد كريتا كانو، وفي الوقت نفسه، لم أوصله.

لأصفي ذهني من تلك الصور الجنسية المختلطة، ذهبت إلى المغسلة ورششت وجهي بماء بارد. وبعد ذلك بقليل، تفقدت كريتا كانو، فوجدتها ما تزال تغط في نومها، وقد أزاحت الغطاء إلى خصرها. لم أكن أرى سوى ظهرها من المكان الذي أقف فيه. وذكّرني بآخر مرة نظرت إلى ظهر كوميكو. وبما أن الأمر خطر لي عندئذٍ، لاحظت أن قوام كريتا كانو يشبه قوام كوميكو إلى حد كبير. لم ألاحظ الشبه حتى تلك اللحظة لأن شعرهما وذوقهما في الملابس والمكياج كانا مختلفان تماماً. كانتا بنفس الطول، ونفس الوزن تقريباً. وترتديان مقاس الفستان نفسه على الأرجح.

حملت غطائي إلى صالة الجلوس، وتمددت على الأريكة، وفتحت كتاباً. كنت أقرأ كتاب تاريخ أحضرته من المكتبة. كان عن الإدارة اليابانية لمنشوريا قبل الحرب وعن المعركة مع السوفييت في نومونهان. أثارت قصة الملازم ماميا فضولي بشأن أحوال القارة الآسيوية في تلك الفترة، فاستعرت عدة كتب تتناول الموضوع. لكن بعد أقل من عشر دقائق من السرد التاريخي الدقيق، وجدتني أنزلق على حافة النوم. وضعت الكتاب على الأرضية، بقصد إراحة عيني بضع لحظات، لكنني رحت في سبات عميق، والمصابيح مضاءة.

أيقظني صوت قادم من المطبخ. وعندما ذهبت لأتحقق منه، وجدت كريتا كانو، تعد الإفطار، مرتدية تيشيرت أبيض، وسروالاً أبيض قصير من ملابس كوميكو.

«أين ملابسك؟» سألتها واقفاً عند الباب.

«آه، آسفة. كنتَ نائماً، لذلك سمحت لنفسي باستعارة بعض ملابس زوجتك. أعرف أنها وقاحة مني، لكن ليس لديّ أي شيء لأرتديه». قالت كريتا كانو وهي تلتفت لتنظر إلي. وفي وقت ما منذ آخر مرة رأيتها، عادت إلى موضة الستينيات في تصفيف شعرها ومكياجها، ولم يكن ينقصها سوى الرموش الصناعية.

قلت: «لا، هذه ليست مشكلة. ما أريد معرفته هو ما حدث لملابسك».

قالت ببساطة: «فقدتها».

«فقدتِها؟»

«نعم، فقدتها في مكان ما».

دلفت إلى المطبخ واتكأت على الطاولة، ورحت أشاهد كريتا كانو وهي تعد عجة بيض. كسرت البيض، بحركات ماهرة سريعة، وأضافت إليه التوابل، ثم خفقته.

«أتعنين أنك جئت إلى هنا عارية؟»

«نعم، هذا صحيح». قالت كريتا كانو كما لو أن ذلك أمر طبيعي تماماً. «كنت عارية تماماً. تعرف ذلك يا سيد أوكادا، أنت غطيتني».

غمغمت: «أجل، هذا صحيح. لكن ما أريد معرفته هو كيفية ومكان فقدانك ملابسك، وكيفية وصولك إلى هنا وأنت لا ترتدين شيئاً».

«ليس المسؤول بأعلم من السائل». قالت وهي تحرك المقلاة وتقلب العجة على نفسها.

قلت: «ليس المسؤول بأعلم من السائل».

وضعت كريتا كانو العجة على طبق وزينتها بقليل من سيقان البركولي المطهوة على البخار. أعدت خبزاً محمصاً أيضاً، ووضعته على الطاولة، إلى جانب القهوة.

أخرجتُ الزبدة والملح والفلفل. ثم جلسنا إلى الطاولة، كزوجين متزوجين حديثاً، في مواجهة بعضنا.

عندئذٍ تذكرت علامتي. لم تُبدِ كريتا كانو أي دهشة عندما نظرت إلي، ولم تسألني عنها. رفعت يدي ولمست البقعة فوجدتها دافئة قليلاً، كما في السابق.

«أتؤلمك يا سيد أوكادا؟»

«لا، إطلاقاً».

حدقت كريتا كانو إلى وجهي بعض الوقت، وقالت: «تبدو كعلامة ما».

قلت: «إنها تبدو لي كعلامة أيضاً. أتساءل ما إذا كان يجدر بي عرضها على طبيب أم لا».

«يتراءى لي أنها ليست شيئاً بوسع الطبيب التعامل معه».

«ربما تكونين محقة. لكن لا أستطيع تجاهلها فحسب».

فكرت كريتا كانو هنيهة، ممسكة بالشوكة.«إن كنت تريد شراء بعض الحاجيات أو لديك بعض الأعمال، يمكنني مساعدتك. يمكنك أن تبقى بالداخل بقدر ما تريد، إذا كنت لا تفضل الخروج».

«إنني ممتن لعرضك، لكن لا بد أن لديك أعمالك الخاصة بك. كما لا يمكنني البقاء حبيس هذه الجدران للأبد».

فكرت كريتا كانو بذلك أيضاً هنيهة.«سوف تتدبر مالطا كانو أمرها على الأرجح».

«إذاً هل تمانعين الاتصال بها من أجلي؟»

«مالطا كانو هي التي تتصل بالناس، ولا تسمح للآخرين بالاتصال بها». أخذتْ قضمة من البركولي.

«لكنك يمكنكِ الاتصال بها بالطبع».

«بلا شك، نحن شقيقتان».

«حسناً، عندما تتحدثي معها، لمَ لا تستفسري منها عن علامتي؟ أو يمكنك أن تطلبي منها الاتصال بي».

«آسفة. هذا ما لا أستطيع فعله. ليس مسموحاً لي بمخاطبة شقيقتي بالنيابة عن شخص آخر. هذه قاعدة نتبعها».

أطلقت تنهيدة وأنا أمسح الزبدة على الخبز المحمص. «أتعنين إذا أردتُ الحديث مع شقيقتك بشأن أي شيء، فكل ما يمكنني فعله هو انتظارها حتى تتصل بي؟»

قالت كريتا كانو: «هذا ما أعنيه بالضبط». وأومأت. ثم أردفت: «أما هذه العلامة، ما لم تؤلمك أو تزعجك، أقترح أن تنسى أمرها بعض الوقت. لا أدعُ مثل هذه الأشياء تزعجني. وينبغي لك ألا تدعها تزعجك أيضاً يا سيد أوكادا. يصاب الناس بمثل هذه الأشياء أحياناً».

قلت: «أتساءل عن هذا».

ثم لبثنا نتناول إفطارنا بصمت عدة دقائق بعد ذلك. لم أتناول الإفطار مع شخص آخر منذ مدة، وقد كان ذلك الإفطار شهياً على نحو خاص. وبدت كريتا كانو مسرورة عندما أخبرتها بهذا.

قلت: «على أي حال، بشأن ملابسك...»

«أيضايقكَ ارتدائي ملابس زوجتك دون إذنك؟» سألتني بقلق واضح.

«لا، إطلاقاً. لا أكترث بما ترتدينه من ملابس كوميكو. فهي قد تركتها هنا. ما يقلقني هو كيفية فقدانك ملابسك».

«ليست ملابسي فحسب، حذائي أيضاً».

«إذاً كيف حدث ذلك؟»

«لا أستطيع التذكر. كل ما أعرفه هو أنني استيقظت في فراشك وليست عليّ قطعة قماش. ولا يمكنني تذكر ما حدث قبل ذلك».

«لقد نزلتِ إلى البئر، بعدما غادرتُ، أليس كذلك؟»

«أتذكر ذلك. ونمت هناك. لكنني لا أتذكر شيئاً بعد ذلك».

«مما يعني أنك لا تتذكرين كيفية خروجك من البئر»

«أجل. ثمة فجوة في ذاكرتي». رفعت كريتا كانو سبابتيها، مباعدة بينهما قرابة ثماني بوصات. لم تكن لدي فكرة عن مقدار الوقت الذي يفترض أن تمثله إشارتها.

«لا أعتقد أنك تتذكرين ما فعلته بسلّم الحبال أيضاً. لقد اختفى، كما تعلمين».

«لا أعرف شيئاً عن السلم. إنني حتى لا أتذكر ما إذا كنت قد تسلقته لأخرج من البئر».

رمقتُ كوب القهوة الذي في يدي، وسألتها: «أتمانعين أن تريني باطن قدميكِ؟»

قالت: «لا، إطلاقاً». وجلست على الكرسي المجاور لي ومدّت ساقيها ناحيتي حتى أتمكن من رؤية باطن قدميها. كانتا نظيفتين، وشكلهما جميل. ما من جروح، أو وحل. لا شيء إطلاقاً.

قلت: «ما من جروح أو وحل».

«هكذا إذاً».

«كانت تمطر طوال اليوم بالأمس. إذا فقدتِ حذاءكِ في مكان ما وسرت إلى هنا، فينبغي أن يعلق شيء من الوحل بقدميك. ولا بد أنك دخلت عبر الحديقة. لكن قدميك نظيفتين، وما من وحل في أي مكان».

«فهمت».

«مما يعني أنكِ لم تسيري من مكان ما إلى هنا حافية القدمين».

أمالت كريتا كانو رأسها كما لو أنني أثرت إعجابها. وقالت: «كل هذا متّسق منطقياً».

«قد يكون متسقاً منطقياً، لكنه لا يساعدنا. أين فقدت حذاءك وملابسك، وكيف سرت إلى هنا؟»

هزت كريتا كانو رأسها، وقالت: «ليست لدي فكرة».

*

أثناء وقوفها عند المغسلة، مستغرقة في غسل الأطباق، ظللت جالساً عند طاولة المطبخ، أفكر بهذه الأشياء. وبطبيعة الحال، لم تكن لدي أدنى فكرة أيضاً.

«هل تحدث معكِ هذه الأشياء غالباً، ألّا تستطيعي تذكر المكان الذي كنت فيه؟»

«هذه ليست المرة الأولى التي يحدث لي فيها شيء كهذا، ولا أستطيع تذكر المكان الذي كنت فيه أو ما كنت أفعله. لا يحدث هذا غالباً، لكن من حين لآخر. فقدت بعض الملابس ذات مرة، لكن هذه أول مرة أفقد كل ملابسي وحذائي وكل شيء».

أغلقتْ الصنبور ومسحت الطاولة بمنشفة أطباق.

«أتعرفين، يا كريتا كانو، إنكِ لم تخبريني بكامل قصتك المرة الماضية. كنت في منتصف القصة عندما اختفيت، أتذكرين؟ إذا لم تمانعي، أود سماع بقيتها. قلت لي أن العصابة أرغمتك على العمل عاهرة لحسابهم، لكنك لم تقولي لي ما حدث بعدما قابلت نوبورو واتايا ونمت معه».

اتكأت كريتا كانو على مغسلة المطبخ ونظرت إليّ. انحدرت قطرات من الماء من يديها عبر أصابعها وسقطت على الأرضية. وكان شكل حلمتي نهديها ظاهراً

بوضوح من خلال التيشيرت الأبيض، مذكراً إياي بجسدها العاري الذي رأيته الليلة السابقة.

«حسناً إذاً، *سأخبرك* بكل ما حدث بعد ذلك. الآن».

جلست كريتا مجدداً على المقعد المقابل لي.

سبب مغادرتي في ذلك اليوم وأنا في منتصف القصة، يا سيد أوكادا، هو أنني لم أكن مستعدة تماماً لإخبارك بكل شيء. كنت قد بدأت سرد قصتي تحديداً لأنني شعرت بأنني يجب أن أخبرك، بصدق قدر الإمكان، بما حدث لي. لكنني لم أستطع أن أواصل حتى النهاية. لا بد أنك صُدمتَ عندما اختفيت فجأة».

وضعتْ يديها على الطاولة، وهي تنظر إليّ مباشرة أثناء حديثها.

«حسناً، أجل. صُدمتُ، رغم أن ذلك لم يكن أكثر شيء صادم حدث لي مؤخراً».

*

«كما قلت لك من قبل، كان آخر زبون لي عندما كنت عاهرة جسد هو نوبورو واتايا. قابلته مرة ثانية عندما جاء زبوناً لمالطا كانو، وتعرفت عليه على الفور. إذ يستحيل عليّ نسيانه. لست متأكدة مما إذا كان قد تذكرني أم لا. السيد واتايا ليس بالشخص الذي يُظهر مشاعره.

لكن دعني أعود لأرتب الأحداث. سأخبرك أولاً عن لقائي بنوبورو واتايا زبوناً لي.كان ذلك قبل ست سنوات.

كما ذكرت سابقاً، في ذلك الوقت كنت في حالة فقدتُ معها القدرة على الإحساس بأي ألم، وليس الألم فحسب، لم تكن لديّ إحساسات من أي نوع. كنت أعيش في خدر لا قرار له. وبالطبع لا أعني أن أقول إنني لم أكن أشعر بأي شيء إطلاقاً.

كنت أعرف عندما يكون شيء ساخناً أو بارداً، أو مؤلماً. لكنني كنت أشعر بالأشياء كأنها قادمة من مكان بعيد، من عالم لا يمت لي بصلة. ولهذا لم أشعر بالحاجة إلى مقاومة فكرة إقامة علاقات جنسية مع رجال مقابل المال. أياً كان ما يفعله أحدهم بي، فإن الإحساساتالتي كنت أشعر بها لم تكن إحساساتي. جسدي الذي لا يحس لم يكن جسدي.

الآن، فلنر. أخبرتك عن كيفية بداية عملى مع العصابة. عندما أمروني بالنوم مع الرجال، فعلت. وعندما دفعوا لي المال، قبلته. وغادرت عندما بلغت هذا الحد».

أومأتُ لها.

«في ذلك اليوم أمروني بالذهاب إلى غرفة على الطابق السادس عشر في فندق بوسط المدينة. كان اسم الزبون غير مألوف: واتايا. طرقت الباب ودخلت، فوجدت الرجل جالساً على الأريكة. وبدا أنه كان يشرب القهوة التي تقدمها خدمة الغرف أثناء قراءته كتاباً. يرتدي قميص بولو أخضر وسروال قطني بني. شعره قصير، ويضع نظارة بإطار بني. وعلى منضدة القهوة التي أمامه يضع كوبه وركوة القهوة والكتاب. بدا أنه كان منغمساً في القراءة. كان ثمة بريق ما يزال في عينيه. لم تكن ملامحه مميزة بأي شكل، لكن تلكما العينان كانتا تشع منهما طاقة غريبة. عندما رأيتهما أول مرة، ظننت للحظة أنني في الغرفة الخطأ. لكنها لم تكن الغرفة الخطأ. أمرني الرجل بالدخول وإغلاق الباب.

وهو ما يزال جالساً على الأريكة، ودون أن يقول أي كلمة، جال بعينيه في جسدي، من رأسي إلى أخمص قدميّ. هذا ما يحدث عادة عندما أدخل غرفة أي زبون. يلتهمني معظم الرجال بأعينهم. معذرة على السؤال يا سيد أوكادا، هل سبق أن طلبت عاهرة ونمت معها؟»

قلت إنني لم يسبق لي.

«كان الأمر كما لو أنهم يتفحصون بضاعة. لا يمر وقت طويل قبل الاعتياد على تلك النظرات. فهم يدفعون مالاً مقابل الجسد، رغم كل شيء، ومن الطبيعي من

جانبهم أن يتفقدوا البضاعة. لكن الطريقة التي كان ينظر بها ذلك الرجل كانت مختلفة. بدا أنه ينظر من خلال جسدي إلى شيء على الجانب الآخر. أشعرتني عيناه بالضيق، كما لو أنني أصبحت كائناً بشرياً نصف شفاف.

أعتقد أنني كنت مرتبكة قليلاً. أسقطت حقيبة يدي على الأرضية، فأصدرت صوتاً خفيفاً. لكنني كنت شاردة الذهن، لوهلة، ولم أعِ ما فعلته. ثم انحنيت لحمل الحقيبة. فُتح المشبك عندما ارتطمت بالأرضية، وسقطت منها بعض أدوات التجميل. التقطت قلم الحاجبين، ومرطب الشفاه، وقنينة عطر صغيرة وأعدتهم إلى حقيبتي. كان غارساً عينيه فيّ طوال الوقت.

عندما انتهيت من جمع أشيائي من الأرضية ووضعها في الحقيبة، أمرني بخلع ملابسي. قلت له إنني أود الاستحمام أولاً، لأنني كنت أتعرق قليلاً. كان الجو حاراً ذلك اليوم، وكنت أتصبب عرقاً في قطار الأنفاق. قال إنه لا يكترث لذلك وأنه ليس أمامه متسع من الوقت. أراد مني أن أتجرد من ملابسي في الحال.

حالما صرت عارية، أمرني بالاستلقاء على الفراش ووجهي للأسفل، ففعلت. وأمرني بأن أظل ساكنة وأغمض عيني، وألّا أتحدث ما لم يتحدث إليّ.

جلس بجانبي مرتدياً ملابسه. وهذا كل ما فعله. جلس بجانبي فحسب.ولم يمس شعرة مني.جلس وراح ينظر إلى جسدي العاري فحسب، وظل على ذلك الحال قرابة عشر دقائق، وأنا مستلقية، وجهي للأسفل، دون أن أحرك ساكناً. كنت أشعر بنظراته تخترق مؤخرة عنقي، وظهري، وعجيزتي، وساقيّ - تخترقني بحدة تكاد تكون مؤلمة. خطر لي أنه ربما يكون عاجزاً جنسياً. أصادف مثل هؤلاء الزبائن من حين لآخر. يُحضرون عاهرة، ويجردونها من ملابسها، وينظرون إليها. بعضهم يعرّي المرأة ويصلون إلى الذروة معتمدين على أنفسهم في حضورها. افترضت أنه واحد من أولئك.

لكن بعد مضي بعض الوقت، اقترب مني وبدأ يلمسني. زحفت أصابعه العشرة على جسدي، من كتفيّ إلى ظهري، ومن ظهري إلى عجيزتي، بحثاً عن شيء ما.

لم تكن مداعبات، كما لم يكن تدليكاً، بطبيعة الحال. تحركت أصابعه على جسدي بعناية شديدة، كأنه يقتفي مساراً على خريطة. وطيلة مدة ملامسته للحمي، بدا أنه يفكر. ليس بالمعنى العادي للكلمة، بل كان يفكر *تفكيراً جدياً* بشأن أمر ما بتركيز تام.

في لحظة، يبدو لي أن أصابعه تحوم هنا وهناك، وفي لحظة أخرى، يتوقف ويتجمد في مكان واحد مدة طويلة. شعرت كما لو أن أصابعه نفسها تتأرجح بين الشك واليقين. هل أعبر عن نفسي تعبيراً واضحاً؟ بدا لي أن كل إصبع حيّ ويفكر، بإرادته الخاصة. كان شعوراً غريباً ومربكاً.

ومع ذلك، أثارتني لمسات أصابعه، لأول مرة في حياتي. لم يكن الجنس سوى مصدر ألم بالنسبة لي إلى أن صرت عاهرة. مجرد التفكير به كان يملأني بالخوف، خوف من الألم الذي كنت أعرف أنني سأكابده. والعكس تماماً هو ما حدث بعدما صرت عاهرة، إذ لم أعد أشعر بأي شيء. لم أعد أشعر بالألم، كما لم أعد أشعر بأي شيء آخر أيضاً. كنت أتنهد وأتظاهر بأنني مستثارة من أجل إمتاع الزبون فحسب، لكن كل شيء كان مزيفاً، مجرد تمثيل احترافي. لكن عندما لامسني هو، كانت تأوهاتي حقيقية، تخرج من أعماق جسدي. وعرفت أن شيئاً بداخلي بدأ يتحرك، كأن مركز الجاذبية داخل جسدي كان يغير مكانه، متنقلاً من مكان إلى آخر.

في النهاية، توقف الرجل عن تحريك أصابعه. وبدا أنه يفكر، واضعاً يديه على خصري. ومن خلال أصابعه، أمكنني الجزم بأنه كان يهدئ نفسه، وينظم تنفسه بهدوء. ثم بدأ ينزع ملابسه. أبقيت عينيّ مغمضتين ووجهي مدفوناً في الوسادة، في انتظار ما سيحدث بعد ذلك. وما إن تجرد من ثيابه، باعد ما بين ذراعيّ وساقيّ.

كانت الغرفة هادئة على نحو يكاد يكون مخيفاً. والصوت الوحيد فيها هو هدير مكيف الهواء الخافت. الرجل نفسه لم تصدر عنه أي أصوات مسموعة، ولم أكن أسمع حتى تنفسه. وضع راحتي يديه عليّ، فتخدرتُ. ثم لامس عضوه عجيزتي، لكنه كان ما يزال رخواً.

عندئذٍ رن الهاتف القابع على المنضدة المجاورة للفراش. فتحت عيني وأدرت رأسي لأنظر إلى وجه الرجل، لكنه بدا غير مدرك لرنين الهاتف. رن ثمانية أو تسع مرات ثم توقف. فران الصمت على الغرفة مجدداً».

توقفت كريتا كانو وتنفست بعمق بضع مرات. وظلت صامتة وهي تنظر إلى يديها. وقالت: «آسفة، هل تمانع إذا أخذت استراحة قصيرة؟»

قلت: «لا. إطلاقاً» وأعدت ملء كوب القهوة وأخذت رشفة. شربتْ ماءها البارد، ولبثنا جالسين دون أي كلام قرابة عشر دقائق.

تابعت كريتا كانو: «بدأت أصابعه تتحرك مجدداً، ملامسةً كل جزء من جسدي، كل جزء دون استثناء. فقدت القدرة على التفكير. وضجّت أذناي بصوت خفقان قلبي، الذي كان يخفق ببطء غريب. ولم أعد أستطيع السيطرة على تنفسي. صرخت بصوت عال وهو يلامسني. حاولت أن أسيطر على صوتي، لكن شخص آخر كان يستخدم صوتي للصراخ والتأوه. شعرت كما لو أن جميع براغي جسدي قد ارتخت. ومن ثم، بعد مدة طويلة، وأنا ما أزال ممدة ووجهي للأسفل، أدخَلَ فيّ شيئاً من الخلف. ما زلت غير متأكدة مما كان. كان ضخماً وصلباً، لكنه لم يكن عضوه. إنني متيقنة من هذا. تذكرت أنني كنت محقة، فقد اتضح أنه عاجز في النهاية.

أياً كان ذلك الشيء الذي أدخله فيّ، فقد جعلني أشعر بالألم للمرة الأولى منذ محاولة انتحاري الفاشلة، ألم حاد وحقيقي يخصني أنا وليس شخصاً آخر. كيف أعبر لك عن هذا؟ كان الأم حاداً على نحو يكاديكون مستحيلاً. شعرت كما لو أن ذاتي الجسدية تنفلق إلى جزأين من الداخل إلى الخارج. رغم ذلك، رغم فظاعة الأمر، كنت أتلوى من المتعة بقدر ما كنت أتلوى من الألم. المتعة والألم كانا شيئاً واحداً. أتفهم ما أعنيه؟ كان الألم مرتكزاً على المتعة والمتعة مرتكزة على الألم. كان عليّ ابتلاع الاثنين باعتبارهما كياناً واحداً. في خضم ذلك المزيج من المتعة والألم، استمر جسدي في الانفلاق. ولم تكن ثمة طريقة أمامي لمنع وقوع ذلك. ثم حدث شيء في غاية الغرابة. من بين نصفَيّ ذاتيّ الجسديتين المنفلقتين، زحف شيء خارجاً، شيء لم أره أو ألمسه من قبل قط. لا يمكنني الجزم بمدى ضخامته، لكنه

كان رطباً ولزجاً كطفل حديث الولادة. لم تكن لديّ أدنى فكرة عن ماهيته. لطالما كان بداخلي، ومع ذلك لم تكن لديّ أي معرفة به. ذلك الرجل سحبه مني.

أردت أن أعرف ماهيته، وأردت رؤيته بعينيّ. فقد كان جزءاً مني رغم كل شيء. ومن حقي رؤيته. لكن ذلك كان مستحيلاً. كنت أنجرف مع تيار المتعة والألم. كنت كائناً جسدياً محضاً. لم أستطع فعل شيء سوى الصياح، وإسالة اللعاب، والتشنج. لذا كان مجرد فتح عينيّ مستحيلاً.

ثم بلغت ذروتي الجنسية، مع إنني شعرت، بدلاً من كونها ذروة، بأنني أُقْذَفُ من حافة عالية. صرخت، وشعرت أن كل قطعة زجاج في الغرفة قد تهشمت. لم أشعر بها فحسب، في الواقع، رأيت النوافذ وكؤوس الشراب وسمعتها تتشظى، وشعرت بالشظايا تنهمر عليّ. ثم شعرت بغثيان رهيب. وبدأ وعيي ينزلق بعيداً عني، وصار جسدي بارداً. أعرف أن هذا سيبدو لك غريباً، لكنني شعرت كما لو أنني تحولت إلى قصعة مليئة بعصيدة باردة، دبقة ومتكتلة، والكتل تنبض، نبضات ضخمة وبطيئة، مع كل نبضة من نبضات قلبي. تعرفت على ذلك النبض. إذ حدث لي من قبل. ولم يستغرقني وقتاً طويلاً لأتذكر ماهيته. كنت أعرفه كما أعرف ذلك الألم البغيض، المميت، الذي لا نهاية له، الذي اختبرته قبل محاولة الانتحار الفاشلة. وكان الألم، مثل عتلة، يخلع غطاء وعيي، يخلعه بقوة قاهرة ويجرّه خارج محتويات ذاكرتي الهلامية، دون أي اعتبار لإرادتي. مع غرابة ما يبدو عليه هذا، فقد كان ذلك مثل مشاهدة شخص لعملية تشريح تُجرى على جثته. أتفهم ما أعنيه؟ شعرت كما لو أنني كنت أشاهد، من مكان عال، جسدي يُشق ويُنتزع منه عضو لزج تلو الآخر.

ظللت مستلقية في مكاني، لعابي يسيل على الوسادة، وجسدي هدّته الاختلاجات، عاجزة عن كبح شهوتي. كنت أعرف أنني ينبغي أن أحاول استجماع شتات نفسي، لكنني فقدت كل طاقة في جسدي. لم ترتخِ جميع براغيّ فحسب، بل تساقطت أيضاً. في ذهني الضبابي، داهمني شعور طاغ بالوحدة والعجز. كل شيء كان ينفلت خارجاً مني. الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة تحولت إلى سائل، واندلقت خارج جسدي كأنها لعاب أو بول. كنت أعلم أنه يجدر بي ألّا أسمح لذاتي بالاندلاق للخارج

هكذا والضياع للأبد. لكن لم تكن بيدي حيلة لايقاف التدفق. لم يكن يسعني سوى المشاهدة. ولم أكن لديّ فكرة عن مدة استمراره. تراءى لي أنني فقدت جميع ذكرياتي، وكل وعيي. كل شيء بداخلي صار بالخارج. وفي النهاية،اكتنفني الظلام خلال لحظة، مثل سقوط ستارة ثقيلة.

وعندما استعدت وعيي، وجدتني شخصاً مختلفاً».

توقفت كريتا كانو عند هذا الحد، ونظرت إليّ، ثم قالت: «هذا ما حدث عندئذٍ».

لم أقل شيئاً، وانتظرت بقية قصتها.

14

كريتا كانو تغادر مجدداً

*

تابعت كريتا كانو قصتها:

«كنت أعيش، لبضعة أيام بعد ذلك، شاعرةً بأن جسدي قد تداعى. لم أكن أشعر، وأنا أمشي، بأن قدميّ تطآن الأرض. ولم أكن أشعر، وأنا آكل، بأنني أمضغ شيئاً في الواقع. وأثناء جلوسي ساكنة، يجتاحني شعور مرعب بأن جسدي يسقط سقوطاً لا نهاية له، أو يطفو للأعلى أسفل منطاد من نوع ما، عبر فضاء لا متناه. لم أعد أستطيع ربط حركات جسدي وإحساساته بذاتي، بل كانت تعمل كما تشاء، دون أن تُلقي بالاً لإرادتي، ودون نظام أو اتجاه محدد. مع ذلك لم أكن أعرف سبيلاً لوضع حد لهذه الفوضى العارمة. كل ما استطعت فعله هو الانتظار حتى يستقر كل شيء من تلقاء نفسه. كنت أحبس نفسي في غرفتي من الصباح إلى الليل، وآكل شيئاً بالكاد. ولا أقول لأسرتي سوى إنني لست على ما يرام.

مرت بضعة أيام على هذا النحو. ثلاثة أو أربعة أيام على ما أظن. ومن ثم، هدأ كل شيء، كما لو أن ريحاً عاتية هبّت ثم ذهبت في طريقها. نظرت فيما حولي،

وتفحصت نفسي، وأدركت أنني أصبحت شخصاً جديداً، مختلفاً تماماً عما كنته حتى تلك اللحظة. هذه هي ذاتي الثالثة. ذاتي الأولى كانت تلك التي عاشت تكابد الألم الذي لا نهاية له. ذاتي الثانية كانت تلك التي عاشت في خَدَر دون أي ألم. كانت الاولى هي أنا في حالتي الأصلية، عاجزة عن تحرير عنقي من نِيْر الألم، وعندما حاولت التحرر منه – أي عندما حاولت الانتحار وفشلت– أصبحتُ ذاتي الثانية: أنا مؤقتة. صحيح أن الألم الذي كان يعذبني حتذاك قد اختفى، لكن توارت كل الإحساسات الأخرى خلف غلالة من ضباب. إرادتي في الحياة، وحيويتي، وقدرتي العقلية على التركيز: جميعها اختفت مع الألم. بعد مروري بتلك المرحلة الانتقالية الغريبة، ظهرت ذاتي الجديدة كلياً. لا يمكنني الجزم بما إذا كانت هي ذاتي التي كان ينبغي أن تكون موجودة طوال الوقت. لكن كان لدي شعور، بغض النظر عن مدى غموضه وعدم تحديده، بأنني، على الأقل، في الاتجاه الصحيح».

رفعت كريتا كانو عينيها ونظرت إليّ مباشرة، كما لو أنها تريد أن تسمع انطباعاتي عن قصتها. ويديها ما تزالان على الطاولة.

قلت: «إذاً، ما تقولينه هو أن ذلك الرجل أعطاك ذاتك الجديدة، هل أنا محق؟»

«ربما أعطاني». قالت كريتا كانو وهي تومئ. وكان وجهها خالياً من التعابير مثل قاع حوض سباحة جاف. «بمداعبات ذلك الرجل، وجعله إياي أشعر بتلك

المتعة العارمة لأول مرة في حياتي، اختبرت تغييراً جسدياً هائلاً. ليست لدي فكرة عن سبب حدوثه، ولماذا كان يجب أن يكون،من بين كل الناس، على يد ذلك الرجل. أياً كانت العملية التي حدثت، تبقى الحقيقة في نهاية المطاف أنني وجدت نفسي في وعاء جديد كلياً. وحالما تخطيت الارتباك الذي ذكرته سابقاً، سعيت لتقبل هذه الذات الجديدة باعتبارها شيء أكثر أصالة، حتى لو كان السبب الوحيد هو أنها مكّنتني من الهروب من الخَدَر الثقيل الذي كان يسربلني، الذي كان سجناً خانقاً لي.

مع ذلك، لازمتني الآثار السيئة وقتاً طويلاً، مثل ظل قاتم. كنت أشعر بضيق فظيع كلما تذكرت أصابعه العشرة، وكلما تذكرت ذلك الشيء الذي أقحمه بداخلي، وكلما تذكرت ذلك الشيء اللزج المتكتل الذي خرج (أو شعرت أنه خرج) مني. شعرت بغضب ويأس لم يكن بوسعي التعامل معهما. حاولت محو ذلك اليوم من ذاكرتي، لكنني كنت عاجزة عن هذا. خلع الرجل غطاء شيء فاتحاً إياه بداخلي، وقد لازمني إحساس الخلع هذا، وارتبط بذكرى ذلك الرجل ارتباطاً وثيقاً، إلى جانب إحساسي بالتدنّس الذي لا يمكن إخفاءه. كان شعوراً متناقضاً. أتفهم ما أعنيه؟ التحول الذي اختبرته كان صحيحاً وحقيقياً بلا شك، لكن ذلك التحول سبّبه شيء قذر، شيء منحرف وخاطيء. هذا التناقض هو ما أرَّقني وقتاً طويلاً».

حدقت كريتا كانو إلى يديها اللتان على الطاولة مجدداً.

«بعد ذلك، توقفت عن بيع جسدي. لم يعد ثمة مغزى من الأمر». ظل وجه كريتا كانو دون تعابير. سألتها: «تمكنتِ من التوقف بهذه البساطة؟»

أومأت «بهذه البساطة. لم أقل شيئاً لأي أحد، توقفت عن بيع نفسي فحسب. لكن هذا لم يسبب لي أي مشكلة. كان سهلاً لدرجة تكاد تكون محبطة. اعتقدت أنهم سيتصلوا بي على الاقل. وهيأت نفسي لذلك اليوم، لكنهم لم يتصلوا ولم يقولوا لي شيئاً إطلاقاً. كانوا يعرفون عنواني، ورقم هاتفي. وكان بإمكانهم تهديدي. لكن لم يحدث شيء.

وهكذا صرت، ظاهرياً على الأقل، فتاة عادية مجدداً. وبحلول ذلك الوقت، كنت قد دفعت لوالدي كل ما كنت أدين له به، وادخرت مبلغاً جيداً من المال. واشترى شقيقي سيارة جديدة، بما منحته له، ليهدر بها وقته بالتسكع هنا وهناك. وما كان ليتخيل ما فعلته لأعيد له ماله.

كنت بحاجة إلى وقت لأعتاد على ذاتي الجديدة. أيّ كائن هي ذاتي هذه؟ كيف تحيا؟ ما الذي تشعر به، وكيف؟ اندلق كل شيء كان بداخلي خارجاً وضاع. في الوقت عينه الذي كنت فيه جديدة كلياً، كنت خاوية تماماً تقريباً. كان علي أن أملأ ذلك الفراغ بيديّ، شيئاً فشيئاً. كان عليّ أن أخلق هذا الشيء المدعو ‘أنا’. أو بالأحرى، كان على خلق الأشياء التي تكوّنني.

كنت ما أزال طالبة، رسمياً، لكن لم تكن لدي النية في العودة إلى الجامعة. كنت أغادر المنزل في الصباح، وأذهب إلى منتزه، وأجلس على مقعد وحدي طوال اليوم، لا أفعل شيئاً. أو كنت أهيم على وجهي في طرق المنتزه، وعندما تمطر، أذهب إلى المكتبة، وأضع كتاباً على الطاولة أمامي، وأتظاهر بالقراءة. وأحياناً أمضي اليوم بطوله في صالة سينما. أو أتجول حول المدينة بلا هدف مستقلة خط يامانوتي الدائري. شعرت كما لو أنني أسبح في فضاء حالك الظلام، وحدي تماماً. لم يكن ثمة أحد يمكنني طلب نصيحته. إذا كانت شقيقتي مالطا موجودة، لتمكنت من البوح لها بكل شيء. لكنها آنذاك كانت في عزلتها بعيداً في جزيرة مالطا، تؤدي ممارساتها التقشفية. لم أكن أعرف عنوانها، ولم تكن لدي وسيلة للاتصال بها. وهكذا تعيّن عليّ معالجة كل هذه المشكلات بنفسي. ما من كتاب يفسر الأشياء التي اختبرتها. مع ذلك، رغم إنني كنت وحيدة، لم أكن تعيسه. كنت قادرة على التشبث بذاتي، على الأقل عندما كانت لدي ذات لأتشبث بها.

كان بمقدور ذاتي الجديدة أن تشعر بالألم، مع إنه لم يكن حاداً كما في السابق. كنت أشعر به. وفي الوقت عينه تعلمت طريقة للهروب منه. أعني إنني كنت قادرة على الانفصال عن ذاتي المادية التي تشعر بالالم. أتفهم ما أعنيه؟ كنت قادرة على تقسيم ذاتي إلى ذات مادية وذات غير مادية. قد يبدو الأمر صعباً عندما أصفه هكذا، لكن حالما تتعلم الطريقة، فهو ليس صعباً إطلاقاً. عندما يداهمني الألم، أغادر ذاتي المادية. تماماً مثلما عندما تنسحب إلى الغرفة المجاورة عندما يأتي

شخص لا تريد مقابلته. يمكنني فعل هذا على نحو طبيعي. أدرك أن الألم حلّ بجسدي وأشعر بوجود الألم، لكنني لست موجودة، بل أكون في الغرفة المجاورة. وهكذا يعجز نير الألم عن تطويق عنقي».

«يمكنك الانفصال عن ذاتك بهذه الطريقة متى ما أردت؟»

قالت كريتا كانو بعد لحظة من التفكير: «لا. في بادئ الأمر، لم أكن أستطيع فعل ذلك إلا إذا كان جسدي يختبر ألما جسدياً. كان الألم هو مفتاح انشقاق وعيي. ولاحقاً، بمساعدة مالطا كانو، تعلمت فعل ذلك بإرادتي إلى حدٍ ما. لكن ذلك كان في مرحلة متأخرة.

وقبل مضي وقت طويل، تلقيت رسالة من مالطا كانو. أخبرتني أنها أخيراً أنهت ثلاثة أعوام من تدريبٍ ما كانت تمارسهفي مالطا وستعود إلى اليابان خلال أسبوع، وأنها عزمتْ على الإقامة في اليابان بصفة دائمة. كنت في غاية الحماسة لأنني سأراها مجدداً. افترقنا قرابة ثمان سنوات. وكما ذكرت سابقاً. مالطا كانت الوحيدة في العالم التي يمكنني البوح لها بكل ما يعتمل في قلبي.

أخبرت مالطا، يوم عودتها إلى اليابان، بكل ما حدث لي. استمعت إلى قصتي الطويلة الغريبة حتى النهاية دون أي تعليق، ودون أن تسألني سؤالاً واحداً. وعندما انتهيت، أطلقت تنهيدة عميقة وقالت لي: 'أعرف أنني كان ينبغي أن أكون معكِ، وكان ينبغي أن أعتني بك طوال هذا الوقت. لسبب ما، لم أدرك أن لديك مشكلات

بهذا الحجم. ربما لأنك كنت مقربة جداً مني. لكن مهما يكن، ثمة أشياء توجّب عليّ فعلها، وأماكن توجب عليّ الذهاب إليها، ولم تكن بيدي حيلة’.

قلت لها إنها ينبغي ألا تشغل بالها بالأمر. فهذه مشكلاتي أنا، في النهاية. وإنني كنت أتطور شيئاً فشيئاً. فكرتْ بما قلته قليلاً بصمت، ثم قالت: ‘كل الاشياء التي اختبرتها منذ مغادرتي اليابان كانت مريرة ومؤلمة لك. لكن كما تقولين، إنك تتجهين إلى حالة أفضل، خطوة تلو الأخرى. انتهى الأسوأ بالنسبة لك، ولن يعود أبداً. مثل هذه الأشياء لن تحدث لك مجدداً أبداً. لن يكون الأمر سهلا، لكنك سوف تتمكني من نسيان أشياء كثيرة ما إن يمر مقدار معين من الوقت. لكن دون ذات حقيقية، لا يستطيع المرء أن يواصل حياته. إنها كالارض التي نقف عليها، فدون الأرض، لا يمكننا بناء أي شيء.

لكن ثمة شيء واحد يجب عليكِ ألاّ تنسيه مطلقاً، وهو أن ذلك الرجل دنّس جسدك. إنه شيء ما كان ينبغي أن يحدث. كان من الممكن أن تضيعي للأبد. ولربما وجدت نفسك هائمة وسط العدم. لحسن الحظ، فإن ذاتك في ذلك الوقت *صادف* أنها لم تكن ذاتك الحقيقية الأصلية. لذلك كان للواقعة أثر عكسي، فبدلاً من احتجازك، حررتك من حالتك الانتقالية. وحدث هذا لحسن حظك فحسب. لكن الدّنَس ما يزال باقياً بداخلك، وفي مرحلة ما، سوف يتعيّن عليك تخليص نفسك منه. وهذا أمر لا أستطيع فعله لك. عليك أن تكتشفي الطريقة بنفسك، وتنفذيها بنفسك’.

ثم أطلقت شقيقتي عليّ اسمي الجديد: كريتا كانو. قالت بما أنني وُلدت من جديد، فإنني بحاجة إلى اسم جديد، وأحببته على الفور. ثم بدأت مالطا كانو تستخدمني وسيطاً روحياً. وتعلمت، تحت إشرافها، المزيد بشأن كيفية التحكم في ذاتي الجديدة وكيفية فصل الجسد عن الروح. وأخيراً، لأول مرة في حياتي، صرت قادرة على العيش بشيء من السلام. وبالطبع كانت ذاتي الحقيقية ما تزال بعيدة عن نطاق استيعابي، فقد كنت ما أزال أفتقر للكثير. لكن بوجود مالطا كانو، كانت لديّ الرفقة، شخص يمكنني الاعتماد عليه، شخص يفهمني ويتقبلني. أصبحت مرشدتي وحاميتي».

«ثم قابلتِ نوبورو واتايا مجدداً، أليس كذلك؟»

أومأت كريتا كانو وقالت: «هذا صحيح. قابلت نوبورو واتايا مجدداً، في مارس من هذا العام. كانت قد مرت خمس سنوات منذ لقائي الأول به وخضوعي للتحول وبداية عملي مع مالطا كانو. التقينا وجهاً لوجه عندما زار منزلنا ليقابل مالطا. لم نتحدث إلى بعضنا. ألقيت عليه مجرد لمحة عند المدخل. لكن تلك اللمحة كانت كافية لتجميدي في مكاني. كان *ذلك الرجل* آخر زبون لي.

انتحيت بمالطا كانو جانباً وأخبرتها بأن ذلك الرجل هو الذي دنّسني. قالت:'حسناً، دعي لي كل شيء، لا تقلقي، ابتعدي، واحرصي على ألا يراك'. فعلت كما أُمرت. ولهذا لا أعرف ما ناقشه مع مالطا كانو عندئذٍ».

«ما الذي من الممكن أن يريده نوبورو واتايا من مالطا كانو؟»

هزت كريتا كانو رأسها «آسفة يا سيد أوكادا، ليست لدي فكرة».

«يأتي الناس إلى منزلكم لأنهم يريدون شيئاً، أليس هذا هو الوضع عادةً؟»

«بلى، إنه كذلك».

«أي نوع من الأشياء يأتون من أجلها؟»

«جميع أنواع الأشياء».

«لكن *أي* نوع من الأشياء؟ أيمكنكِ أن تعطيني مثالاً؟»

عضت كريتا شفتها للحظة: «أشياء ضائعة. أقدارهم. المستقبل. كل شيء».

«وأنتما تعرفان مثل هذه الأشياء؟»

«نعرفها. ليس كل شيء. لكن معظم الأشياء هنا». قالت كريتا كانو وهي تشير إلى صدغها.«كل ما عليك فعله هو الدخول».

«مثل النزول إلى بئر؟»

«نعم. شيء كهذا».

وضعتُ مرفقيّ على الطاولة وأخذت نفساً طويلاً عميقاً.

«الآن. إذا لم تمانعي، ثمة شيء أريد منك أن تخبريني به. ظهرتِ في أحلامي بضع مرات. وفعلت هذا بوعي منك، بكامل إرادتك. هل أنا محق؟»

«نعم، إنك محق. كان ذلك بكامل إرادتي. دخلت إلى وعيك، وضممت جسدي إلى جسدك».

«يمكنكِ فعل أشياء كهذه؟»

«نعم، يمكنني. هذه إحدى وظائفي».

«أنا وأنت ضممنا جسدينا في ذهني». عندما سمعت نفسي أنطق هذه الكلمات، شعرت كما لو أنني علّقت لوحة سريالية صارخة على جدار أبيض. ومن ثم، كأنما أنظر إلى اللوحة من بُعد لأتاكد من أنها ليست مائلة، قلت تلك الكلمات ثانية:«أنا وأنت ضممنا جسدينا في ذهني. لكنني لم أطلب منكما أي شيء. ولم يخطر لي أن أعرف منكما أي شيء. صحيح؟ إذاً لماذا أخذتِ على عاتقك فعل شيء كهذا؟»

«لأن مالطا كانو أمرتني بذلك».

«تعنين أن مالطا كانو استخدمتك وسيطة للتنقيب في عقلي. ما الذي كانت تبحث عنه؟ إجابات لنوبورو واتايا أم لكوميكو؟»

لم تفعل كريتا كانو شيئاً بعض الوقت. وبدت مرتبكة «لا أعرف حقاً. لم تُقدّم لي معلومات مفصلة. وبهذه الطريقة يمكنني أن أكون وسيطة أكثر عفوية. مهمتي الوحيدة هي جعل عقول الناس تعبر من خلالي. ومالطا كانو هي التي تحدد معنى ما أجده فيها. لكن أرجو أن تفهم يا سيد أوكاد، إن مالطا كانو تقف إلى جانبك. وأنا أكره نوبورو واتايا، كما تعرف. وأكثر ما يهم مالطا كانو هو أنا. إنها فعلت هذا من *أجلك أنت* يا سيد أوكادا. هذا ما أعتقده».

خرجت كريتا كانو للتسوق في مركز التسوق الذي في الحي. أعطيتها المال، واقترحت عليها، بما أنها ستخرج، فينبغي لها ارتداء ملابس لائقة. أومأت وذهبت إلى غرفة كوميكو، حيث ارتدت بلوزة قطنية بيضاء وتنورة موشاة بزهور.

«ألا يزعجك يا سيد أوكادا أن أرتدي ملابس كوميكو؟»

هززت رأسي. «طلبت مني في رسالتها أن أتخلص منها جميعها. لن ينزعج أحد إذا ارتديتِ ملابسها».

تماماً كما توقعت. كل شيء كان يناسبها تماماً، على نحو يكاد يكون غريباً. حتى مقاس الحذاء كان نفسه. غادرت كريتا كانو المنزل وهي تنتعل صندل كوميكو. جعلني منظر كريتا كانو، وهي ترتدي ملابس كوميكو، أشعر مجدداً بأن الواقع يغيّر اتجاهه بطريقةٍ ما، كما تغيّر سفينة ركاب ضخمة مسارها ببطء.

اضجعت على الأريكة، بعدما خرجت كريتا كانو، ورحت أحدق إلى الحديقة، وقد استحال عقلي صفحة بيضاء. عادت بسيارة أجرة بعد نصف ساعة تحمل ثلاثة أكياس ضخمة مليئة بالمشتريات. ثم أعدّت لي لحماً وبيضاً وسلطة ساردين.

«قل لي يا سيد أوكادا، هل لديك أي اهتمام بكريت؟»

سألتني كريتا كانو دون سابق انذار بعدما فرغنا من الأكل.

«كريت؟ أتعنين جزيرة كريت الواقعة في البحر المتوسط؟»

«نعم».

هززت رأسي «لا أدري. لا أظن أني مهتم بها. لم أفكر بها كثيراً».

«أتود الذهاب معي إلى كريت؟»

«الذهاب معكِ إلى كريت؟»

«حسناً، في الواقع، أود الابتعاد عن اليابان بعض الوقت. هذا ما كنت أفكر به طوال وجودي في البئر بعدما غادرت. ومنذ إن أطلقت مالطا عليّ الاسم، شعرت برغبة في الذهاب إلى كريت ذات يوم. واستعداداً لذلك اليوم، قرأت كتباً كثيرة عن الجزيرة، حتى إنني درست اللغة اليونانية بنفسي، حتى أستطيع أن أعيش هناك عندما يحين الوقت. لديّ بعض المدخرات، ما يكفي لنعيش هناك مدة طويلة دون صعوبة. ليس عليك أن تقلق بشأن المال».

«هل تعرف مالطا كانو أنك تخططين للذهاب إلى كريت؟»

«لا. لم أقل لها شيئاً عن الأمر. لكنني متأكدة من أنها لن تعترض. وعلى الأرجح ستعتقد أن هذا سيكون شيئاً جيداً لي. كانت تستعين بي وسيطة خلال الخمس سنوات السابقة، لكن لم يكن الأمر وكأنها كانت تستغلني كمجرد أداة ما. كانت تفعل ذلك لتساعدني على التعافي أيضاً. تعتقد أن تمرير عقول أو ذوات أناس مختلفين من خلالي من شأنه أن يمكنني من فهم أعمق لذاتي. أتفهم ما أعنيه؟ الأمر أشبه بخبرة مستقاة من الآخرين عن ماهية امتلاك ذات.

عندما أفكر بالأمر، لم يحدث ولو مرة في حياتي أن قلت لأي أحد، دون مواربة: 'إنني أريد أن افعل هذا'. منذ لحظة ميلادي، كنت أعيش والألم هو مركز حياتي. وهدفي الوحيد في الحياة هو أن أجد طريقة للتعايش مع الألم الحاد. وبعدما بلغت العشرين واختفى الألم عندما حاولت الانتحار، حلّ خَدَر عميق محل الألم. كنت جثة تسير على قدمين. سربلتني عباءة ثقيلة من عدم الشعور. ولم يكن لديّ أي شيء مما يمكنني أن أطلق عليه إرادة. ومن ثم، عندما أُنتُهِك جسدي وخُلع ذلك الغطاء الذي كان في عقلي على يد نوبورو واتايا، نِلت ذاتي الثالثة. حتى مع ذلك، كنت ما أزال غريبة عن نفسي. كل ما تمكنت من فعله هو الإمساك بالوعاء الضروري للذات، مجرد وعاء. وباعتباري وعاءً، تحت إرشاد مالطا كانو، مرّرت عدداً من الذوات من خلالي.

إذاً، هكذا أمضيت الأعوام الست وعشرون من حياتي. تخيَّل فحسب. ستة وعشرون سنة، لم أكن شيئاً. صدمتني هذه الفكرة بقوة عندما كنت أفكر في البئر. أدركت أن الشخص الذي يدعى '*أنا*' طوال هذا الوقت، كان لا شيء. لم أكن سوى عاهرة. عاهرة جسد، وعاهرة ذهنية.

لكن الآن، أحاول أن أستوعب ذاتي الجديدة. إنني لست وعاءً أو وسيطاً. إنني أحاول تأسيس ذاتي هنا على وجه لأرض».

«أفهم ما تقولينه لي، لكن مع ذلك، لماذا تريدين الذهاب إلى كريت معي؟»

«لأن ذلك سيكون أفضل لنا على الأرجح. لك يا سيد أوكادا، ولي. ما من حاجة إلى وجود أي منا هنا في الوقت الراهن. والحالة هذه، أشعر أنه من الأفضل لنا ألاّ نكون هنا. قل لي يا سيد أوكادا، هل من مسار يجب عليك اتباعه؟ أي خطة لما ستفعله من الآن فصاعداً؟»

«الشيء الوحيد الذي أحتاج إلى فعله هو الحديث إلى كوميكو. لا يمكنني فعل أي شيء آخر، حتى نلتقي وجهاً لوجه، وتقول لي إن حياتنا معاً انتهت. لكن ليست لديّ أدني فكرة عن كيفية العثور عليها».

«لكن إذا عثرت عليها، وزواجكما، كما قلت،'انتهى'، فهل ستفكر بالذهاب معي إلى كريت؟ سيكون على كلينا أن يبدأ بداية جديدة في مرحلة ما». قالت وهي تنظر إلى عيني.

«يبدو لي أن الذهاب إلى جزيرة كريت لن يكون بداية سيئة».

ابتسمت كريتا كانو لي. عندما فكرت بالأمر، أدركت أنها أول مرة تبتسم لي. وقد أشعرني ذلك بأن التاريخ بدا يتحرك في اتجاه صحيح.

قالت: «ما يزال أمامنا متسع من الوقت. حتى إذا تعجلت، فسوف استغرق أسبوعين للاستعداد. أرجو أن تستغل الوقت للتفكير بالأمر يا سيد أوكادا. لا أعرف ما إذا كان هناك شيء يمكنني أن أمنحك إياه. يبدو لي أنني لا أملك شيئاً يمكنني منحه في الوقت الراهن. إنني خاوية، حرفياً تقريباً. وقد بدأت للتو وضع بعض المحتويات في هذا الوعاء الفارغ شيئاً فشيئاً. يمكنني أن أهبك نفسي يا سيد أوكادا. إن كان هذا يناسبك. أعتقد أننا يمكننا مساعدة بعضنا».

أومأت، وقلت: «سأفكر بذلك، إنني مسرور لأنك قدمت لي هذا العرض، وأعتقد أنه سيكون من الرائع أن نذهب معاً، حقاً. لكن عليّ التفكير بشأن كثير من الأشياء، ووضع الأمور في نصابها».

«وفي نهاية المطاف، إذا قلتَ إنك لا تريد الذهاب إلى كريت، فلا تقلق، لن أتضايق. سأشعر بالأسف، لكنني أريد إجابتك الصادقة».

*

بقيت كريتا كانو في منزلي مجدداً تلك الليلة. وقبيل غروب الشمس، دعتني للتمشي في منتزه الحي. قررت نسيان العلامة التي على وجهي وأغادر المنزل. ما المغزى من القلق بشأن أشياء كهذه؟ تمشينا ساعة في مساء الصيف الجميل، ثم عدنا إلى المنزل وتناولنا العشاء.

بعد عشاءنا، قالت كريتا كانو إنها تريد أن تنام معي. قالت إنها تريد أن تقيم معي علاقة جنسية جسدية. كان ذلك مفاجئاً، ولم أعرف ما عليّ فعله، وهو ما قلته: «هذا مفاجئ لي، لا أعرف ما علي فعله».

قالت كريتا كانو وهي تنظر إلىّ مباشرة: «سواء أردت الذهاب معي إلى كريت أم لا يا سيد أوكادا، فهذا أمر منفصل تماماً. أريد منك أن تأخذني كعاهرة مرة واحدة. مرة واحدة فقط. أريد منك أن تشتري جسدي. هنا، الليلة. ستكون المرة الأخيرة لي. وسأتوقف عن الدعارة، سواء كانت جسدية أو ذهنية. وسوف أتخلى عن اسم كريتا كانو أيضاً. لكن من أجل فعل ذلك، أريد أن أرسم حداً واضحاً. شيء يقول 'هنا ينتهي كل شيء'».

«أتفهّم رغبتك في رسم حد واضح، لكن لماذا تريدين النوم معي؟»

«ألا ترى يا سيد أوكادا؟ بالنوم معك في الواقع، بتوصيل جسدي بجسدك فعلياً، أريد أن أعبر من خلالك، من خلال هذا المدعو السيد أوكادا. بفعل هذا، أريد أن أتطهّر من الدنس الذي بداخلي. سيكون هذا هو الحد الذي سأقف عنده».

«حسناً، آسف. لكنني لا أشتري أجساد الناس».

عضت كريتا كانو شفتها: «ما رأيك بهذا إذاً؟ بدلاً من المال، اعطني بعضاً من ملابس زوجتك، وأحذيتها. يمكننا أن نجعل منها ثمناً شكلياً لجسدي. لا بأس في هذا، ألا تعتقد ذلك؟ عندئذٍ سأنجو».

«تعنين أنك سوف تتخلصي من الدّنَس الذي تركه توبورو واتايا بداخلك؟»

«نعم، هذا ما أعنيه تماماً».

حدقت إليها. بدا لي وجهها طفولياً دون رموشها الصناعية. قلت: «أخبريني، من هو نوبورو واتايا هذا حقاً؟ إنه شقيق زوجتي، لكنني أعرفه بالكاد. ما الذي يفكر به؟ وما الذي يريده؟ كل ما أعرفه على وجه التأكيد هو أننا نمقت بعضنا».

«نوبورو واتايا شخص ينتمي إلى عالم يناقض عالمك تناقضاً تاماً». صمتت كريتا كانو وبدا أنها تبحث عن الكلمات التي تحتاج إليها لتكمل حديثها. «في عالم تخسر فيه كل شيء يا سيد أوكادا، نوبورو واتايا يكسب كل شيء. في عالم تُنبذ فيه، يكون هو مقبولاً. العكس هو الصحيح تماماً. ولهذا يمقتك لهذه الدرجة».

«لا أفهم هذا. لِمَ قد يلاحظ أنني حي؟ إنه شهير، وصاحب نفوذ. ومقارنة به، أنا لا شيء. لماذا يكلف نفسه عناء كراهيتي؟»

هزت كريتا كانو رأسها وقالت: «الكراهية مثل ظل قاتم وطويل، حتى الشخص الذي يسقط عليه لا يدري من أين يأتي، في معظم الحالات. إنها كسيف ذو حدّين. عندما تجرح الشخص الآخر، تجرح نفسك. وتؤذي نفسك بقدر ما تؤذي الشخص الآخر. ومن الممكن أن تكون قاتلة. وليس من السهل التخلص منها. كن حذراً رجاءً يا سيد أوكادا. إنها خطرة للغاية. حالما تضرب الكراهية بجذورها في قلبك، يصعب جداً اقتلاعها».

«كنتِ قادرة على الشعور بها، أليس كذلك؟ جذور الكراهية في قلب نوبورو واتايا».

«نعم، شعرت بها، وأشعر بها الآن. إنها التي تسببت في انفلاق جسدي، وهي التي دنّستني يا سيد أوكادا. ولهذا لا أريده أن يكون آخر زبون لي كعاهرة. هل فهمت؟»

أويت إلى الفراش مع كريتا كانو في تلك الليلة. نزعت ما كانت ترتديه من ملابس كوميكو وضممت جسدي إلى جسدها، برفق وهدوء. شعرت بالأمر كأنه امتداد لحلمي، كما لو كنت أعيد في الواقع أداء الأشياء التي فعلتها مع كريتا كانو في حلمي. كان جسدها حقيقياً وحيّاً. لكن كان ثمة شيء مفقود: الإحساس الواضح بأن هذا كان يحدث فعلاً. غشيني وهم عدة مرات بأنني مع كوميكو. وليس كريتا كانو. كنت موقناً أنني سأستيقظ حالما أبلغ ذروتي. لكنني لم أستيقظ. كان واقعاً،

واقعاً حقيقياً. لكن كلما ازداد إدراكي لهذه الحقيقة، أشعر بالواقع كأنه أصبح أقل واقعية. كان الواقع يتفكك ويبتعد عن الواقع، خطوة تلو الأخرى، لكن مع ذلك، كان واقعاً.

قالت كريتا كانو وذراعيها يحُيطان بظهري: «يا سيد أوكادا، لنذهب إلى كريت معاً. هذا المكان لم يعد مناسباً لنا. ليس مناسباً لك وليس مناسباً لي. يجب أن نذهب إلى كريت. إذا بقيت هنا، فسيحدث لك شيء سيئ. أعرف هذا. إنني متأكدة.»

«شيء سيئ؟»

«شيء سيئ للغاية».

تنبأت لي كريتا كانو بصوت منخفض لكنه ثاقب، مثل الطائر النبي الذي كان يعيش في الغابة.

15

الشيء السيئ الوحيد الذي حدث في منزل ماي كاساهارا

*

ماي كاساهارا تتحدث عن مصدر الحرارة المقيت

*

«مرحباً يا طائر الزنبرك». سمعت صوت امرأة. نظرت إلى الساعة وأنا أضع سماعة الهاتف على أذني. كانت الرابعة عصراً. عندما رن الهاتف، كنت نائماً على الأريكة، مبللاً بالعرق. وكانت نومة قصيرة بغيضة. جعلتني أشعر كأن أحدهم كان يجثم على صدري طوال وقت نومي. أياً كان، فقد انتظر حتى أغط في النوم، وجاء وجلس عليّ، ثم نهض وغادر قبيل استيقاظي.

«مرحباً». كان صوتها أشبه بهديل هامس. وبدا أنه يمر عبر طبقة إضافية من هواء خفيف قبل أن يصلني.«معك ماي كاساهارا...»

حاولت أن أقول: «مرحبا». لكن فمي لم يتحرك كما أردت. ربما خرجت الكلمة وهي أشبه ما تكون بتأوّه.

سألتني بنبرة ناعمة: «ما الذي تفعله الآن؟»

«لا شيء». قلت مبعداً السماعة لأتنحنح.«لا شيء، كنت غافياً قليلاً».

«هل أيقظتك؟»

«أيقظتِني بالطبع. لكن لا بأس. كانت مجرد غفوة قصيرة».

ترددت ماي كاساهارا لحظة. ثم قالت: «ما رأيك يا طائر الزنبرك، هلاّ أتيت إلى منزلي؟»

أغمضت عيني. وفي ظلام جفنيّ، رأيت أضواءً بألوان وأشكال مختلفة تحوم هنا وهناك.

«لا أمانع».

«إنني آخذ حمام شمس في الباحة، لذلك أدخل من الخلف فحسب».

«حسناً».

«قل لي يا طائر الزنبرك، هل أنت غاضب مني؟»

«لست متأكداً. على أي حال، سوف استحم وأغير ملابسي، ثم آتي إليك. أود أن أتحدث معك بشأن شيء ما».

أخذت حماماً بارداً سريعاً لأصفّي ذهني، ثم اغتسلت بالماء الساخن. وانهيت حمامي بالماء البارد مجدداً. كان ذلك كفيل بإيقاظي، لكنني كنت ما أزال أشعر

بجسدي ثقيلاً. كانت ساقاي تبدآن بالارتعاش، واضطررت عدة مرات للإمساك بالقضيب الذي أعلق عليه المنشفة، أو للجلوس على حافة الحوض. ربما كنت منهكاً أكثر مما ظننت.

بعدما خرجت من تحت الدش وجففت نفسي، نظفت أسناني، ونظرت إلى وجهي في المرآة. كانت العلامة الزرقاء الداكنة ما تزال في مكانها. لم يصبح لونها أغمق أو أفتح من ذي قبل. وفي مقلتيّ شبكة من خيوط حمراء صغيرة، وثمة هالة سوداء أسفل عينيّ. وبدا خدّاي غائران. وكان شعري بحاجة إلى تخفيف. كنت أبدو مثل جثة عادت إلى الحياة لتوها وشقّت طريقها خارجة من القبر.

ارتديت تشيرت وسروالاً قصيراً، وقبعة ونظارة داكنة. خرجت إلى الزقاق، ووجدت أن النهار الساخن لم يقترب من نهايته. كل شيء حي فوق الأرض، كل شيء يمكن رؤيته، كان يلهث آملاً في زخّة مطر مفاجئة. لكن لم يكن هناك أثر لسحابة واحدة في السماء. اكتنفت الزقاق ملاءة من الهواء الساخن الراكد. كان المكان مهجوراً، كما هو الحال دائماً. جيد. في يوم ساخن كذلك، ووجهي يبدو بتلك البشاعة، لم أكن أريد مقابلة أي شخص.

في باحة المنزل المهجور، كان تمثال الطائر ما يزال يحدق إلى السماء، كالعادة، رافعاً منقاره. بدا لي أكثر اتساخاً مما رأيته في المرة السابقة وقد طاله البَلَى وثمة شيء في نظرته. وبدا أنه يحدق بشدة إلى منظر باعث على الكآبة يطفو في

السماء. ولأشاح بنظره بعيداً إذا كان يستطيع فعل ذلك، لكن عينيه كانتا مثبتتان في مكانهما، وليس لديه خيار سوى النظر. ظلت الأعشاب الطويلة التي تحيط بالتمثال دون أي حراك. مثل كورس في تراجيديا إغريقية ينظر حابساً أنفاسه في انتظار نبوءة عرّافة. وكان هوائي التلفاز على السقف يقحم قرون استشعاره الفضية في الحر الخانق بعدم مبالاة. كل شيء كان يبدو ذابلاً ومستنفَداً تحت شمس الصيف اللاهبة.

بعدما جُلت بناظريّ في باحة المنزل المهجور، دخلت إلى باحة ماي كاساهارا. كانت شجرة البلوط تُلقي ظلاً يبدو بارداً على المرجة، لكن من الواضح أن ماي كاساهارا تتجنبه، وتتمدد تحت الشمس اللافحة. كانت مستلقية على ظهرها على كرسي قماشي طويل، مرتدية بيكيني صغير بلون الشوكولاتة، وأقمشته الشحيحة مثبتة في أماكنها بخيوط رفيعة. لم أملك سوى التساؤل عما إذا كان بإمكان أحدهم أن يسبح فعلاً مرتدياً شيئاً كذلك. كما كانت تضع النظارة الشمسية نفسها التي كانت تضعها عندما التقينا أول مرة، وكريات كبيرة من العرق متناثرة على وجهها. وتحت كرسيها منشفة بيضاء، وعلبة دهان تسمير، وبضع مجلات. وعلبتا سبرايت فارغتين ملقاتين إلى جانبها، ويبدو أن أحدهما تؤدي وظيفة منفضة سجائر. وثمة خرطوم مياه مزوّد برشاش ملقى على المرجة، ولم يكلف أي أحد نفسه عناء لفّه بعدما استخدمه.

عندما اقتربت، جلست ماي كاساهارا وأطفأت الراديو. كانت سمرتها أدكن من المرة الماضية. لم تكن سمرة عادية من قضاء نهاية أسبوع على الشاطيء. كان

جسدها بكامله أسمراً على نحو جميل. بدا لي أنها لم تكن تفعل شيئاً سوى الاستلقاء تحت الشمس طوال اليوم، بما في ذلك الوقت الذي قضيته في البئر، ما من شك في هذا. ألقيت نظرة على الباحة. بدت كما كانت المرة الماضية، المرجة الواسعة مشذبة بعناية، والبركة ما تزال فارغة، وتبدو جافة لدرجة تُشعر بالظمأ.

جلست على كرسي القماش الطويل الذي بجوارها وأخرجت حلوى ليمون من جيبي. تسببت الحرارة في التصاق ورق التغليف بالحلوى. نظرت ماي كاساهارا إليّ لحظة دون أن تقول شيئاً. ثم قالت: «ما الذي حدث لك يا طائر الزنبرك؟ ما هذه العلامة التي على وجهك؟ إنها علامة، أليس كذلك؟»

«أعتقد هذا، على الأرجح. لكنني لا أعراف كيفية ظهورها. نظرت إلى وجهي.. وها هي ذي».

رفعت ماي كاساهارا جذعها واتكأت على مرفقها وحدقت إلى وجهي. ثم مسحت حُبيبات العرق المتجمعة بالقرب من أنفها، ودفعت نظارتها الشمسية للأعلى قليلا. كانت العدسات الداكنة تحجب عينيها تماماً.

«ليست لديك فكرة إطلاقاً؟ أدنى فكرة عن مكان أو كيفية انطباعها على وجهك؟»

«مطلقاً».

«مطلقاً؟»

«خرجتُ من البئر، وبعد ذلك بقليل نظرت في المرآة ورأيتها. حقاً. هذا كل شيء».

«هل تؤلمك؟»

«إنها لا تؤلمني، ولا تشعرني برغبة في حكها. لكنها دافئة قليلاً».

«هل ذهبت لمقابلة طبيب؟»

هززت رأسي: «سيكون هذا إهداراً للوقت على الأرجح».

«على الأرجح. إنني أكره الأطباء أيضاً».

نزعت قبعتي ونظارتي الشمسية. واستخدمت منديلي لمسح العرق عن جبهتي. صار إبطا التشيرت الرمادي داكنان بسبب العرق.

قلت: «بيكيني رائع».

«شكراً».

«يبدو كأنهم صنعوه من قصاصات القماش، لتحقيق الاستغلال الأمثل لمواردنا المحدودة».

قالت: «أنزع القطعة العليا عندما يخرج الجميع».

«حسناً، حسناً».

«ليس وكأن هناك الكثير لأكشف عنه». قالت كأنها تقدم عذراً. صحيح إن نهديها كان ما يزالان صغيرين وغير مكتملي النمو.

سألتها: «هل تسبحين مرتدية هذا الشيء؟»

«لا، إطلاقاً. لا أعرف السباحة. ماذا عنك يا طائر الزنبرك؟»

«نعم، يمكنني السباحة».

«إلى أي مسافة؟»

«مسافة بعيدة».

«عشرة كيلومترات؟»

«على الأرجح... ألا يوجد أحد بالمنزل الآن؟»

«غادروا بالأمس، إلى منزلنا الصيفي في إيزو. جميعهم يريدون الذهاب للسباحة خلال عطلة نهاية الأسبوع. أعني بـ'جميعهم' والديّ وشقيقي الأصغر».

«لِمَ لستِ معهم؟»

هزت كتفها هزة صغيرة. ثم أخرجت علبة سجائر هوب وثقاب من بين طيات منشفتها وأشعلتها.

«تبدو زريّ الهيئة يا طائر الزنبرك».

«بالطبع أبدو زري الهيئة بعد أيام في قاع البئر دون طعام أو شراب تقريباً، من الذي لن يبدو زري الهيئة؟»

نزعت ماي كاساهارا نظارتها وأدارت وجهها إليّ، وكانت ما تزال لديها تلك الندبة جوار عينها. «قل لي، يا طائر الزنبرك، هل أنت غاضب مني؟»

«لست متاكداً. لديّ أشياء كثيرة لأفكر بها قبل أن أبدأ الغضب منك».

«هل عادت زوجتك؟»

هززت رأسي «أرسلت لي رسالة. وتقول إنها لن تعود أبداً».

«يا لطائر الزنبرك المسكين!». جلست ومدّت يدها ووضعتها على ركبتي برفق.«يا لطائر الزنبرك المسكين. أتعرف يا طائر الزنبرك، قد لا تصدق هذا، لكنني كنت أخطط لإنقاذك من البئر في النهاية. أردت أن إخافتك فحسب، وتعذيبك قليلاً. أردت أن أرى إن كان بوسعي أن أجعلك تصرخ. وأردت أن أرى ما قد يتطلبه الأمر قبل أن تفقد صوابك».

لم أعرف كيف أرد على هذا، لذلك أومات فحسب.

«هل اعتقدت أنني كنت جادّة عندما قلت إنني سأدعك تموت هناك بالأسفل؟»

بدلاً من إجابتها على الفور، جعّدت غلاف حلوى الليمون وجعلت منه كرة. ثم قلت: «لم أكن متأكداً حقاً. بدوت لي جادة، كما بدوت كأنك تحاولين إخافتي فحسب أيضاً. عندما تكونين في قاع بئر، وتتحدثين إلى أحدهم في الأعلى، يحدث شيء غريب للصوت. لا يمكنك التقاط التعبيرات في صوت الشخص الآخر. لكن في النهاية، إنها ليست مسألة ما هو صحيح. أعني أن الواقع مكوّن من طبقات مختلفة. لذلك، ربما كنت جادة بشأن محاولة قتلي في *ذلك* الواقع. لكنك لم تكوني جادة في *هذا* الواقع. الأمر يتوقف على الواقع الذي تتعاملين *أنت* معه والواقع الذي أتعامل *أنا* معه». أقحمت الكرة التي صنعتها من غلاف الحلوى في فتحة علبة سبرايت.

قالت ماي كاساهارا وهي تشير إلى الخرطوم المُلقى على المرجة: «أيمكنك أن تسديني معروفاً يا طائر الزنبرك؟ هلا رششتني بذلك؟ الجو ساخن للغاية! سوف يغلي دماغي إذا لم أبلل نفسي».

نهضتُ من كرسي القماش وسِرت لألتقط الخرطوم البلاستيكي الأزرق من المرجة. كان دافئاً ورخواً. ثم مددت يدي خلف الأجمة وفتحت الصنبور. تدفقت المياه الساخنة التي كانت في الخرطوم في بادئ الأمر، لكن حرارتها انخفضت تدريجياً، حتى صارت باردة. تمددت ماي كاساهارا على المرجة، وصوبتُ نحوها الخرطوم.

أغمضتْ عينيها وتركت المياه تنهمر على جسدها.«أوه، إنه شعور رائع! يجدر بك أن تبلل نفسك أيضاً يا طائر الزنبرك».

قلت: «إنني لا أرتدي الملابس المناسبة». لكن بدا لي أن ماي كاساهارا تستمتع بالماء كثيراً، وكان الحر لافحاً، فلم أستطع المقاومة. خلعت التشيرت المبلل بالعرق، وانحنيت إلى الأمام، وصوبت الماء على رأسي. وأنا على تلك الوضعية، ابتلعت بعض الماء. كان بارداً وعذباً.

سألتها: «اسمعي، هل هذه مياه بئر؟»

«بالطبع! تأتي عبر مضخة. إنها رائعة، أليس كذلك؟ وباردة جداً. يمكنك شربها أيضاً. طلبنا من موظف في قسم الصحة أن يختبر جودة المياه، وقال إنه ليس ثمة خطب بها، وإنه يكاد يكون من المستحيل أن تحصل على مياه بهذا النقاء في طوكيو. كان مذهولاً. لكن مع ذلك، إننا نخشى شربها. مع كل هذه المنازل المكتظة هكذا، لن تعرف ما يتسرب إليها».

«لكن ألا تعتقدين أن هذا غريب؟ بئر آل مياواكي جافة كعظمة، لكن بئركم مليئة بكل هذه المياه العذبة، ومنزلهم يقع على الجانب الآخر من الزقاق مباشرة. لِمَ هذا الاختلاف؟»

أمالت ماي كاساهارا رأسها: «نعم، بالفعل. ربما تسبب شيءٌ ما في تغير حركة المياه الجوفية، لذلك جفت بئرهم ولم تجف بئرنا. لا أعرف ما قد يكون السبب المحدد بالطبع».

سألتها: «هل حدث أي شيء سيئ في منزلكم؟»

جعّدت ماي كاساهارا وجهها وهزت رأسها. «الشيء السيء الوحيد الذي حدث في هذا المنزل خلال العشر سنوات الماضية هو أنه مضجر لدرجة لعينة!»

جففت نفسها وسألتني عما إذا كنت أريد جعة. قلت إنني أريد. أحضرت قنينتي هاينيكِن باردتين من المنزل. شربتْ واحدة، وشربْتُ الأخرى.

«إذاً، أخبرني يا طائر الزنبرك، ما الذي تعتزم فعله من الآن فصاعداً؟»

«لم أحسم أمري، لكنني على الأرجح سوف أترك هذا المكان، وربما أغادر اليابان».

«تغادر اليابان؟ أين عساك قد تذهب؟»

«إلى كريت».

«كريت؟ هل لهذا علاقة بتلك المرأة، أيا كان اسمها؟»

«ثمة علاقة، نعم».

فكرت ماي كاساهارا بهذا قليلاً.

«وهل أياً كان اسمها هذه هي التي انقذتك من البئر؟»

قلت: «كريتا كانو. نعم إنها هي».

«لديك أصدقاء كثيرين، أليس كذلك يا طائر الزنبرك؟»

«ليس تماماً، بل إنني معروف بأن لدي قلة قليلة من الأصدقاء».

«مع ذلك، إنني أتساءل، كيف عرفت كريتا كانو أنك كنت في قاع البئر. لم تخبر أي أحد بأنك ذاهب إلى هناك، أليس كذلك؟»

«لا أدري».

«لكن على أي حال، إنك ذاهب إلى كريت، صحيح؟»

«لم أحسم أمري تماماً. هذا أحد الاحتمالات. يجب علي أن أسوّي الامور مع كوميكو أولاً».

وضعت ماي كاساهارا سيجارة بين شفتيها واشعلتها. ثم لامست الندبة التي بالقرب من عينيها بطرف إصبعها الصغير. «أتعرف يا طائر الزنبرك، طوال فترة وجودك في قاع البئر، كنت مستلقية هنا تحت الشمس، أشاهد حديقة المنزل المهجور، وأسمّر نفسي، وأفكر بك وأنت في البئر، وكيف أنك تتضوّر جوعاً وتزحف نحو الموت شيئاً فشيئاً. كنت الوحيدة التي أعلم أنك هناك بالأسفل، عاجز عن

الخروج. عندما فكرت بذلك، راودني إحساس جليّ للغاية بما كنتَ تشعر به: الألم، والقلق، والخوف. أتفهم ما أعنيه؟ بفضل ذلك، كنت قادرة على الاقتراب منك بشدة! ما كنت لأدعك تموت. هذا صحيح، حقاً. لكنني أردت الاستمرار إلى أبعد حد ممكن، حيث تبدأ بالتداعي وتفقد صوابك من الخوف ولا تستطيع التحمل أكثر. شعرت حقاً إن ذلك سيكون هو أفضل ما يمكن فعله، لي ولك».

«حسناً، سأقول لكِ أمراً، أعتقد أنك إذا استمريت إلى أبعد حد ممكن، لربما بلغت النهاية. ولكان الأمر أسهل مما ظننت. إذا ذهبت إلى ذلك الحد، كل ما كان سيتطلبه الأمر هو دفعة صغيرة أخيرة. وبعد ذلك لقلت لنفسك إن ذلك أفضل لي ولك». أخذت رشفة من الجعة.

فكرت ماي كاساهارا بذلك هنيهة، وهي تعض شفتها، وقالت: »ربما تكون محقاً، حتى أنا لا أعرف هذا على وجه التأكيد».

شربتُ آخر جرعة من الجعة ونهضت. ارتديت نظارتي الشمسية والتشيرت المبلل بالعرق. «شكراً على الجعة»

«أتعرف يا طائر الزنبرك، ليلة الأمس، بعدما غادرت أسرتي إلى المنزل الصيفي، نزلتُ إلى البئر. وبقيت هناك خمس أو ست ساعات متواصلة، جالسة في سكون فحسب».

«إذا أنتِ التي أخذت سلم الحبال».

قالت بعبوس خفيف: «أجل، أنا التي أخذته».

أدرت عيني إلى المرجة الواسعة، وكان البخار يتصاعد من الأرض الرطبة. وضعت ماي كاساهارا عقب سجارتها بداخل علبة السبرايت الفارغة.

أردفت «لم أشعر بشيء يُذكر في الساعات القليلة الأولى. تضايقت قليلاً من وجودي في مثل ذلك المكان المظلم، لكنني لم أكن مذعورة أو خائفة أو أي شيء. لست من أولئك الفتيات اللاتي يصرخن حتى تُشَق حلوقهن بسبب أتفه الأشياء. لكنني كنت أعلم أنه لم يكن مجرد ظلام. كنتَ هناك لأيام يا طائر الزنبرك وتعرف أنه لا يوجد هناك شيء يُخشى أمره. لكن بعد بضع ساعات، صارت معرفتي بنفسي تقل شيئاً فشيئاً. كنت أشعر ،وأنا جالسة بسكون في الظلام، أن شيئاً بداخلي – بداخل جسدي– كان يتضخّم شيئاً فشيئاً. شعرت بأن هذا *الشيء* ينمو. مثل جذور شجرة في أصيص. وأنه عندما يبلغ حجماً معيناً، سوف يمزقني، وستكون تلك نهايتي. مثل أصيص يتشظى إلى مليون قطعة. أياً كان هذا الشيء، فقد بقى خامداً عندما كنت تحت الشمس. لكن كما لو أنه امتص غذاءً ما في الظلام، بدأ ينمو بسرعة مخيفة. حاولت ايقافه، لكن لم أستطع. وعندها شعرت بخوف شديد، كان أعظم خوف شعرت به في حياتي. كان ذلك الشيء بداخلي، ذلك الشيء الأبيض المقيت المقرف الذي يشبة كتلة من الشحم، كان يجتاحني، ويلتهمني من الداخل. ذلك الشيء المقيت كان صغيراً للغاية في البداية يا طائر الزنبرك».

توقفت ماي كاساهارا عن الحديث لحظة وحدقت إلى يديها، كأنها تتذكر ما حدث لها ذلك اليوم. «كنتُ خائفة حقاً. أظن أن هذا ما أردتك أن تشعر به. أظنني أردتك أن تسمع صوت ذلك الشيء وهو يمضغك».

جسلتُ على الكرسي القماشي ونظرت إلى جسد ماي كاساهارا العاري إلا من البكيني الصغير. كانت في السادسة عشرة، لكن لديها بِنية فتاة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. ذكّرني جسدها بتلك الرسوم التي يستخدمون فيها أقل عدد ممكن من الخطوط، ومع ذلك تعطي إحساساً قوياً بالواقعية. لكن مع ذلك، في الوقت نفسه، كان ثمة شيء بشأن جسدها ترك لديّ انطباعاً بأنه طاعن في السن.

ثم خطر لي فجأة أن أسألها: «هل سبق وشعرت بأن شيئاً ما قد دنَّسك؟»

«دنّسني؟» نظرت إليّ وهي تضيّق عينيها قليلاً «أتعني جسدياً؟ مثل الاغتصاب؟»

«أيا كان. جسدياً أم ذهنياً».

نظرت ماي كاساهارا إلى جسدها، ثم حولت نظراتها إليّ.«جسدياً، لا. أعني أنني مازلت عذراء. سمحت لفتى بأن يتحسسني، لكن فوق ملابس فحسب».

أومأتُ.

«ذهنياً، أممم، لست متأكدة. لا أعرف تحديداً معنى أن تتدنس ذهنياً».

«أنا أيضاً لا أعرف. الأمر هو ما إذا كنت قد شعرت به أم لا. إذا لم تشعري به، فإن هذا على الأرجح يعني أنك لم تُدنّسي».

«لماذا تسألني عن هذا؟»

«لأن بعض الذين أعرفهم يشعرون بذلك، ويسبب لهم جميع أنواع المشكلات المعقدة. لكن ثمة شيء واحد أريد أن أسألك عنه. لماذا تفكرين دائماً بالموت؟»

وضعت سيجارة بين شفتيها وأشعلت عود ثقاب بيد واحدة، ثم ارتدت نظارتها الشمسية.

«أتعني أنك لا تفكر كثيراً بالموت يا طائر الزنبرك؟»

«أفكر بالموت، بالطبع. لكن ليس طوال الوقت. من حين لآخر فحسب، مثل معظم الناس».

«إليك ما أعتقده يا طائر الزنبرك، يُولد كل شخص ولديه شيء مختلف في مركز وجوده. وهذا الشيء، أياً كان، يصبح أشبه بمصدر حرارة يحرك كل شخص من الداخل. لديّ واحد بالطبع، مثل الجميع. لكنه أحياناً يخرج عن سيطرتي، ويتضخم أو ينكمش بداخلي، ويزعزعني. ما أود فعله حقاً هو أن أشارك هذا الشعور مع شخص آخر. لكن يبدو أنني عاجزة عن هذا. الناس لا يفهمون فحسب. قد تكون المشكلة هي أنني لا أعبر عن نفسي على نحو واضح، بالطبع. لكنني أعتقد أن

السبب هو أنهم لا يستمعون جيداً. يتظاهرون بأنهم يستمعون، لكنهم لا يستمعون حقاً. لذلك أخرج عن طوري أحياناً، وأفعل أشياءً جنونية».

«أشياء جنونية؟»

«فلنقل مثلاً، تركَكَ عالقاً في البئر. أو عندما أكون راكبة خلف أحدهم على دراجة نارية، أضع يديّ على عيني الشخص الذي يقود».

عندما قالت هذا، لمستْ الندبة التي جوار عينها.

فسألتها: «وهكذا وقع حادث الدراجة النارية؟»

نظرت ماي كاساهارا إليّ نظرة متشككة، كما لو أنها لم تسمع ما قلته، لكن كل كلمة نطقتها بلغت مسامعها. ولم أستطع تبيّن تعابير عينيها خلف النظارة الداكنة. لكن بدا لي أن نوعاً من الخَدَر انتشر على وجهها، مثل زيت سُكب على سطح ماء ساكن.

سألتها مجدداً: «ماذا حدث للشاب؟»

واصلت ماي كاساهارا النظر إليّ، محتفظة بالسيجارة بين شفتيها، أو ربما كانت تنظر إلى علامتي.«هل عليّ أن أجيب عن هذا السؤال يا طائر الزنبرك؟»

«ليس إذا لم ترغبي في ذلك. أنت التي أثرت الموضوع. إذا لم ترغبي في الحديث عنه، فلا تتحدثي».

صمتت ماي كاساهارا، وبدت حائرة فيما عليها فعله. عبّت نفساً عميقاً من الدخان ونفثته ببطء. ثم نزعت نظارتها الشمسية بحركات ثقيلة وأدارت وجهها للشمس، مغمضة عينيها. شعرت، وأنا أراقبها، كأن تدفق الزمن يتباطأ شيئاً فشيئاً، كما لو أن زنبرك الزمن بدأ يفقد قوته.

«مات». قالت أخيراً، بصوت خال من التعابير، كأنها استسلمت لشيء ما.

«مات؟»

نقرت ماي كاساهارا على سيجارتها لتنفض عنها الرماد، ثم حملت منشفتها ومسحت العرق عن وجهها مراراً وتكراراً. وفي النهاية، كأنها تذكرت مهمة كانت قد نسيتها، قالت بعبارات مقتضبة: «كنا نقود بسرعة عالية. وقع الحادث بالقرب من إنيوشيما».

نظرت إليها دون أن أنبس بكلمة. أمسكتْ بطرفي المنشفة بيديها ووضعتها على خديها. كان الدخان الأبيض يتصاعد من السيجارة التي بين أصابعها، ومع سكون الهواء، كان يصعد للأعلى مباشرة، مثل إشارة دخان مصغرة. كان من الواضح أنها لم تكن تدري ما إذا كان عليها أن تبكي أم تضحك، أو على الأقل هذا ما بدا لي. كانت تترنح فوق خيط رفيع يفصل بين الاحتمالين، لكن في النهاية لم تسقط على أي جانب. تمالكت نفسها، ووضعت المنشفة على الأرض، وأخذت نفساً

من سيجارتها. كان الوقت يقترب من الخامسة، لكن الشمس كانت تُصْلينا بأشعتها بلا هوادة.

قالت: «أنا قتلته. لم أقصد قتله بالطبع. أردت أن أتمادى فحسب. كنا نفعل أشياءً كهذه طوال الوقت. كانت أشبه بلعبة. كنت أغطي عينيه أو أدغدغه ونحن على متن الدراجة النارية، لكن لم يحدث أي شيء من قبل. حتى ذلك اليوم...»

رفعت ماي كاساهارا وجهها ونظرت إليّ.

«على كل حال يا طائر الزنبرك، لا. لا أشعر بأنني دُنِّست. أردت الاقتراب من ذلك الشيء المقيت فحسب. أردت أن أخدعه وأدفعه للخروج ثم أسحقه. يتعيّن عليك الذهاب لأبعد الحدود إذا أردت أن تخدعه ليخرج، إنها الطريقة الوحيدة. لا بد أن تقدم له طُعماً جيداً». هزت رأسها ببطء. «لا، لا أعتقد أنني دُنِّست. بيد أنني لم أُنقذ أيضاً. ليس ثمة أحد يمكنه إنقاذي الآن يا طائر الزنبرك. يبدو العالم خاوياً تماماً بالنسبة لي. كل ما أراه حولي يبدو مزيفاً. الشيء الوحيد الذي ليس بمزيف هو ذلك الشيء المقيت بداخلي».

ظلت ماي كاساهارا جالسة ساكنة في مكانها قليلاً، تتنفس أنفاساً قصيرة منتظمة. لم تكن هناك أي أصوات في المكان. ما من صيحات طيور أو صرير حشرات. خيّم هدوء رهيب على الباحة، كما لو أن العالم صار خاوياً بالفعل.

استدارت ماي كاساهارا في كرسيها لتواجهني. بدت كأنها تذكرت شيئاً فجأة، وقد خلا وجهها من أي تعبير، كما لو أنها غسلته.«قل لي يا طائر الزنبرك، هل نمت مع المرأة كانو تلك؟»

أومأتُ.

«هل ستراسلني من كريت؟»

«بالطبع، إذا ذهبت».

قالت بعد برهة من التردد: «أتعرف يا طائر الزنبرك، أعتقد أنني ربما أعود إلى المدرسة».

«أوه، إذاً غيرت رأيك بشأن المدرسة، هه؟»

هزت كتفها هزه خفيفة. «إنها مدرسة مختلفة. رفضت العودة إلى مدرستي القديمة رفضاً باتاً. المدرسة الجديدة بعيدة قليلاً من هنا. لذلك، على أي حال، على الأرجح لن أتمكن من رؤيتك مدة من الوقت».

أوماتُ. ثم أخرجت قطعة من حلوى الليمون من جيبي ووضعتها في فمي. ألقت ماي كاساهارا نظرة سريعة فيما حولها وأشعلت سيجارة.

«أخبرني يا طائر الزنبرك، هل من الممتع النوم مع عدة نساء؟»

«ليس لهذا علاقة بالموضوع».

«أجل، سمعت هذا من قبل».

قلت: «صحيح». لكنني لم أعرف شيئاً آخر أقوله.

«آه، انس الأمر. لكن أتعرف أمراً يا طائر الزنبرك، إنني قررت العودة للمدرسة لا لشيء إلا لأنني قابلتك. لا أمزح».

سألتها: «ولِمَ ذلك؟»

«أجل، لمَ ذلك؟» قالت ماي كاساهارا، ثم جعدت زوايا عينيها ونظرت إليّ. «ربما أريد العودة إلى العالم العادي. لكن صدقاً يا طائر الزنبرك، رفقتك كانت ممتعة. بلا مزاح. أعني، إنك رجل عادي جداً، لكنك تفعل أشياء غير عادية بالمرة. كما إنك.. ماذا؟.. لا يمكن التنبؤ بما ستفعله. لذلك فإن التسكع معك لم يكن مملاً إطلاقاً. ليست لديك فكرة عن مدى فائدة ذلك لي. عدم الشعور بالملل يعني أنني لن أكون مضطرة للتفكير بشأن الكثير من الأشياء الغبية. صحيح؟ لذا من هذه الناحية، كنت سعيدة برفقتك. لكن لأكون صادقة معك، شعرت بالتوتر أيضاً».

«من أي ناحية؟»

«حسناً، كيف يمكن أن أعبر عن هذا؟ أحياناً، وأنا أنظر إليك، أشعر بأنك ربما تقاتل شيئاً بضراوة، *من أجلي*. أعلم أن هذا يبدو غريباً، لكن هذا ما يحدث، أشعر أنني أقاتلوأتعرَّق معك. أتفهم ما أعنيه؟ دائماً ما تبدو هادئاً للغاية، كما لو أن

لا شيء يعنيك، مهما حدث. لكنك لست كذلك. بطريقتك الخاصة، إنك تجاهد باذلاً كل مابوسعك، حتى إذا لم يستطع الناس معرفة ذلك بمجرد النظر إليك. وإلا لما نزلت إلى قاع البئر. صحيح؟ لكن مهما يكن. إنك لا تقاتل من أجلي بالطبع. إنك تتداعي على نفسك، محاولاً مصارعة هذا الشيء الهائل، أياً كان، والسبب الوحيد الذي يدفعك لهذا هو رغبتك في العثور على كوميكو. لذلك ليس ثمة مغزى من تعرُّقي من أجلك. أعرف كل هذا. لكن مع ذلك، لا أملك سوى الشعور بأنك تناضل من أجلي يا طائر الزنبرك.

بطريقة ما، إنك على الأرجح تقاتل من أجل أناس كثيرين في نفس الوقت الذي تقاتل فيه من أجل كوميكو، وربما لهذا السبب تبدو أبلهاً تماماً أحياناً. هذا ما أعتقده يا طائر الزنبرك. لكن عندما أراك تفعل هذا، أشعر بالقلق والتوتر، ثم بالاستنزاف التام. أعني، يبدو الفوز مستحيلاً بالنسبة لك. إن كان عليّ أن أراهن في المعركة، لراهنت على خسارتك. آسفة، لكن هذا ما هو عليه الأمر. إنني استلطفك كثيراً، لكنني لا أريد أن أفلس».

«أتفهّم هذا تماماً».

«لا أريد مشاهدتك تهلك، ولا أريد أن أتعرّق من أجلك أكثر مما فعلت. لهذا قررت العودة إلى عالم عادي قليلاً. لكن إذا لم أقابلك هنا – هنا أمام هذا المنزل المهجور– لا أعتقد أن الأمور كانت لتسير على هذا النحو، ولما فكرت بالعودة إلى

المدرسة أبداً. ولما زلت أتسكع في عالمي الغريب. لذلك، من هذه الناحية، فإن الفضل يعود إليك، يا طائر الزنبرك. إنك لست عديم الفائدة تماماً».

أومأتُ. كانت المرة الاولى منذ مدة طويلة التي يقول فيها أحدهم شيئاً لطيفاً عني.

قالت ماي كاساهارا: «تعال إلى هنا يا طائر الزنبرك». ثم جلست على كرسيها. ونهضتُ من كرسيّ وذهبت إلى كرسيها.

«أجلس هنا، يا طائر الزنبرك».

فعلت ما أُمرت به، وجلست إلى جوارها.

«أرِني وجهك يا طائر الزنبرك».

حدقت إليّ قليلاً، ثم ضغطت براحة يدها على العلامة التي على خدي، وهي تضع يدها الأخرى على ركبتي.

قالت بما يشبه الهمس: «يا لطائر الزنبرك المسكين! الآن أغمض عينيك، أطبقهما بإحكام».

أغمضت عيني بإحكام.

لامست ماي كاساهارا علامتي بشفتيها الصغيرتين، ثم باعدت بينهما ومررت لسانها على علامتي، ببطء شديد، وغطت كل جزء منها. أما اليد التي وضعتها على

ركبتي،فظلت في مكانها طوال الوقت. شعرت بلمستها الدافئة الرطبة كأنها تأتيني من مكان بعيد، من مكان أبعد مما لو عبر جميع حقول العالم. ثم أخذت بيدي وجعلتني ألمس الندبة التي بجانب عينها. داعبت الندبة التي بطول نصف بوصة، فشعرت بموجات وعيها تتبض من خلال أطراف أصابعي إليّ، كأنها صدى توْق خافت. قلت لنفسي، على الأرجح يجدر بأحدهم أن يضم هذه الفتاة بين ذراعيه بقوة. شخص غيري. شخص يصلح لإعطائها شيئاً ما.

«وداعاً يا طائر الزنبرك، أتمنى رؤيتك مجدداً في وقت ما».

16

أبسط شيء

*

انتقام في صيغة معقدة

*

الشيء الذي في حقيبة الجيتار

*

اتصلت بخالي في اليوم التالي وأخبرته بأنني ربما انتقل من المنزل خلال الأسابيع القليلة التالية. اعتذرت لإخطاري له بالأمر دون مقدمات، لكنني أوضحت له أن ذلك لأن كوميكو قد هجرتني، دون سابق إنذار. لم يعد هناك معنى لإخفاء الأمر. أخبرته أنها قد كتبت إليّ قائلة إنها لن تعود، وأنني أريد الابتعاد عن هذا المكان، بالرغم من أنني لست متأكداً حتى من وقت اعتزامي الرحيل. تفسيري الموجز تبعه صمت من طرف خالي. بدا أنه يفكر ملياً بشيء ما. ثم قال: «أتمانع إذا زرتك في وقت قريب؟ أود أن أرى ما يحدث بعيني. كما إنني لم أزر المنزل منذ وقت طويل».

*

جاء خالي إلى المنزل بعد يومين. نظر إلى علامتي لكنه لم يقل شيئاً بشأنها. الأرجح أنه لم يعرف ما يقوله. نظر إليها نظرة استغراب، مضيّقاً عينيه. كان قد جلب

لي معه قنينة ويسكي من نوعيه جيدة ولفافة من الكعك اشتراها من أوداوارا. جلسنا في الشرفة، نتناول الكعك ونعاقر الويسكي.

«يا لها من متعة، أن أتمكن من الجلوس في شرفة مجدداً». قال خالي، وهو يومئ عدة مرات. «شقتنا ليست بها شرفة بالطبع. أحنُّ إلى هذا المكان بشدة أحياناً. يداخلك شعور مميز بالجلوس في شرفة لن تجده في أي مكان آخر».

ظل جالساً يرنو إلى القمر بعض الوقت، كان هلالاً أبيضاً رشيقاً بدا كما لو أن أحدهم قد فرغ من تشذيبه للتو. بدا لي أن طفو مثل ذلك الشيء في السماء أمراً إعجازياً.

ومن ثم، سألني خالي، بطريقة عفوية تماماً: «ما قصة هذه العلامة؟»

«لا أدري». قلت وأخذت جرعة من الويسكي. «اكتشفت وجودها دون أي مقدمات. قبل أسبوع ربما؟ أتمنى أن أستطيع أن أشرح لك بشكل أفضل، لكنني لا أعرف كيف».

«هل ذهبت إلى الطبيب؟»

هززت رأسي.

«لا أريد إقحام أنفي في ما لا يعنيني، لكن دعني أقل لك هذا: يجب عليك أن تجلس بروِيّة وتفكر ملياً بشأن ما هو مهم بالنسبة لك».

أومأت قائلاً: «*كنت أفكر* بالفعل، لكن الأمور في غاية التعقيد والتشابك ويبدو أنني غير قادر على فرزها والتعامل معها كلاً على حدة. لا أعرف كيف أحل تشابك الأشياء».

ابتسم خالي: «أتعرف ما أعتقده؟ أعتقد أنك يجب أن تبدأ بالتفكير بشأن أبسط الأشياء، كنقطة بداية، ثم تنطلق منها. على سبيل المثال، يمكنك الوقوف في زاوية شارع في مكان ما يوماً بعد يوم والنظر إلى الناس العابرين. لست في عجلة لتقرر أي شيء. قد يكون هذا صعباً، لكن أحياناً يتعين عليك أن تتوقف وتستقطع وقتاً. يجب أن تدرب نفسك على النظر إلى الأشياء بعينك إلى أن تتضح لك معالمها. ولا تخشَ إنفاق الوقت في ذلك. يمكن أن يكون إمضاء الكثير من الوقت في فعل شيء ما من أكثر أشكال الانتقام تكلّفاً»

«انتقام؟! ما الذي تعنيه بـ ‘انتقام’؟ انتقام ممن؟»

قال خالي بابتسامة: «ستفهم هذا قريباً».

*

بعدما قلنا كل ما لدينا، ظللنا جالسين في الشرفة، نعاقر الويسكي معاً، قرابة ساعة أو تزيد. ثم نهض خالي، قائلاً إنه بقي لمدة أطول من اللازم، وغادر. صرت وحدي مجدداً، جلست على أرضية الشرفة، متكئاً على عمود، ورحت أحدق إلى الحديقة تحت القمر. لبعض الوقت، كنت قادراً على تنفس هواء الواقعية أو أياً كان

ما تركه خالي خلفه، وعلى الشعور، لأول مرة منذ مدة طويلة، بشيء من الراحة. لكن خلال بضع ساعات، بدأ ذلك الهواء يتبدد واكتنفتني عباءة شاحبة من الأسى مجدداً. وفي النهاية، عدت إلى عالمي مجدداً، وذهب خالي إلى عالمه. قال خالي إنني ينبغي أن أفكر بأبسط الأشياء أولاً، لكن استحال عليّ التفريق بين ما هو بسيط وما هو شائك. ولذلك، في الصباح التالي، بعد ساعة الذروة، استقللت القطار إلى شينجوكو. قررت أن أقف هناك وأنظر إلى وجوه الناس. لم أكن أعرف إن كان ذلك سوف يفيدني بأي طريقة، لكنه على الأرجح أفضل من الجلوس مكتوف اليدين. إذا كان النظر إلى وجوه الناس حتى السأم منهم مثالاً لشيء بسيط، فلن تضيرني المحاولة. إن سار الأمر على نحو جيد، ربما يمنحني إشارة لماهية الأشياء البسيطة، بالنسبة لي.

في اليوم الأول، أمضيت ساعتين كاملتين جالساً على جدار منخفض من الطوب يمتد بمحاذاة محطة شينجوكو، أشاهد وجوه الذين يمرون بجواري. لكن أعداد الناس كانت أكبر مما ينبغي، وكانوا يسيرون سيراً حثيثاً. لم أتمكن من إلقاء نظرة جيدة على وجه أي أحد منهم. ومما زاد الطين بلة، اقترب مني أحد المشردين بعدما رآني جالساً هناك مدة وبدأ يلقي عليّ خطبة رنانة حول موضوع ما. ومرّ شرطي عدة مرات ورمقني بنظرات نارية. لذلك تخليت عن تلك المنطقة المكتظة خارج المحطة وقررت البحث عن مكان ملائم لمراقبة العابرين مراقبة متأنية.

سرت على الرصيف الممتد على الجانب الغربي من المحطة، وبعدما أمضيت بعض الوقت سائراً في ذلك الحي، وجدت ساحة أمام مبنى زجاجي عال. كان يتوسطها تمثال صغير، ومقاعد أنيقة حيث يمكنني الجلوس والنظر إلى الناس كما يحلو لي. لم يكن عدد الناس يداني عدد أولئك الخارجين من المدخل الرئيس للمحطة، ولم يكن ثمة مشرد يضع زجاجات ويسكي في جيبه. قضيت النهار هناك، متدبراً أمر غدائي بالكعك المحلَّى والقهوة من محل دَنكَن دونَتس. وعدت إلى المنزل قبل ساعة الذروة المسائية.

في بادي الأمر، كان الوحيدون الذين لفتوا انتباهي هم الرجال أصحاب الشعر الخفيف. وذلك بفضل التدريب الذي تلقيته من إجراء المسوحات مع ماي كاساهارا لصالح شركة الشعر المستعار. تتغرس نظراتي، دون أن أعي ما يحدث، في رأس أصلع وأصنف الرجل إما ضمن الفئة أ، أو ب، أو جـ. بتلك الطريقة، ربما كان من الأفضل أن أتصل بماي كاساهارا وأتطوع للانضمام إليها للعمل مجدداً.

لكن بعد مرور بضعة أيام، ألفيت نفسي قادراً على مجرد الجلوس ومشاهدة وجوه الناس دون أن تقفز أي فكرة إلى ذهني. معظم العابرين بذلك المكان كانوا رجالاً ونساءً يعملون في مكاتب بالمبنى العالي. يرتدي الرجال قمصان بيضاء وربطات عنق ويحملون حقائب. ومعظم النساء تنتعلن أحذية بكعوب عالية. والبقية الذين رأيتهم كانوا من زبائن مطعم ومتاجر المبنى، ومجموعات أُسرية متجهة إلى الطابق الأعلى لمشاهدة المنظر، وقلة من الناس كانوا مارّين بالمكان فحسب،

سائرين من وجهة إلى أخرى. وهنا لا يميل الناس للسير بسرعة. رحت أشاهدهم جميعاً، دون أي هدف واضح. بين الفينة والأخرى، يلفت بعضهم انتباهي لسبب أو لآخر، ثم أركز على وجوههم وأتابعهم بعيني.

كنت أستقل القطار إلى شينجوكو عند العاشرة من كل يوم، بعد ساعة الذروة، وأجلس على المقعد في الساحة، وأظل هناك دون حراك تقريباً حتى الرابعة مساء، أحدق إلى وجوه الناس. صار بمقدوري أن أجعل ذهني فارغاً تماماً، ولم أستطع فعل هذا إلا بعدما درّبت عينيّ على مراقبة وجه واحد تلو الآخر. لم أتحدث إلى أي أحد، ولم يتحدث أي أحد إلي. لم أكن أفكر بشيء أو أشعر بأي شيء. وغالباً ما كنت أشعر بأنني أصبحت جزءاً من حجر المقعد.

لكن تحدثت امرأة إليّ مرة، امراة نحيلة وأنيقة في منتصف عمرها. كانت ترتدي فستاناً ضيقاً بلون وردي فاتح، ونظارة شمسية بإطار من عظم ظهر السلحفاة، وتعتمر قبعة بيضاء، وتحمل حقيبة يدوية شبكية بيضاء. ساقاها جميلتان، وتنتعل حذاءً جلدياً أبيضاً يبدو باهظ الثمن. سألتني عما إذا كنت أمر بمحنةٍ ما. أجبت، *لا إطلاقاً*. قالت، يبدو لي أنني أراك هنا كل يوم، وسألتني عما أفعله. قلت إنني كنت أنظر إلى وجوه الناس. سألتني عما إذا كنت أفعل ذلك لغرض معين، وقلت لا.

جلستْ إلى جانبي، وأخرجت علبة سجائر فرجينيا سليمز من حقيبتها وأشعلت واحدة بقداحة ذهبية صغيرة، وقدمت لي واحدة، لكنني هززت رأسي. نزعت نظارتها

الشمسية، ودون أي كلمة، راحت تحدق إليّ مباشرة. أو تحديداً، كانت تحدق إلى العلامة التي على وجهي. ومن جانبي، بادلتها التحديق، محاولاً الغوص في عينيها، لكنني لم أستطع رصد أي مشاعر فيهما. لم أرَ شيئاً سوى بؤبؤين يتحركان كما ينبغي لهما. كان أنفها صغيراً ومدبباً، وشفتاها رفيعتين، وُضع عليهما أحمر الشفاه بعناية فائقة. وجدت صعوبة في تخمين عمرها، لكن افترضت أنها في أواسط الأربعينات. بدت أصغر من هذا في البداية، لكن الخطوط التي بجانب أنفها تشي بإرهاق من نوع خاص. سألتني: «هل لديك أي نقود؟»

فوجئت «نقود؟ ما الذي تعنيه بما إذا كان لدي نقود؟»

«إنني أسأل فحسب. هل لديك أي نقود؟ هل أنت مفلس؟»

«لا. ليس حالياً، ولست مفلساً».

أمالت شفتيها إلى جانب، كأنها تتأمل ما قلته. وواصلت تركيز كل انتباهها عليّ. ثم أومأت. ومن ثم ارتدت نظارتها الشمسية، وألقت سيجارتها على الأرض، ونهضت من مقعدها برشاقة، ودون أن تلقي بنظرة أخرى ناحيتي، سارت مبتعدة. شاهدتها مذهولاً وهي تختفي وسط الحشد. ربما كانت مجنونة قليلاً، لكن هندامها الذي لا تشوبه شائبة صعّب عليّ اعتقاد ذلك. وطئتُ سيجارتها الملقاة، وسحقتها. ثم جُلت بعينيّ فيمحيطي ببطء، الذي اتضح أنه يسوده العالم الطبيعي المعتاد. أناس

ينتقلون من مكان لآخر، لكل منهم هدفه، لا أعرفهم، ولا يعرفونني. أخذت نفساً عميقاً وعدت إلى مهمة النظر إلى وجوه أولئك الناس، دون أي فكرة في ذهني.

واصلت الجلوس في ذلك المكان أحد عشر يوماً دون انقطاع. كل يوم، أتناول القهوة والكعك المحلّى، ولا أفعل شيئاً سوى مشاهدة وجوه العابرين. عدا عن المحادثة العبثية الصغيرة مع المرأة المتأنقة التي ابتدرتني بالحديث، لم أتحدث إلى أي أحد طوال أحد عشر يوماً. لم أفعل شيئاً مميزاً، ولم يحدث شيء مميز لي. لكن حتى بعد فترة الخواء هذه التي امتدت أحد عشر يوماً، لم أكن قادراً على الوصول إلى أي نتيجة. كنت ما أزال تائهاً في متاهة معقدة، عاجزاً عن حل أبسط مشكلة.

لكن بعدها، في مساء اليوم الحادي عشر، حدث شيء في غاية الغرابة. كان يوم أحد، وقد بقيت هناك أشاهد الوجوه إلى وقت متأخر عن المعتاد. كان الذين يأتون إلى شينجوكو يوم الأحد مختلفين عن حشد بقية أيام الأسبوع، وليست ثمة ساعة ذروة. وقع بصري على شاب يحمل حقيبة جيتار سوداء. كان متوسط الطول، ويرتدي نظارة بإطار بلاستيكي أسود، وشعره منسدل على كتفيه، ويرتدي سروالاً وقميصاً من الجينز، ويدب بإعياء منتعلاً حذاءً رياضياً بالياً. سار بجواري، وهو ينظر أمامه مباشرة، وترتسم على عينيه علامات التفكير العميق. عندما رأيته، صعقني شيء ما، وخفق قلبي. قلت لنفسي، *أعرف ذلك الرجل*. رأيته في مكان ما. لكن استغرقت بضع ثوان لأتذكر أنه كان المغني الذي رأيته تلك الليلة في الحانة في سابورو. ما من شك. كان هو.

تركت مقعدي على الفور وهرعت خلفه، ونظراً لإيقاع سيره المتأني، لم يصعب عليّ اللحاق به. تبعته متأخراً عنه بعشر خطوات، وضبطت إيقاع سيري مع إيقاعه. فكرت بجدية في احتمال الحديث معه. كنت لأقول شيئاً مثل: ‘كنت تغني في سابورو قبل ثلاث سنوات، أليس كذلك؟ سمعتك هناك’.

كان ليقول: ‘آه، حقاً؟ شكراً جزيلاً لك’.

ثم ماذا؟ هل ينبغي لي أن أقول: ‘أجرت زوجتي عملية إجهاض في تلك الليلة. وقد هجرتني قبل وقت ليس بالطويل. وكانت تنام مع رجل آخر؟’

قررت تعقبه فحسب وأرى ما يحدث. ربما أجد، أثناء سيري خلفه، طريقة أفضل للتعامل مع الوضع.

كان يسير مبتعداً عن المحطة، مرّ خلف سلسلة من المباني العالية، وعبر طريق أومِه السريع، واتجه إلى يويوغي. بدا مستغرقاً في التفكير. ومن الواضح أنه كان يعرف المنطقة، فهو لم يتردد أو ينظر فيما حوله، إنما ظل يسير بالإيقاع نفسه، ناظراً أمامه مباشرة. تبعته وأنا أفكر باليوم الذي أجرت فيه كوميكو عملية الإجهاض. سابورو في بدايات مارس. كانت الأرض صلبة ومتجمدة، تتساقط ندف الثلج المرتعشة بين الفينة والأخرى. عدت بذاكرتي إلى تلك الشوارع. رئتاي ملئيتان بالهواء المتجمد. ورأيت الأنفاس البيضاء تخرج من أفواه الناس.

عندئذٍ قفزت فكرة إلى ذهني: الأرجح أن ذلك هو اليوم الذي بدأت تتغير فيه الأحوال. أجل، قطعاً. تلك كانت هي نقطة التحول. فبعد ذلك، بدأ التيار من حولي يشهد تغييراً ملحوظاً. عندما فكرت بالأمر، كان الإجهاض حدثاً مهماً لنا نحن الاثنين. لكن في ذلك الوقت لم أعي مدى أهميته. كان وعيي مشتتاً بفعل الإجهاض نفسه، بينما كان الشيء المهم حقاً في مكان مغاير تماماً.

قالت: *«كان عليّ إجراء العملية. شعرت أن هذا هو الأمر الصحيح، والأفضل لنا معاً. لكن ثمة شيء آخر، شيء لا تعرفه، شيء ليست لدي القدرة على التعبير عنه بالكلمات بعد. لا أخفي عنك شيئاً. كل ما في الأمر هو أنني لست متأكدة مما إذا كان شيئاً حقيقياً أم لا. ولهذا لا أستطيع التعبير عنه بالكلمات بعد».*

في ذلك الوقت، لم يكن بمستطاعها التأكد من أن ذلك الشيء كان حقيقياً. وذلك الشيء، دون أدنى شك، كان وثيق الصلة بالحمل أكثر من عملية الإجهاض. ربما كان للأمر علاقة بالطفل الذي كان في رحمها. ماذا يمكن أن يكون؟ ما الذي قذف بها في دوامة التشوش تلك؟ هل أقامت علاقة مع رجل آخر ورفضت ولادة طفله؟ لا، لم يكن ذلك موضع نقاش. قالت بنفسها إن ذلك مستبعد تماماً. كان طفلي، لا شك في ذلك. لكن رغم ذلك، كان ثمة شيء لم يكن بمقدورها إخباري به. وذلك الشيء كان وثيق الصلة بقرار هجْرها لي. كل شيء بدأ من ذلك.

لكن لم تكن لديّ أدنى فكرة عن ماهية ذلك الشيء، وما خفي عني. كنت الوحيد الذي تُرك وحيداً، الوحيد في الظلام. كل ما كنت أعرفه على وجه التأكيد هو أنني مادمت عاجزاً عن حل لغز ذلك الشيء، فإن كوميكو لن تعود إلي أبداً. بدأت أستشعر غضباً صامتاً ينمو داخل جسدي شيئاً فشيئاً، غضب موجّه ناحية ذلك الشيء الذي ظل عصيّاً على رؤيتي. مددت ظهري، وأخذت نفساً عميقاً، وهدّأتخفقان قلبي. ومع ذلك، فإن الغضب تسرب بصمت كالماء إلى جميع أركان جسدي. كان غضباً منقوعاً في الأسى. لم تكن أمامي طريقة لأحطّمه على شيء ما، ولم يكن بمستطاعي فعل أي شيء لتبديده.

*

واصل الرجل سيره بنفس الإيقاع الثابت. عبَر خط السكة الحديدية في أوداكيا،ثم مرّ بين مجموعة من المتاجر، ثم سار عبرْ ضريح، وعبْر متاهة من الأزقة. تبعته وأنا أتحكم في المسافة التي تفصلني عنه في كل موضع حتى لا يراني. وكان من الواضح أنه لم يلاحظني أتبعه. لم يلتفت قط. لا بد أن هناك شيء بشأن هذا الرجل يجعله مختلفاً عن الناس العاديين. لم يكن يلتفت إلى الخلف فحسب، بل لم يكن ينظر إلى أي من الجانبين أيضاً. كان في غاية التركيز. ما الذي كان يفكر به؟ أم إنه كان، بالأحرى، لا يفكر بأي شيء إطلاقا؟

ثم دخل الرجل إلى منطقة ساكنة بها شارع مهجور على جانبيه منازل خشبية من طابقين. كان الشارع ضيقاً ومتعرجاً، والمنازل التي على جانبيه متهالكة ومتلاصقة. قلة السكان في ذلك المكان كانت غريبة. كانت أكثر من نصف المنازل خالية، وهناك لوحات مثبتة أمام الأبواب الأمامية تعلن أن المنازل للبيع أو تحت التشييد. وتوجد قطع أرض خالية هنا وهناك، مثل أسنان مفقودة، تنمو فيها أعشاب الصيف، وكل منها محاط بسياج معدني. على الأرجح كانت هناك خطة لهدم المنطقة بأكملها في المستقبل القريب وتشييد بعض المباني العالية. رأيت عدداً من أصص الزهور أمام أحد المنازل القليلة المأهولة، ودراجة ثلاثية العجلات ملقاة على جانبها، ومنشفة وزي سباحة طفل معلقان أمام نافذة بالطابق الثاني. قطط متمددة في كل مكان، تحت النوافذ وعند المداخل – تراقبني بعيونها الخَدِرة. رغم أن الوقت كان بداية المساء، لم يكن هناك أثر لأي شخص. ضاعت مني جغرافية المكان، ولم أستطع التمييز بين الشمال والجنوب. خمنت أنني كنت في المنطقة المثلثة بين يويوغي وسينداغايا وهاراجوكو، لكن لم يكن بوسعي الجزم.

كان جزءاً منسياً من المدينة، على أي حال. وعلى الأرجح كان يُصرف النظر عنه لأن الشوارع كانت من الضيق بحيث تمر السيارات عبرها بالكاد. ولم تبلغ أيدي المطورين هذا الحد. شعرت، وأنا أسير في ذلك المكان، بأن الزمن قد عاد إلى الوراء عشرين أو ثلاثين سنة. أدركتُ أن هدير محركات السيارات، في مرحلة ما، قد أُبتلع واختفى الآن. شق الرجل طريقه، حاملاً حقيبة جيتاره، عبر متاهة من الشوارع ووقف

عند مبنى مؤلف من عدة وحدات سكنية، فتح الباب الأمامي ودخل، ثم أغلق الباب خلفه. ولم يوصده، حسبما رأيت.

ظللت واقفاً في مكاني بعض الوقت. وكانت عقارب ساعتي تشير إلى السادسة وعشرين دقيقة. اتكأت على السياج المعدني المحيط بالقطعة الخالية على الجانب الآخر من الشارع، ورحت أراقب المبنى.

سكنت في مبنى كهذا عندما كنت طالباً، كان فيه خزانة أحذية عند المدخل، وحمام مشترك، ومطبخ صغير. ولم يكن يعيش هناك سوى الطلاب أو العمال العازبين. لكن هذا المبنى لم يترك لدي انطباعاً بأن أحداً يعيش فيه. لم يصدر عنه أي صوت أو حركة. لم يكن الباب المكسو بطبقة من البلاستيك يحمل لوحة اسم، من الواضح أنها أزيلت. وكانت جميع النوافذ في المبنى مغلقة بإحكام، والستائر مسدلة، بالرغم من حر العصر.

كان يُخطط لهدم المبني في وقت قريب على الأرجح، إسوة بالمباني المجاورة. ولم يعد يعيش أي أحد هناك. لكن إن كان هذا صحيحاً، فما الذي يفعله الرجل صاحب حقيبة الجيتار هناك؟ توقعت رؤية نافذة تُفتح بعد دخوله، لكن لم يتحرك أي شيء.

لم يكن بإمكاني التسكع في ذلك الزقاق المهجور للأبد، فسرت إلى الباب الأمامي ودفعته. كنت محقاً، لم يكن موصداً، وانفتح إلى الداخل بسهولة. وقفت عند

المدخل بعض الوقت محاولاً تبيّن المكان، لكن بالكاد كنت أرى شيئاً في العتمة. بما أن جميع النوافذ مغلقة، كان المكان مليئاً بهواء ساخن راكد. وذكرتني الرائحة الرطبة بهواء قاع البئر. كان إبطاي يتصببان عرقاً، وانحدرت قطرة عرق خلف أذني. بعد لحظة من التردد، خطوت إلى الداخل وأغلقت الباب خلفي بهدوء. حاولت معرفة ما إذا كان أي أحد يعيش في المبنى بالنظر إلى رُقع الأسماء على صناديق البريد أو خزانة الأحذية، لكن قبل أن أتمكن من فعل ذلك، أدركت أن أحدهم هناك. شخصٌ ما يراقبني.

كانت هناك خزانة أحذية طويلة، أو شيء كهذا، تنتصب على الجانب الأيمن من المدخل، وأحدهم يقف خلفها، كما لو أنه يريد الاختباء. حبست أنفاسي وحدقت في العتمة الرطبة. كان الواقف هو الشاب صاحب حقيبة الجيتار. ومن الواضح أنه كان يختبئ خلف خزانة الأحذية منذ لحظة دخوله. بلغ قلبي حنجرتي وهو يخفق مثل مطرقة تنهال على مسمار. ما الذي كان يفعله هناك؟ هل كان في انتظاري؟

حملت نفسي على القول: «مرحباً يا من هناك، كنت آمل أن أسالك...»

لكن لم أكد أتفوه بتلك الكلمات، حتى ارتطم شيء بكتفي بقوة. لم أستطع معرفة ما كان يحدث. كل ما شعرت به عندئذٍ هو القوة العنيفة للشيء الذي ارتطم بي. ظللت واقفاً في مكاني مشدوهاً. ومن ثم، أدركت ما كان يحدث. وثب الرجل من خلف الخزانة بمرونة قرد وضربني بمضرب بيسبول. وأثناء وقوفي مصعوقاً، رفع

المضرب ثانية وهوى به علي. حاولت أن أراوغ، لكن بعد فوات الأوان. هذه المرة وقع المضرب على ذراعي اليسرى. فقدت أي شعور في ذراعي للحظة. لم يكن ثمة ألم، لا شيء مطلقاً. كما لو أن الذراع بأكملها قد ذابت في العدم.

لكن قبل أن أعي ما يحدث، بردة فعل لا إرادية تقريباً، وجدتني أركله. لم أتلق تدريبياً نظامياً في الفنون القتالية المختلطة، لكن صديقاً لي في المدرسة الثانوية ذو مهارات عالية في الكاراتيه كان قد علمني بعض الحركات الأساسية. كنت أتدرب معه على الركلات، يوماً بعد يوم. ما من شيء معقد. مجرد تدريب على الركل عالياً وبقوة قدر الإمكان. قال لي إن الركل هو أكثر المهارات فائدة في الحالات الطارئة. وقد كان محقاً. لم يتوقع الرجل– وهو مشغول بالتلويح بمضربه– أن يتعرض للركل. مثلما كان هائجاً تماماً، لم تكن لدي فكرة عن المكان الذي أصوب إليه ركلاتي، أو مدى قوتها. لكن مفاجأتي صدمته. كفَّ عن التلويح بمضربه، وكما لو أن الزمن تجمد في تلك اللحظة، حدق إليّ بعينين خاويتين. ونظراً لهذه البداية، صوبت ركلة أقوى وأدق إلى أسفل بطنه، وعندما انحنى ملتوياً من الألم، انتزعت المضرب من يديه. ثم ركلته بقوة في أضلاعه. حاول الإمساك بساقي، فركلته مجدداً ومجدداً، في نفس المكان. ثم هويت على فخذه بالمضرب، فتهالك على الأرض وهو يطلق صرخة خافتة.

في بادئ الأمر، كنت أركله وأضربه بدافع الرعب فحسب، حتى أتجنب التعرض للضرب. لكن حالما سقط على الأرض، وجدت رعبي تحول إلى غضب

عارم. كان ما يزال ثمة غضب بداخلي، الغضب الذي كان يعتمل في صدري سابقاً عندما كنت أسير وأفكر بكوميكو. وبعدما أُطلق له العنان، اندلع متحولاً إلى شيء أقرب لكراهية مريرة. هشمت فخذ الرجل بالمضرب مجدداً. كان اللعاب يسيل من طرف فمه. بدأ كتفي وذراعي اليسرى ينبضان بالألم حيث ضربني. فأجّج الألم غضبي. تغضّن وجه الرجل بتعابير الألم. لكنه جاهد لينهض من الأرض. لم أستطع تحريك ذراعي اليسرى، لذلك ألقيت المضرب ووقفت فوقه، وانهلت على وجهه لكماً بيمناي، لكمته المرة تلو الأخرى، حتى تخدرت أصابعي، ثم بدأت تؤلمني. كنت سأواصل ضربه حتى يغمى عليه. أمسكت بعنقه وضربت رأسه بالأرضية الخشبية. لم أشتبك في شجار بالأيدي في حياتي قط. ولم أضرب شخصاً آخر بكل ما لدي من قوة. لكن في تلك اللحظة، كان الضرب هو كل ما أستطيع فعله. وبدا لي إنني عاجز عن التوقف. كان عقلي يأمرني بالتوقف، ويقول لي إن هذا يكفي، لم يعد الرجل قادراً على الوقوف على قدميه. لكن لم أستطع التوقف. أدركت أنه كان هناك اثنان مني. انفصمتُ إلى اثنين. لكن أناي هذه فقدت المقدرة على إيقاف الأخرى. سرَت قشعريرة باردة في جسدي.

ثم أدركت أن الرجل يبتسم. حتى وأنا أواصل ضربه، ظل الرجل يبتسم لي. كلما ضربته، اتسعت ابتسامته. وفي النهاية، والدم يسيل من أنفه وشفتيه، ويختنق بلعابه، أطلق الرجل ضحكة عالية حادة. قلت لنفسي، *لا بد أنه مجنون*. فتوقفت عن ضربه واعتدلت واقفاً.

نظرت فيما حولي ورأيت حقيبة الجيتار مُسندة إلى جانب خزانة الأحذية. تركت الرجل حيث كان ممداً، وهو ما يزال يضحك، واتجهت إلى حقيبة الجيتار. وضعتها على الأرض وفتحتها ورفعت الغطاء. لم يكن ثمة شيء بداخلها. كانت فارغة تماماً. ما من جيتار وما من شموع. نظر الرجل إليّ، وهو يضحك ويسعل. كنت أتنفس بالكاد. وفجأة أصبح الهواء الرطب داخل المبنى لا يُحتمل. رائحة الرطوبة، وملمس عرقي، ورائحة الدم واللعاب، وإحساسي بالغضب والكراهية – جميعها فاقت مقدرتي على التحمل. دفعت الباب وخرجت، وأغلقت الباب خلفي. وكما في السابق، لم يكن هناك أي أثر لأي أحد في المنطقة. الشيء الوحيد الذي يتحرك كان قط بني ضخم يتهادى عبر قطعة الأرض الخالية، دون أن يلقى لي بالاً.

أردت مغادرة المكان قبل أن يراني أي أحد. لم أكن متأكداً من الاتجاه الذي ينبغي لي أن أسلكه، لكنني شرعت في المشي، وقبل وقت طويل تمكنت من إيجاد موقف حافلات مكتوب عليه'إلى محطة شينجوكو'. أمِلت أن أهدئ تنفسي وأسوِّي شعري قبل وصول البص، لكنني عجزت عن كليهما. قلت لنفسي مراراً وتكراراً: *كل ما كنت أحاول فعله هو النظر إلى وجوه الناس! كنت أنظر إلى وجوه المارّة في الشارع فحسب، بالطريقة التي أخبرني بها خالي. كنت أحاول فك تشابك أبسط التعقيدات في حياتي، هذا كل ما في الأمر*. عندما صعدت على متن الحافلة، التفت الركاب ناحيتي، ونظروا إليّ بذهول، ثم أشاحوا بوجوههم. افترضت أن ذلك بسبب

العلامة التي على وجهي. ثم مرّ بعض الوقت قبل أن أدرك أن السبب هو قطرات الدم المتناثرة على قميصي الأبيض (معظمه من أنف الرجل) ومضرب البيسبول الذي كنت ما أزال ممسكاً به بيدي.

انتهى بي المطاف وأنا أحمل المضرب حتى المنزل، ثم ألقيته في الخزانة.

تلك الليلة، ظللت مستيقظاً حتى شروق الشمس. بدأت المواضع التي ضربني عليها الرجل من كتفي وذراعي اليسرى تتورم وتنبض بالألم. واحتفظت قبضتي اليمنى بإحساس لكم الرجل مرة تلو الأخرى. أدركت أن يدي ما تزال مضمومة على شكل قبضة ومتأهبة للقتال. حاولت بسطها، لكن يدي لم تتجاوب. وفيما يتعلق بالنوم، لم تكن مسألة عدم مقدرة على النوم بقدر ما كانت عدم رغبة فيه. إذا أويت إلى الفراش في حالتي تلك، فسوف يستحيل عليّ تجنب الكوابيس الفظيعة. جلست إلى طاولة المطبخ، محاولاً تهدئة نفسي، وتجرعت بقية قنينة الويسكي التي أحضرها خالي، واستمعت إلى موسيقى هادئة على مشغل الكاسيت. أردت أن أتحدث إلى شخص ما. أردت أن يتحدث إليّ شخص ما. وضعت الهاتف على الطاولة ورحت أحدق إليه ساعات. فليتصل بي أحدهم، رجاءً، فليكن أي أحد، حتى امرأة الهاتف الغامضة، لا يهم. فلتكن المحادثة الأكثر قذارة وعبثاً وشؤماً، لا أكترث. أريد أن يتحدث أحدهم معي فحسب.

لكن الهاتف لم يرن. أنهيت نصف قنينة الويسكي المتبقية. وبعدما أُضيئت السماء، زحفت إلى الفراش وخلدت إلى النوم، راجياً ألاّ أحلم، متمنياً أن يكون نومي فضاءً خالياً ولو ذلك اليوم فحسب.

لكنني حلمت بالطبع. وكما توقعت، كان كابوساً فظيعاً. ظهر فيه الرجل صاحب حقيبة الجيتار. قمت بنفس الأفعال في الحلم كما في الواقع: تبعته، وفتحت باب المبنى السكني، وشعرت بضربةالمضرب، وضربت الرجل ضرباً بلا هوادة. لكن بعد ذلك، تغير المشهد. عندما توقفت عن ضربه واتنصبت واقفاً، رأيت الرجل، الذي يسيل لعابه ويضحك بهياج، يستل مدية من جيبه، مدية صغيرة تبدو حادة. عكست شفرتها ضوء المساء الخافت الذي تسلل من خلال الستائر. لكن الرجل لم يستخدم المدية سلاحاً لمهاجمتي. بدلاً من ذلك، نزع جميع ملابسه وشرع في سلخ جلده كأنه يقشر تفاحة. كان يعمل بسرعة، وهو يضحك بصخب طوال الوقت. تفجر الدم منه مكوناً بركة سوداء على الأرضية.سلخ جلد ذراعه اليسرى مستخدماً يده اليمنى. ومستخدماً يسراه المسلوخة، سلخ جلد ذراعه اليمنى. وفي النهاية، صار كتلة من اللحم الأحمر القاني. لكن حتى عندئذٍ، واصل الضحك من تجويف فمه الأسود المفتوح، ومقلتاه البيضاوان ترتعشان بتشنج وهما جاحظتان من كتلة اللحم. وبعدها على الفور، كما لو كان استجابة لضحكه الصاخب الغريب، بدأ جلد الرجل المسلوخ يتلوّى على الأرضية متحركاً باتجاهي. حاولت الركض مبتعداً، لكن ساقاي تسمّرتا في مكانهما. بلغ الجلد قدميّ وبدأ يتسلقني زاحفاً للأعلى. زحف جلد الرجل المخضب

بالدماء متشبثاً بجلدي كطبقة إضافية. كانت رائحة الدماء القوية في كل مكان. وسرعان ما غطى جلد الرجل ساقيّ وجسدي ووجهي. ثم لم تعد عيناي تبصران. وكانت ضحكة الرجل تدوّي في الظلام الأجوف. وعندها استيقظت.

اجتاحني الخوف، والتشوش. ولبعض الوقت، فقدت إحساسي بوجودي. وكانت أصابعي ترتعش. لكن في الوقت عينه، علمت أنني وصلت إلى قرار.

لا يمكنني – ولا يجدر بي– أن أهرب. ليس إلى كريت، وليس إلى أي مكان. ولا بد أن أستعيد كوميكو. يجب أن أنتشلها وأعيدها إلى *هذا العالم* بيديّ هاتين. لأنني إن لم أفعل ذلك، فستكون عندها نهايتي. هذا الشخص، هذه الذات التي أشير إليها بـ 'أنا' سوف تضيع للأبد.